مِفْرَقُ الطَّرِيقِ في القُرآن الكَريم

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ ٢٠١٠ م

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فإنَّ كنوز القرآن الكريم لا تنفد،وعطاؤه لا ينتهي،فهو مفرق الطريق بين الحق والباطل،وبين الإنسان الملتزم به وبين الإنسان المتبع لهواه،بين من يعيش بين جدران الجسد والحياة المادية كما تعيش الأنعام،وبين الإنسان الذي يعيش في الدنيا وهو يتطلع إلى الآخرة،بين العدل والظلم،بين الحياة الحقيقية وبين حياة بقية المخلوقات،بين السعادة والشقاء،بين من يجاهد لإعلاء كلمة الله وبين من يجاهد لإعلاء كلمة الشيطان،بين من ينتصر للحق وبين من يدافع عن الباطل،بين الثبات والخور،بين من يعمر حياته بالخير وبين من يعمر حياته بالشر،بين من يشري نفسه لله وبين من يشريها لغيره،بين من يحمل همَّ الأمة،وبين من لا يحمل إلا همَّ نفسه،بين الصبر والضجر،بين العمل والكسل،بين الارتقاء وبين الهبوط،بين من يمشي على على صراط مستقيم وبين من يمشي مكبا على وجهه ....

قال تعالى:{ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك:٢٢]

وَهَذَا مَثَلٌ يَضْرِبُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ،فَالكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيه كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُنْحَنِياً يَتَعَثَّرُ فِي طَرِيقِه،وَيَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ لِتَوَعُّرِ طَرِيقِه،لاَ يَعْرِفُ أَيْنَ يَسْلُكُ،وَلاَ كَيْفَ يَذْهَبُ،وَالمُؤْمِنُ مَثَلُهُ كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُنْتَصِبَ القَامَةِ،مُسْتَوِياً،فَهُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ مَسْلَكِه،وَعَلَى هُدًى مِنْ طَرِيقِه،فَكَمَا أَنَّهُ لاَ يَسْتَوِي الذِي يَسِيرُ مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ،مَعَ مَنْ يَسِيرُ مُنْتَصِبَ القَامَةِ،كَذَلِكَ لاَ يَسْتَوِي المُؤْمِنُ،الذِي يَكُونُ عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ،مَعَ الكَافِرِ،الذِي ضَلَّ طَرِيقَ الهُدَى وَالرَّشَادِ[١] .

---

[١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد [ص ٥١٤١]

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله،المحروم من هداه،الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته،لأنه يعترضها في سيره،ويتخذ له مسارا غير مسارها،وطريقا غير طريقها،فهو أبدا في تعثر،وأبدا في عناء،وأبدا في ضلال.

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله،الممتع بهداه،الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور،الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد.وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء.

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد.وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال.فأيهما أهدى؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب! ويتوارى السؤال والجواب ليتراءى للقلب هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك ..مشهد جماعة يمشون على وجوههم،أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق.ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات،مستقيمة الخطوات،في طريق مستقيم،لهدف مرسوم. [٢]

وفي هذا الكتاب كثير من هذه المفارق،ومن العسير حصرها،وهي مشروحة بشكل واضح...قال تعالى:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد:١٩]

أسأل الله تعالى أن ينفع به جامعه وقارئه وناشره والدالَّ عليه في الدارين .

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ١٨ شوال ١٤٣١ هـ الموافق ل ٢٠١٠/٩/٢٧ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٥٣٥]

قال تعالى:«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ..والحمد للّه هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره للّه ..فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء.وفي كل لمحة وفي كل لحظة وفي كل خطوة تتوالى آلاء اللّه وتتواكب وتتجمع،وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان ..ومن ثم كان الحمد للّه ابتداء،وكان الحمد للّه ختاما قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر:«وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ،لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ ...».

ومع هذا يبلغ من فضل اللّه – سبحانه – وفيضه على عبده المؤمن،أنه إذا قال:الحمد للّه.كتبها له حسنة ترجح كل الموازين ..في سنن ابن عن قُدَامَةَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْجُمَحِيِّ؛ أَنَّهُ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،وَهُوَ غُلاَمٌ،وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُعَصْفَرَانِ،قَالَ:فَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺحَدَّثَهُمْ؛أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ:يَا رَبِّ،لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلاَلِ وَجْهِكَ،وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ،فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ،فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا،فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ،فَقَالاَ:يَا رَبَّنَا،إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لاَ نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا،قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ:مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ قَالاَ:يَا رَبِّ،إِنَّهُ قَالَ:يَا رَبِّ،لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلاَلِ وَجْهِكَ،وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ،فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا:اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي،حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا.[٣] ..

والتوجه إلى اللّه بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره للّه – كما أسلفنا – أما شطر الآية الأخير:«رَبِّ الْعالَمِينَ» فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي،فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية ..والرب هو المالك المتصرف،ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية ..والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين – أي جميع الخلائق – واللّه – سبحانه – لم يخلق

---

[٣] – سنن ابن ماجة– طبع مؤسسة الرسالة [٤ /٧١٢](٣٨٠١) فيه لين

الكون ثم يتركه هملا.إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيــه.وكــل العــوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية اللّه رب العالمين.

والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة.

والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل،والغبش الــذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة.وكثيرا ما كان الناس يجمعون بــين الاعتراف باللّه بوصفه الموجد الواحد للكون،والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة.ولقد يبدو هذا غريبا مضحكا.ولكنه كان وما يزال.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولــون عــن أربــابهم المتفرقة:«ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى » ..كما قال عن جماعــة مــن أهــل الكتاب:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ..وكانت عقائد الجاهليــات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام،تعج بالأرباب المختلفة،بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون! فإطلاق الربوبية في هذه السورة،وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعا،هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة.لتتجه العــوالم كلها إلى رب واحد،تقر له بالسيادة المطلقة،وتنفض عــن كاهلــها زحمــة الأربــاب المتفرقة،وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب ..ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية اللّه الدائمة وربوبيته القائمة.وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدا ولا تفتر ولا تغيــب،لا كما كان أرقى تصور فلسفي لأرسطو مثلا يقول بأن اللّه أوجد هذا الكون ثم لم يعــد يهتم به،لأن اللّه أرقى من أن يفكر فيما هو دونه! فهو لا يفكر إلا في ذاته! وأرسطو – وهذا تصوره – هو أكبر الفلاسفة،وعقله هو أكبر العقول! لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار ..

يختلط فيها الحق بالباطل،والصحيح بالزائف،والدين بالخرافة،والفلســفة بالأســطورة ..والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون،ولا يستقر منها على يقين.

وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور،هو ذلك الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها،وصفاته وعلاقته بخلائقه،ونوع الصلة بين اللّه والإنسان على وجه الخصوص.

ولم يكن مستطاعا أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون،وفي أمر نفسه وفي منهج حياته،قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته،وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل.

ولا يدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا الركام،وحتى يرود هذا التيه من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري،والتي أشرنا إلى طرف منها فيما تقدم صغير.

ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة،وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر اللّه وصفاته،وعلاقته بالخلائق،وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين.

ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل،الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد ..هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام،وظل يجلوها في الضمير،ويتتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد،حتى يخلصها من كل غبش.ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور ..

كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات اللّه وبخاصة ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة.فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير ..

مما يتعلق بهذا الأمر الخطير،العظيم الأثر في الضمير الإنساني.وفي السلوك البشري سواء.

والذي يراجع لجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات اللّه وصفاته وعلاقته بمخلوقاته،هذا الجهد الذي تمثله النصوص القرآنية الكثيرة ..الذي يراجع هذا الجهد المتطاول دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل في ذلك التيه الشامل

الذي كانت البشرية كلها تهيم فيه ..قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هـذا البيـان المؤكد المكرر،وإلى كل هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير ..ولكن مراجعـة ذلك الركام تكشف عن ضرورة ذلك الجهد المتطاول،كما تكشف عن مدى عظمـة الدور الذي قامت به هذه العقيدة - وتقوم في تحرير الضمير البشري وإعتاقه وإطلاقـه من عناء التخبط بين شتى الأرباب وشتى الأوهام والأساطير!

وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها ..كل هذا لا ينجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعـة ركـام الجاهليـة مـن العقائـد والتصورات،والأساطير والفلسفات! وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعـالم ..عندئذ تبدو العقيدة الإسلامية رحمة.رحمة حقيقية للقلب والعقل،رحمة بما فيهـا مـن جمال وبساطة،ووضوح وتناسق،وقرب وأنس،وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق.[٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٧]

قال تعالى:«الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» ..هذه الصفة التي تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا في صلب السورة،في آية مستقلة،لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه.وبين الخالق ومخلوقاته ..إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء.إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة،فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية.

إن الرب الإله في الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها كما تصورها أساطير الإغريق.ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في «العهد القديم» كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين[٥].

«مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ..وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها،كلية الاعتقاد بالآخرة ..والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة.ويوم الدين هو يوما الجزاء في الآخرة ..وكثيرا ما اعتقد الناس بألوهية اللّه،وخلقه للكون أول مرة ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء ..والقرآن يقول عن بعض هؤلاء:«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ:اللَّهُ» ..ثم يحكي عنهم في موضع آخر:«بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون:هذا شيء عجيب.أإذا متنا وكنا ترابا؟

---

[٥] – وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاما واحدا.وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك.وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لبنا وننضجه طبخا فكان لهم اللبن بدل الحجارة والحمر كان لهم بدل الطين.وقالوا تعالوا نبن لنا مدينة وبرجا رأسه إلى السماء ونقم لنا اسما كي لا نتبدد على وجه الأرض كلها.فترل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما.وقال الرب هو ذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه.والآن لا يكفون عما هموا به حتى يصنعوه.هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض.فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا عن بناء المدينة.ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها.ومن هناك شتتهم الرب على كل وجهها.

ذلك رجع بعيد»! والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض فلا تستبد بهم ضرورات الأرض.وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات.ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود،وفي مجال الأرض المحصور.وعندئذ يملكون العمل لوجه اللّه وانتظار الجزاء حيث يقدره اللّه،في الأرض أو في الدار الآخرة سواء،في طمأنينة للّه،وفي ثقة بالخير،وفي إصرار على الحق،وفي سعة وسماحة ويقين ..ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب،والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان.بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية.مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها اللّه الرب لعباده،والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال.

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج اللّه الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر.وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير.وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها،وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمدا على العوض الذي يلقاه فيها ..

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل.فهما صنفان مختلفان من الخلق.وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء ..وهذا هو مفرق الطريق ..[6]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[6] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٩]

قال تعالى:« اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ..وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته ..فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية اللّه ورعايته ورحمته.والتوجه إلى اللّه في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين.وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه.فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين ..وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس اللّه الذي ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى اللّه رب العالمين. ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم:«صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» ..

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمُ:الْيَهُودُ،وَالضَّالُّونَ:النَّصَارَى[7].

قَالَ:أَبُو سعيد:وَلا أَعْلَمُ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذَا الْحَرْفِ اخْتِلافًا" [8]

وعَنْ سِمَاكِ بن حَرْبٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبَّادَ بن حُبَيْشٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ عَدِيَّ بن حَاتِمٍ،قَالَ:جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ رُسُلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَقْرَبٍ،فَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا،فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ صُفُّوا لَهُ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،نَأَى الْوَافِدُ وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرٌ وَمَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ،فَمُنَّ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ،قَالَ:"وَمَنْ وَافِدُكِ؟"قَالَتْ:عَدِيُّ بن حَاتِمٍ،قَالَ:"أَيِ الَّذِي فَرَّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"،قَالَتْ:فَمُنَّ عَلَيَّ،فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ تَرَى أَنَّهُ عَلِيٌّ،فَقَالَ:سَلِيهِ حُمْلانًا،قَالَتْ:فَسَأَلْتُهُ،فَأَمَرَ بِأَتَانٍ،فَقُلْتُ:لَقَدْ فَعَلْتَ فَعْلَةً مَا كَانَ أَبُوكَ يَفْعَلُهَا،فَقَالَتِ:ائْتِهِ رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا،فَقَدْ أَتَاهُ فُلانٌ،فَأَصَابَ مِنْهُ وَأَتَاهُ فُلانٌ،فَأَصَابَ مِنْهُ،فَأَتَيْتُهُ،فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصَبِيَّانِ أَوْ صَبِيٌّ،فَذَكَرَ قُرْبَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فَقَالَ:"يَا عَدِيُّ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ

---

[7] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٤ /١٣٩](٦٢٤٦) صحيح

[8] - تفسير ابن أبي حاتم [١ /١٠](٤٠)

مِنَ اللَّهِ؟"فَأَسْلَمْتُ،فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ،وَقَالَ:"إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيهِمُ الْيَهُودُ،وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى"ثُمَّ جَاءَهُ نَاسٌ،فَسَأَلُوهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ فَلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَرْضَخُوا مِنَ الْفَضْلِ،ارْتَضَخَ امْرُؤٌ بِصَاعٍ بِبَعْضِ صَاعٍ بِقَبْضَةٍ"قَالَ شُعْبَةُ:وَأَكْثَرُ عِلْمِي أَنَّهُ قَالَ:"بِتَمْرَةٍ بِشِقِّ تَمْرَةٍ إِنَّ أَحَدَكُمْ لاقِي اللَّهِ،فَقَائِلٌ:أَلَمْ أَجْعَلْكَ سَمِيعًا بَصِيرًا؟ أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالا وَوَلَدًا،فَمَاذَا قَدَّمْتَ،فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ،وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ،فَلا يَجِدُ شَيْئًا،فَلا يَتَّقِي النَّارَ إِلا بِوَجْهِهِ،فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ،فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ إِنِّي لا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْفَاقَةَ لَيَنْصُرَنَّكُمُ اللَّهُ وَلَيُعْطِيَنَّكُمْ أَوْ لَيَفْتَحُ لَكُمْ حَتَّى تَسِيرَ الظَّعِينَةُ بَيْنَ الْحِيرَةِ وَيَثْرِبَ أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَى ظَعِينَتِهَا السَّرَقُ".[٩]

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ،قَالَ:جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَوْ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا،فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَصَفُّوا لَهُ،قَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ،نَأَى الْوَافِدُ،وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ،فَمُنَّ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ،قَالَ ﷺ:وَمَنْ وَافِدُكِ ؟ قَالَتْ:عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ،قَالَ:الَّذِي فَرَّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ،قَالَتْ:فَمُنَّ عَلَيَّ،قَالَتْ:فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ تَرَى أَنَّهُ عَلِيٌّ،قَالَ:سَلِيهِ حُمْلاَنًا،قَالَتْ:فَسَأَلْتُهُ فَأَمَرَ لَهَا،قَالَتْ:فَأَتَيْتُهُ،فَقُلْتُ:لَقَدْ فَعَلْتَ فَعَلَةً مَا كَانَ أَبُوكَ يَفْعَلُهَا،فَأْتِهِ رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا،فَقَدْ أَتَاهُ فُلاَنٌ،فَأَصَابَ مِنْهُ،وَأَتَاهُ فُلاَنٌ فَأَصَابَ مِنْهُ،فَأَتَيْتُهُ،فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصِبْيَانٌ أَوْ صَبِيٌّ ذُكِرَ قُرْبُهُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُلْكِ كِسْرَى،وَلاَ قَيْصَرَ،فَقَالَ لِي:يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ مَا أَفَرَّكَ أَنْ تَقُولَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ،فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ،مَا أَفَرَّكَ مِنْ أَنْ تَقُولَ:اللَّهُ أَكْبَرُ،فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ ؟ قَالَ:فَأَسْلَمْتُ وَرَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدِ اسْتَبْشَرَ،وَقَالَ:إِنَّ {الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} الْيَهُودُ وَ {الضَّالِّينَ} النَّصَارَى[١٠].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ:جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَوْ،قَالَ:رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَنَا بِعَقْرَبٍ،فَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا،قَالَ:فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:فَصَفُّوا لَهُ . قَالَتْ:يَا

[٩] - المعجم الكبير للطبراني [١٢ /١٩](١٣٦٩١) صحيح

[١٠] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٦ /١٨٣] (٧٢٠٦) صحيح

رَسُولَ اللهِ،نَأَى الْوَافِدُ،وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ،وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ،مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ،فَمُنَّ عَلَيَّ،مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ . قَالَ:مَنْ وَافِدُكِ ؟ قَالَتْ:عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ . قَالَ:الَّذِي فَرَّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه ؟ . قَالَتْ:فَمَنَّ عَلَيَّ . قَالَتْ:فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ نَرَى أَنَّهُ عَلِيٌّ،قَالَ:سَلِيهِ حِمْلاَنًا . قَالَ:فَسَأَلَتْهُ،فَأَمَرَ لَهَا،قَالَتْ:فَأَتَانِي،فَقَالَتْ:لَقَدْ فَعَلْتَ فَعْلَةً مَا كَانَ أَبُوكَ يَفْعَلُهَا . قَالَتْ:ائْتِهِ رَاغِبًا،أَوْ رَاهِبًا،فَقَدْ أَتَاهُ فُلاَنٌ،فَأَصَابَ مِنْهُ،وَأَتَاهُ فُلاَنٌ،فَأَصَابَ مِنْهُ . قَالَ:فَأَتَيْتُهُ،فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصِبْيَانٌ،أَوْ صَبِيٌّ،فَذَكَرَ قُرْبَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مُلْكُ كِسْرَى وَلاَ قَيْصَرَ،فَقَالَ لَهُ:يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ؟ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ:اللَّهُ أَكْبَرُ ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ:فَأَسْلَمْتُ،فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ،وَقَالَ:إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ،وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَرْتَضِخُوا مِنَ الْفَضْلِ،ارْتَضَخَ امْرُؤٌ بِصَاعٍ بِبَعْضِ صَاعٍ،بِقَبْضَةٍ،بِبَعْضِ قَبْضَةٍ . قَالَ شُعْبَةُ:وَأَكْثَرُ عِلْمِي أَنَّهُ قَالَ:بِتَمْرَةٍ،بِشِقِّ تَمْرَةٍ،وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَقِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،فَقَائِلٌ مَا أَقُولُ:أَلَمْ أَجْعَلْكَ سَمِيعًا بَصِيرًا ؟ أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالاً وَوَلَدًا ؟ فَمَاذَا قَدَّمْتَ ؟ فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ،وَمِنْ خَلْفِهِ،وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ،فَلاَ يَجِدُ شَيْئًا،فَمَا يَتَّقِي النَّارَ إِلاَّ بِوَجْهِهِ،فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ،فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهُ،فَبِكَلِمَةٍ لَيِّنَةٍ،إِنِّي لاَ أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْفَاقَةَ،لَيَنْصُرَنَّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى،وَلَيُعْطِيَنَّكُمْ،أَوْ لَيَفْتَحَنَّ لَكُمْ،حَتَّى تَسِيرَ الظَّعِينَةُ بَيْنَ الْحِيرَةِ وَيَثْرِبَ إِنَّ أَكْثَرَ مَا تَخَافُ السَّرَقَ عَلَى ظَعِينَتِهَا[١١] .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ" الضَّالِّينَ،وَهُمُ النَّصَارَى الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ اللَّهُ بِعِزَّتِهِمْ عَلَيْهِ،يَقُولُ:فَأَلْهِمْنَا دِينَكَ الْحَقَّ،وَهُوَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ حَتَّى لا تَغْضَبَ عَلَيْنَا كَمَا غَضِبْتَ عَلَى الْيَهُودِ،وَلا تُضِلَّنَا كَمَا أَضْلَلْتَ النَّصَارَى فَتُعَذِّبَنَا كَمَا تُعَذِّبُهُمْ،يَقُولُ:امْنَعْنَا مِنْ ذَلِكَ بِرِفْقِكَ وَرَحْمَتِكَ وَرِقَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ"،قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَلا أَعْلَمُ فِي هَذَا الْحَرْفِ اخْتِلافًا بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ[١٢] .

---

[١١] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٦ /٥٥٥](١٩٣٨١) ١٩٦٠٠ صحيح

[١٢] - تفسير ابن أبي حاتم [١ /١١](٤٢) صحيح لغيره

فهو طريق الذين قسم لهم نعمته.لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدهم عنه.أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلا إليه ..إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين ..[١٣]

وَقَوْلُهُ:(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) قَالَ جَمَاهِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ:(الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) الْيَهُودُ،وَ «الضَّالُّونَ» النَّصَارَى . وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَإِنْ كَانُوا ضَالِّينَ جَمِيعًا مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ جَمِيعًا،فَإِنَّ الْغَضَبَ إِنَّمَا خُصَّ بِهِ الْيَهُودُ،وَإِنْ شَارَكَهُمُ النَّصَارَى فِيهِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيُنْكِرُونَهُ،وَيَأْتُونَ الْبَاطِلَ عَمْدًا،فَكَانَ الْغَضَبُ أَخَصَّ صِفَاتِهِمْ . وَالنَّصَارَى جَهَلَةٌ لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ،فَكَانَ الضَّلَالُ أَخَصَّ صِفَاتِهِمْ .

وَعَلَى هَذَا فَقَدَ يُبَيِّنُ أَنَّ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) الْيَهُودَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِمْ:(فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) الْآيَةَ [٢ \ ٩٠]،وَقَوْلُهُ فِيهِمْ أَيْضًا:(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) الْآيَةَ [٥ \ ٦٠]،وَقَوْلُهُ:(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ) الْآيَةَ [٧ \ ١٥٢]،وَقَدْ يُبَيِّنُ أَنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) [٥ \ ٧٧] .[١٤]

وَمِنْ غَرَضِ وَصْفِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ التَّعَوُّذُ مِمَّا عَرَضَ لِأُمَمٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْهِدَايَةِ إِلَى صِرَاطِ الْخَيْرِ بِحَسَبِ زَمَانِهِمْ بِدَعْوَةِ الرُّسُلِ إِلَى الْحَقِّ فَتَقَلَّدُوهَا ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِمْ سُوءُ الْفَهْمِ فِيهَا فَغَيَّرُوهَا وَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا،وَالتَّبَرُّؤُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ فِي بَطَرِ النِّعْمَةِ وَسُوءِ الامْتِثَالِ وَفَسَادِ التَّأْوِيلِ وَتَغْلِيبِ الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ حَتَّى حَقَّ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللَّهِ تَعَالَى،وَكَذَا التَّبَرُّؤُ مِنْ حَالِ الَّذِينَ هُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَمَا صَرَفُوا عِنَايَتَهُمْ لِلْحِفَاظِ عَلَى السَّيْرِ فِيهِ بِاسْتِقَامَةٍ،فَأَصْبَحُوا مِنَ الضَّالِّينَ بَعْدَ الْهِدَايَةِ إِذْ أَسَاءُوا صِفَةَ الْعِلْمِ بِالنِّعْمَةِ فَانْقَلَبَتْ هِدَايَتُهُمْ ضَلَالًا.

---

[١٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٣]

[١٤] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن [١ /٩]

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يَحِقَّ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللَّهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ فَلَمْ يَسْبِقْ غَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَدِيمًا وَالْيَهُودُ مِنْ جُمْلَةِ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ،وَالنَّصَارَى مِنْ جُمْلَةِ الْفَرِيقِ الثَّانِي كَمَا يُعْلَمُ مِنَ الاطِّلَاعِ عَلَى تَارِيخِ ظُهُورِ الدِّينَيْنِ فِيهِمْ. وَلَيْسَ يَلْزَمُ اخْتِصَاصُ أَوَّلِ الْوَصْفَيْنِ بِالْيَهُودِ وَالثَّانِي بِالنَّصَارَى فَإِنَّ فِي الْأُمَمِ أَمْثَالَهُمْ وَهَذَا الْوَجْهُ فِي التَّفْسِيرِ هُوَ الَّذِي يَسْتَقِيمُ مَعَهُ مَقَامُ الدُّعَاءِ بِالْهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَو كَانَ المرادين الْيَهُودِيَّةِ وَدِينَ النَّصْرَانِيَّةِ لَكَانَ الدُّعَاءُ تَحْصِيلًا لِلْحَاصِلِ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ نَاسِخًا لَهُمَا.

وَيَشْمَلُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ فِرَقَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ،فَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ جِنْسٌ لِلْفِرَقِ الَّتِي تَعَمَّدَتْ ذَلِكَ وَاسْتَخَفَّتْ بِالدِّيَانَةِ عَنْ عَمْدٍ أَوْ عَنْ تَأْوِيلٍ بَعِيدٍ جِدًّا،وَالضَّالُّونَ جِنْسٌ لِلْفِرَقِ الَّتِي أَخْطَأَتِ الدِّينَ عَنْ سُوءِ فَهْمٍ وَقِلَّةِ إِصْغَاءٍ وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ لِأَنَّنَا مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ سَبِيلِ الْحَقِّ وَصَرْفِ الْجُهْدِ إِلَى إِصَابَتِهِ،وَالْيَهُودُ مِنَ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ،وَالنَّصَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الثَّانِي. وَمَا وَرَدَ فِي الْأَثَرِ مِمَّا ظَاهِرُهُ تَفْسِيرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بِالْيَهُودِ وَالضَّالِّينَ بِالنَّصَارَى فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ فِي الْآيَةِ تَعْرِيضًا بِهَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ حَقَّ عَلَيْهِمَا هَذَانِ الْوَصْفَانِ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا صَارَ عَلَمًا فِيمَا أُرِيدَ التَّعْرِيضُ بِهِ فِيهِ. وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ هَذَا أَنَّ عَطْفَ وَلَا الضَّالِّينَ عَلَى غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ارْتِقَاءٌ فِي التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ سُوءِ الْعَاقِبَةِ لِأَنَّ التَّعَوُّذَ مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي جَلَبَ لِأَصْحَابِهِ غَضَبَ اللَّهِ لَا يُغْنِي عَنِ التَّعَوُّذِ مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ بِأَصْحَابِهِ تِلْكَ الدَّرَكَاتِ وَذَلِكَ وَجْهُ تَقْدِيمِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ عَلَى وَلَا الضَّالِّينَ،لِأَنَّ الدُّعَاءَ كَانَ بِسُؤَالِ النَّفْيِ،فَالتَّدَرُّجُ فِيهِ يَحْصُلُ بِنَفْيِ الْأَضْعَفِ بَعْدَ نَفْيِ الْأَقْوَى،مَعَ رِعَايَةِ الْفَوَاصِلِ.

وَالْغَضَبُ الْمُتَعَلِّقُ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هُوَ غَضَبُ اللَّهِ. وَحَقِيقَةُ الْغَضَبِ الْمَعْرُوفِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ كَيْفِيَّةٌ تَعْرِضُ لِلنَّفْسِ يَتْبَعُهَا حَرَكَةُ الرُّوحِ إِلَى الْخَارِجِ وَثَوَرَانُهَا فَتَطْلُبُ الانْتِقَامَ،فَالْكَيْفِيَّةُ سَبَبٌ لِطَلَبِ الانْتِقَامِ وَطَلَبُ الانْتِقَامِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الانْتِقَامِ. وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ إِرَادَةَ الانْتِقَامِ لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ مَاهِيَّةِ الْغَضَبِ بِحَيْثُ لَا تَنْفَكُّ عَنْهُ وَلَكِنَّهَا قَدْ تَكُونُ مِنْ آثَارِهِ،وَأَنَّ الْغَضَبَ هُوَ كَيْفِيَّةٌ لِلنَّفْسِ تَعْرِضُ مِنْ حُصُولِ مَا لَا يُلَائِمُهَا

فَتَتَرَتَّبُ عَلَيْه كَرَاهيَةُ الْفعْلِ الْمَغْضُوب منْهُ وَكَرَاهيَةُ فَاعله،وَيُلَازمُــهُ الْـــإعْرَاضُ عَـــنِ الْمَغْضُوب عَلَيْه وَمُعَامَلَتُهُ بالْعُنْف وَبقَطْعِ الْإحْسَان وَبالْأَذَى وَقَدْ يُفْضي ذَلكَ إلَى طَلَب الانْتقَام منْهُ فَيَخْتَلفُ الْحَدُّ الَّذي يَثُورُ عنْدَ الْغَضَب في النَّفْس باخْتلَاف مَرَاتب احْتمَال النُّفُوس للْمُنَافَرَات وَاخْتلَاف الْعَادَات في اعْتبَار أَسْبَابه،فَلَعَلَّ الَّذينَ جَعَلُوا إرَادَةَ الانْتقَام لَازمَةً للْغَضَب بَنَوْا عَلَى الْقَوَانين الْعَرَبيَّة.

وَإذْ كَانَتْ حَقيقَةُ الْغَضَب يَسْتَحيلُ اتِّصَافُ اللَّه تَعَالَى بهَا وَإسْنَادُهَا إلَيْه عَلَى الْحَقيقَـــة للْأَدلَّة الْقَطْعيَّة الدَّالَّة عَلَى تَنْزيه اللَّه تَعَالَى عَن التَّغَيُّرَات الذَّاتيَّة وَالْعَرَضيَّة،فَقَدْ وَجَبَ عَلَى الْمُؤْمن صَرْفُ إسْنَاد الْغَضَب إلَى اللَّه عَنْ مَعْنَاهُ الْحَقيقيِّ،وَطَريقَةُ أَهْلِ الْعلْمِ وَالنَّظَر في هَذَا الصَّرْف أَنْ يُصْرَفَ اللَّفْظُ إلَى الْمَجَاز بعَلَاقَة اللُّزُوم أَوْ إلَى الْكنَايَة باللَّفْظ عَنْ لَازم مَعْنَاهُ فَالَّذي يَكُونُ صفَةً للَّه منْ مَعْنَى الْغَضَب هُوَ لَازمُهُ،أَعْني الْعقَابَ وَالْإهَانَـــةَ يَـــوْمَ الْجَزَاء وَاللَّعْنَةَ أَي الْإبْعَادَ عَنْ أَهْلِ الدِّين وَالصَّلَاحِ في الدُّنْيَا أَوْ هُوَ منْ قَبيلِ التَّمْثيليَّة.

وَكَانَ السَّلَفُ في الْقَرْن الْأَوَّل وَمُنْتَصَف الْقَرْن الثاني يُمْســـكُونَ عَـــنْ تَأْويـــلِ هَـــذه الْمُتَشَابهَات لمَا رَأَوْا في ذَلكَ الْإمْسَاك منْ مَصْلَحَة الاشْتغَال بإقَامَة الْأَعْمَال الَّتي هـــيَ مُرَادُ الشَّرْعِ منَ النَّاس فَلَمَّا نَشأَ النَّظَرُ في الْعلْمِ وَطَلَب مَعْرفَة حَقَائق الْأَشْيَاء وَحَـــدَثَ قَوْلُ النَّاس في مَعَاني الدِّين بمَا لَا يُلَائمُ الْحَقَّ،لَمْ يَجدْ أَهْلُ الْعلْم بُدًّا منْ تَوْسيعِ أَسَاليب التَّأْويلِ الصَّحيحِ لإفْهَامِ الْمُسْلمِ وَكَبْت الْمُلْحد،فَقَامَ الدِّينُ بصَنيعهمْ عَلَى قَوَاعده،وَتَميَّزَ الْمُخْلصُ لَهُ عَنْ مَاكره وَجَاحده. وَكُلٌّ فيمَا صَنَعُوا عَلَى هُدًى. وَبَعْدَ الْبَيَان لَا يُرْجَـــعُ إلَى الْإجْمَال أَبَدًا. وَمَا تَأَوَّلُوهُ إلَّا بمَا هُوَ مَعْرُوفٌ في لسَان الْعَرَب مَفْهُومٌ لأَهْله.

فَغَضَبُ اللَّه تَعَالَى عَلَى الْعُمُومِ يَرْجعُ إلَى مُعَامَلَته الْحَائدينَ عَنْ هَدْيه الْعَاصينَ لـــأَوَامره وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْه الانْتقَامُ وَهُوَ مَرَاتبُ أَقْصَاهَا عقَابُ الْمُشْركينَ وَالْمُنَافقينَ بـــالْخُلُود فـــي الدَّرْك الْأَسْفَلِ منَ النَّار وَدُونَ الْغَضَب الْكَرَاهيَةُ فَقَدْ وَرَدَ في الْحَديث عَن الْمُغيرَة بْـــنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ النَّبيُّ - ﷺ- « إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَات،وَوَأْدَ الْبَنَـــات،وَمَنَعَ وَهَات،وَكَرِهَ لَكُمْ قيلَ وَقَالَ،وَكَثْرَةَ السُّؤَال،وَإضَاعَةَ الْمَال »[15]

---

[15] - صحيح البخارى- المكتر [٩ /٣٣](٢٤٠٨) وصحيح مسلم- المكتر [١١ /٣٩٠](٤٥٨٠)

،وَيُقَابِلُهُمَا الرِّضَى وَالْمَحَبَّةُ وَكُلُّ ذَلِكَ غَيْرُ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ والتكوين،وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ [الزمر:٧] وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ [الْأَنْعَام:١١٢] وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً [يُونُس:٩٩] وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْغَضَبَ عِنْدَ حُكَمَاءِ الْأَخْلَاقِ مَبْدَأٌ مِنْ مَجْمُوعِ الْأَخْلَاقِ الثَّلَاثَةِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْ جَمِيعِهَا بِالْعَدَالَةِ وَهِيَ:الْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ وَالشَّجَاعَةُ،فَالْغَضَبُ مَبْدَأُ الشَّجَاعَةِ إِلَّا أَنَّ الْغَضَبَ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ مَبْدَأٍ نَفْسَانِيٍّ لِأَخْلَاقٍ كَثِيرَةٍ مُتَطَرِّفَةٍ وَمُعْتَدِلَةٍ فَيُلَقَّبُونَ بِالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ مَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ صِفَاتِ السَّبُعِيَّةِ وَهِيَ حُبُّ الْغَلَبَةِ وَمِنْ فَوَائِدِهَا دَفْعُ مَا يَضُرُّهُ وَلَهَا حَدُّ اعْتِدَالٍ وَحَدُّ انْحِرَافٍ فَاعْتِدَالُهَا الشَّجَاعَةُ وَكِبَرُ الْهِمَّةِ،وَثَبَاتُ الْقَلْبِ فِي الْمَخَاوِفِ،وَانْحِرَافُهَا إِمَّا بِالزِّيَادَةِ فَهِيَ التَّهَوُّرُ وَشِدَّةُ الْغَضَبِ مِنْ شَيْءٍ قَلِيلٍ وَالْكِبْرُ وَالْعُجْبُ وَالشَّرَاسَةُ وَالْحِقْدُ وَالْحَسَدُ وَالْقَسَاوَةُ،أَوْ بِالنُّقْصَانِ فَالْجُبْنُ وَخَوْرُ النَّفْسِ وَصِغَرُ الْهِمَّةِ فَإِذَا أُطْلِقَ الْغَضَبُ لُغَةً انْصَرَفَ إِلَى بَعْضِ انْحِرَافِ الْغَضَبِيَّةِ،وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ النَّبِي ﷺ ما جاء عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ عَلِّمْنِى شَيْئًا وَلاَ تُكْثِرْ عَلَىَّ لَعَلِّى أَعِيه. قَالَ « لاَ تَغْضَبْ ». فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ « لاَ تَغْضَبْ ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[١٦] .

وَسُئِلَ بَعْضُ مُلُوكِ الْفُرْسِ بِمَ دَامَ مُلْكُكُمْ؟ فَقَالَ:لِأَنَّا نُعَاقِبُ عَلَى قَدْرِ الذَّنْبِ لَا عَلَى قَدْرِ الْغَضَبِ. فَالْغَضَبُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الْغَضَبُ لِلنَّفْسِ لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْهُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ،وَمِنَ الْغَضَبِ مَحْمُودٌ وَهُوَ الْغَضَبُ لِحِمَايَةِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَخُصُوصًا الدِّينِيَّةِ وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ النَّبِيءَ كَانَ لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ فَإِذَا انْتُهِكَتْ حُرْمَةٌ مِنْ حُرُمَاتِ اللَّهِ غَضِبَ لِلَّهِ.

وَقَوْلُهُ:وَلَا الضَّالِّينَ مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ كَمَا هُوَ مُتَبَادِرٌ،قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ،قَالَ مَكِّيُّ ابْن أَبِي طَالِب إِنَّ دُخُولَ (لَا) لِدَفْعِ تَوَهُّمِ عَطْفِ (الضَّالِّينَ) عَلَى (الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ)،وَهُوَ تَوْجِيهٌ بَعِيدٌ فَالْحَقُّ أَنَّ (لَا) مَزِيدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ لَفْظِ (غَيْرِ)

---

[١٦] - سنن الترمذى- المكنز [٨ /٤٣](٢١٥٢) صحيح

عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَى مَا فِي حَيِّزِ النَّفْيِ نَحْوَ قَوْلِهِ:أَنْ تَقُولُوا مَا جاءَنــا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ [الْمَائِدَة:١٩]

وَهُوَ أُسْلُوبٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَقَالَ السَّيِّدُ فِي «حَوَاشِي الْكَشَّافِ» لِئَلَّــا يَتَــوَهَّمَ أَنَّ الْمَنْفِيَّ هُوَ الْمَجْمُوعُ فَيُجَوِّزَ ثُبُوتَ أَحَدِهِمَا،وَلَمَّا كَانَتْ غَيْرُ فِي مَعْنَى النَّفْيِ أُجْرِيَــتْ إِعَادَةُ النَّفْيِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا،وَلَيْسَتْ زِيَادَةُ (لَا) هُنَا كَزِيَادَتِهَا فِي نَحْوِ:مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ [الْأَعْرَاف:١٢] كَمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ لِأَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ لَفْظِيَّــةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَى الْإِثْبَاتِ وَالَّتِي هُنَا زِيَادَةٌ لَفْظِيَّةٌ فَحَسْبُ وَالْمَعْنَى عَلَى النَّفْيِ.

وَالضَّلَالُ سُلُوكُ غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُرَادِ عَنْ خَطَأٍ سَوَاءٌ عَلِمَ بِذَلِكَ فَهُوَ يَتَطَلَّبُ الطَّرِيقَ أَمْ لَمْ يَعْلَمْ،وَمِنْهُ ضَالَّةُ الْإِبِلِ،وَهُوَ مُقَابِلُ الْهُدَى وَإِطْلَاقُ الضَّالِّ عَلَى الْمُخْطِئِ فِــي الــدِّينِ أَوِ الْعِلْمِ اسْتِعَارَةٌ كَمَا هُنَا. وَالضَّلَالُ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ مُقَابِلُ الِاهْتِدَاءِ وَالِاهْتِدَاءُ هُوَ الْإِيمَــانُ الْكَامِلُ وَالضَّلَالُ مَا دُونَ ذَلِكَ،قَالُوا وَلَهُ عَرْضٌ عَرِيضٌ أَدْنَاهُ تَرْكُ السُّنَنِ وَأَقْصَاهُ الْكُفْرُ.

وَقَدْ فَسَّرْنَا الْهِدَايَةَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا الدَّلَالَةُ بِلُطْفٍ،فَالضَّلَالُ عَدَمُ ذَلِكَ،وَيُطْلَقُ عَلَى أَقْصَى أَنْوَاعِهِ الْخَتْمُ وَالطَّبْعُ وَالْأَكِنَّةُ.

وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ جِنْسَا فِرَقِ الْكُفْرِ،فَالْمَغْضُوبُ عَلَــيْهِمْ جِــنْسٌ لِلفِرَقِ الَّتِي تَعَمّدت ذَلِك واستحقت بالدِّيَانَة عَنْ عَمْدٍ وَعَنْ تَأْوِيلٍ بَعِيد جِــدًّا تُحْمَــلُ عَلَيْهِ غَلَبَةُ الْهَوَى،فَهَؤُلَاءِ سَلَكُوا مِنَ الصِّرَاطِ الَّذِي خُطَّ لَهُمْ مَسَالِكَ غَيْــرَ مُسْــتَقِيمَةٍ فَاسْتَحَقُّوا الْغَضَب لأَنهم أخطأوا عَنْ غَيْرِ مَعْذِرَةٍ إِذْ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْخَطَأِ إِلَّــا إِيثَــارُ حُظُوظ الدُّنْيَا.

وَالضَّالُّونَ جِنْسٌ لِلْفِرَقِ الَّذِينَ حَرَّفُوا الدِّيَانَاتِ الْحَقَّ عَنْ عَمْدٍ وَعَنْ سُوءِ فَهْــمٍ وَكِلَــا الْفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ مُعَاقَبٌ لِأَنَّ الْخَلْقَ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ سَبِيلِ الْحَقِّ وَبَذْلِ الْجُهْدِ إِلَى إِصَابَتِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ مُخَالَفَةِ مَقَاصِدِهِ.

وَإِذْ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَعُلِمَ أَنَّ الْغَضَبَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ حَادُوا عَنِ الصِّرَاطِ الَّذِي هُدُوا إِلَيْهِ فَحَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْوُصُولِ بِهِ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى،وَأَنَّ الضَّالِّينَ قَدْ ضَلُّوا الصِّرَاطَ،فَحَصَلَ شِبْهُ الِاحْتِبَاكِ وَهُوَ أَنَّ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ نَالَ حَظًّا مِنَ الْوَصْفَيْنِ إِلَّا أَنَّ

تَعْليقَ كُلِّ وَصْف عَلَى الْفَرِيقِ الَّذي عُلِّقَ عَلَيْه يُرْشدُ إِلَى أَنَّ الْمَوْصُوفينَ بالضَّالِّينَ هُـــمْ دُونَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ فِي الضَّلَالِ فَالْمُرَادُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ غَضَبًا شَدِيدًا لِأَنَّ ضَلَالَهُمْ شَنِيعٌ.

فَالْيَهُودُ مَثَلٌ لِلفَرِيقِ الْأَوَّلِ وَالنَّصَارَى مِنْ جُمْلَةِ الْفَرِيقِ الثَّاني كَمَا وَرَدَ بِه الْحَديثُ عَنِ النَّبي ﷺ فِي «جَامعِ التِّرْمذيِّ» وَحَسَّنَهُ. وَمَا وَرَدَ فِي الْأَثَرِ مِنْ تَفْسِيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بِالْيَهُودِ وَالضَّالِّينَ بِالنَّصَارَى،فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّمْثِيلِ بِأَشْهَرِ الْفِرَقِ الَّتِي حَقَّ عَلَيْهَا هَـــذَانِ الْوَصْفَانِ،فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَعْرِفُونَ الْيَهُودَ فِي خَيْبَرَ وَالنَّضِيرِ وَبَعْضِ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ وَفِي عَرَبِ الْيَمَنِ. وَكَانُوا يَعْرِفُونَ نَصَارَى الْعَرَبِ مِثْلَ تَغْلِبَ وَكَلْبٍ وَبَعْضِ قُضَـــاعَةَ،وَكُلُّ أُولَئِكَ بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا وَتَنَكَّبُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذي أَرْشَدَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَتَفَرَّقُوا فِي بُنَيَّاتِ الطُّرُقِ عَلَى تَفَاوُتٍ فِي ذَلِكَ. فَالْيَهُودُ تَمَرَّدُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ غَيْرَ مَــرَّةٍ وَبَدَّلُوا الشَّرِيعَةَ عَمْدًا فَلَزِمَهُمْ وَصْفُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَعَلِقَ بِهِمْ فِي آيَــاتٍ كَــثِيرَةٍ. وَالنَّصَارَى ضَلُّوا بَعْدَ الْحَوَارِيِّينَ وَأَسَاءُوا فَهْمَ مَعْنَى التَّقْدِيسِ فِي عِيسَى عَلَيْــهِ السَّــلَامُ فَزَعَمُوهُ ابْنَ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ قَالَ تَعَالَى:قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِيــنِكُمْ غَيْــرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَــوَاءِ السَّــبِيلِ [الْمَائِدَة:٧٧] . وَفِي وَصْفِ الصِّرَاطِ الْمَسْئُولِ فِي قَوْلِه:اهْــدِنَا الصِّــرَاطَ الْمُسْــتَقِيمَ بِالْمُسْتَقِيمِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ وَاضِحُ الْحُجَّةِ قَوِيمُ الْمَحَجَّةِ لَا يَهْوِي أَهْلُهُ إِلَــى هُــوَّةِ الضَّلَالَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً [الْأَنْعَام:١٦١] وَقَالَ:وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُــمْ عَــنْ سَــبِيلِهِ [الْأَنْعَام:١٥٣]،عَلَى تَفَاوُتٍ فِي مَرَاتِبِ إِصَابَةِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِذَلِكَ روي عَــنْ أَبِــي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله – ﷺ-:إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْــرَانِ وَإِذَا حَكَمَ،فَاجْتَهَدَ،فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ[١٧] .

[١٧] - - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١١ /٤٤٦](٥٠٦٠) صحيح

وَلَمْ يَتْرُكْ بَيَانُ الشَّرِيعَةِ مَجَارِيَ اشْتِبَاهٍ بَيْنَ الْخِلَافِ الَّذِي تُحِيطُ بِـــهِ دَائِـــرَةُ الْإِسْــلَامِ وَالْخِلَافِ الَّذِي يَخْرُجُ بِصَاحِبِهِ عَنْ مُحِيطِ الْإِسْلَامِ قَالَ تَعَالَى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّـكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [النمل:٧٩] [١٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٨] - التحرير والتنوير [١ /١٩٦] وانظر التفسير القرآني للقرآن ـــ دار الفكر العربي - القاهرة [١ /٢٠]

قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال: ٤١]

نقف أمام وصف اللّه – سبحانه – لرسوله – ﷺ- بقوله: «عبدنا» في هذا الموضع الذي يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء، وأمر الخمس المتبقي أخيرا: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ، وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ» ..

إنه وصف موح .. إن العبودية للّه هي حقيقة الإيمان وهي في الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم اللّه له فهي تجلى وتذكر في المقام الذي يوكل فيه إلى رسول اللّه – ﷺ- التبليغ عن اللّه، كما يوكل إليه فيه التصرف فيما خوله اللّه.

وإنه لكذلك في واقع الحياة! إنه لكذلك مقام كريم .. أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان ..

إن العبودية للّه وحده هي العاصم من العبودية للهوى، والعاصم من العبودية للعباد ..

وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه.

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا للّه وحده، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى.

يقعون من فورهم عبيدا لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص اللّه بها نوع «الإنسان» من بين سائر الأنواع وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شر الدواب، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا – كما خلقهم اللّه – في أحسن تقويم.

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا للّه في شر العبوديات الأخرى وأحطها .. يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم، يصرفون حياتهم وفق هواهم، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر، مشوبة بحب الاستعلاء، كما هي مشوبة بالجهل

والنقص والهوى! ويقعون في عبودية «الحتميات» التي يقال لهم:إنه لا قبل لهم بها،وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها .. «حتمية التاريخ» .. و«حتمية الاقتصاد» .. و«حتمية التطور» وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين «الإنسان» في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه،ولا أن يناقش - في عبوديته البائسة الذليلة - هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة! [19]

وقال تعالى:«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ - وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ - وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية اللّه سبحانه وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور وعني بتقرير أن اللّه - سبحانه - ليس كمثله شيء.فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية.كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين اللّه - سبحانه - وكل شيء (بما في ذلك كل حي) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية.ألوهية اللّه،وعبودية كل شيء للّه ..والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق - أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه - بحيث لا تدع في النفس ظلا من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هي الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون.فقررها في سيرة كل رسول،وفي دعوة كل رسول وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام،إلى عهد محمد خاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية - وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة - يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة وينسب للّه - سبحانه - البنين والبنات

---

[19] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٥٢] ويراجع بتوسع كتاب:«التطور والثبات في حياة البشرية» وكتاب:«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب.«دار الشروق».

أو ينسب للّه – سبحانه – الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم اقتباسا من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات! ألوهية وعبودية ..ولا شيء غير هذه الحقيقة.ولا قاعدة إلا هذه القاعدة.ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية،وصلة العبودية بالألوهية ..

ولا تستقيم تصورات الناس – كما لا تستقيم حياتهم – إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش،ومن كل شبهة،ومن كل ظل! أجل لا تستقيم تصورات الناس،ولا تستقر مشاعرهم،إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ..

هو إله لهم وهم عبيده ..هو خالق لهم وهم مخاليق ..هو مالك لهم وهم مماليك ..وهم كلهم سواء في هذه الصلة،لا بنوة لأحد.ولا امتزاج بأحد ..ومن ثمّ لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه:التقوى والعمل الصالح ..وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله.فأما البنوة،وأما الامتزاج فانى بهما لكل أحد؟! ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة،إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة:أنهم كلهم عبيد لرب واحد ..ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد ..فأما القربى إليه ففي متناول الجميع ..عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان،لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان ..وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين اللّه والناس وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس ..وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام! فالمسألة – على هذا – ليست – مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين،فحسب،إنما هي كذلك مسألة نظام حياة،وارتباطات مجتمع،وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام ..ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد ..ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس،بوصفها الممثلة لابن اللّه،أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم.ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم

«بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من اللّه!

وقد ظلّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقا مقدسا كحق الكنيسة في جانب ..ظل هذا الحق أو ذاك قائما في أوربا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم.حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مغيرين.فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس» وكانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر» و«كالفن» و«زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح ..على أساس من تأثير الإسلام،ووضوح التصور الإسلامي،ونفي القداسة عن بني الإنسان ونفي التفويض في السلطان ..لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام ..[٢٠]

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد للّه،أو ألوهية أحد مع اللّه،في أي شكل من الأشكال ..يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبد للّه وأنه لن يستنكف أن يكون عبدا للّه.وأن الملائكة المقربين عبيد للّه وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا للّه.وأن جميع خلائقه ستحشر إليه.وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم.وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم:«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ – وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدا للّه.لأنه – عليه السلام – وهو نبي اللّه ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان.وهو خير من يعرف أنه من خلق اللّه فلا يكون خلق اللّه كاللّه أو بعضا من اللّه! وهو خير من يعرف أن العبودية للّه – فضلا على أنها الحقيقة المؤكدة

---

[٢٠] – يراجع فصل «التوحيد» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

الوحيدة – لا تنقص من قدره.فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كـافر بنعمـة الخلـق والإنشاء.وهي المرتبة التي يصف اللّه بها رسله،وهم في أرقى حالاتهم وأكرمهـا عنـده ..وكذلك الملائكة المقربون – وفيهم روح القدس جبريل – شأنهم شأن عيسى عليـه السلام وسائر الأنبياء – فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضـاه لنفسـه ويعرفه حق المعرفة؟! مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً».. فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر اللّه لهم بسلطانه ..سلطان الألوهية علـى العباد ..شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه ..

فأما الذين عرفوا الحق،فأقروا بعبوديتهم للّه وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

«وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

وما يريد اللّه – سبحانه – من عباده أن يقروا له بالعبودية،وأن يعبـدوه وحده،لأنـه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم،ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء.ولكنـه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،لتصح تصوراتهم ومشـاعرهم،كما تصح حياتهم وأوضاعهم.فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر،ولا أن تستقر الحياة والأوضاع،على أساس سليم قويم،إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار،وما يتبع الإقـرار من آثار ..

يريد اللّه – سبحانه – أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس النـاس وفي حياتهم.ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض فلا يخضعوا إلا له،وإلا لمنهجه وشريعته للحياة،وإلا لمـن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ليرفعـوا جباههم أمام كل من عداه حين تعنو له وحده الوجوه والجباه.يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة،حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون اللّه ولا يذكرون أحدا إلا اللّه.يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب.ولكن تجـيء عـن

تقوى وعمل صالح فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى اللّه.يريد أن تكـون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فتكون لهم غيرة على سلطان اللّه في الأرض أن يدعيه المدعون باسم اللّه أو باسم غير اللّه فيردون الأمر كله للّه ..ومـن ثم تصـلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس ...

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة وتعليق أنظار البشر للّه وحده وتعليـق قلـوبهم برضـاه وأعمالهم بتقواه ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه ..إن هذا كله رصـيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشـرية في حياتها الأرضية وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض ..في هذه الحياة ..فأما ما يجزي اللّه به المؤمنين المقرين بالعبودية العـاملين للصـالحات،في الآخرة،فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر.وفيض من عطاء اللّه.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان باللّه في الصورة الناصعة التي جـاء بهـا الإسلام وقرر أنها قاعدة الرسالة كلـها ودعـوة الرسـل جميعـا قبـل أن يحرفهـا الأتباع،وتشوهها الأجيال ..يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلادا جديدا للإنسان تتـوافر له معه الكرامة والحرية،والعدل والصلاح،والخروج من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.والذين يستنكفون من العبودية للّه،يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ..يـذلون لعبوديـة الهـوى والشـهوة.أو عبوديـة الـوهم والخرافة.ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم،ويحنون لهم الجباه.ويحكمـون في حيـاتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدا مثلهم من البشر هـم وهـم سواء أمام اللّه ..ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون اللّه ..هذا في الـدنيا ..أمـا في الآخرة «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهـة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان.وفي مواجهة الانحرافات كلـها إلى آخر الزمان ..[21]

---

[21] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١١٨٩]

الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان

قال تعالى:«الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بالْغَيْبِ،وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفقُونَ،وَالَّذينَ يُؤْمِنُونَ بما أُنْزلَ إلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلكَ،وَبالْآخرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» ..

ان السمة الأولى للمتقين هي الشعورية الإيجابية الفعالة.الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب،والقيام بالفرائض،والإيمان بالرسل كافة،واليقين بعد ذلك بالآخرة ..هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية،وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة،والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعا،ولتهيمن على البشرية جميعا،وليعيش الناس في ظلالها بمشاعر هم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة،وشاملة للشعور والعمل،والإيمان والنظام.

فإذا نحن أخذنا في تفصيل هذه السمة الأولى للمتقين إلى مفرداتها التي تتألف منها،انكشفت لنا هذه المفردات عن قيم أساسية في حياة البشرية جميعا ..

«الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» ..فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنها،وصدر عنها هذا الوجود ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان،فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه،إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي،ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود،وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه،ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود.وأن وراء الكون ظاهره وخافيه،حقيقة أكبر من

الكون،هي التي صدر عنها،واستمد من وجودها وجوده ..حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له،وما لم توهب القدرة للإحاطة به،وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه.إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان،وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض،فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة،تنظر فيها،وتتعمقها وتتقصاها،وتعمل وتنتج،وتنمي هذه الحياة وتجملها،على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود،وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول.فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها،دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة،وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول ..فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا،ومحاولة عابثة أخيرا.فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال.وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال ..ومتى سلم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى،وهي أن المحدود لا يدرك المطلق،لزمه – احتراما لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل و.ن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن،والغيب والشهادة ..وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون،وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة.ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان،كجماعة الماديين في كل زمان،يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى ..إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية» وهو النكسة التي وقى اللّه المؤمنين إياها،فجعل صفتهم المميزة،صفة:«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» والحمد للّه على نعمائه،والنكسة للمنتكسين والمرتكسين! «وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ» ..فيتجهون بالعبادة للّه وحده،ويرتفعون بهذا عن عبادة العباد،وعبادة الأشياء.

يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود،ويحنون جباههم للّه لا للعبيد والقلب الذي يسجد للّه حقا،ويتصل به على مدار الليل والنهار،يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود،ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض،ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق ..وهذا كله مصدر قوة للضمير،كما أنه مصدر تحرج وتقوى،وعامل هام من عوامل تربية الشخصية،وجعلها ربانية التصور،ربانية الشعور،ربانية السلوك.[٢٢]

وفي قصة آدم عليه السلام وما حصل بينه وبين الشيطان دلالة واضحة على طبيعة تكوين هذا الخلق المسمى بالإنسان.فهو تكوين خاص متفرد،يزيد على مجرد التركيب العضوي الحيوي،الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء.وأيا كانت نشأة الحياة،ونشأة الأحياء فإن الخلق الإنساني يتفرد بخاصية أخرى هي التي ورد بها النص القرآني ..خاصية الروح الإلهي المودع فيه ..

وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنسانا،يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى.وهي قطعا ليست مجرد الحياة.فهو يشترك في «الحياة» مع سائر الأحياء.ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة.

هذه الخاصية – كما يلهم النص القرآني – لم تجئ للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته – كما تزعم الدارونية – ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته.فلم يجئ على هذا الكائن الإنساني زمان كان فيه مجرد حيّ من الأحياء – بلا روح إنساني خاص – ثم دخلته هذه الروح،فصاربها هو هذا الإنسان! ولقد اضطرت الدارونية الحديثة – على يد جوليان هاكسلي – أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة وهي تقرر «تفرد الإنسان» من الناحية الحيوية والوظيفية.ومن ثم تفرده من الناحية العقلية،وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية ..

ولكنها ظلت تزعم أن هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان! والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الدارويينية الحديثة من تفرد الإنسان،وبين القاعدة التي تقوم عليها الدارويينية

[٢٢] -في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣١]

– قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان – ولكن الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرين على ذلك الاندفاع – غير العلمي – الذي صبغوه بصبغة العلم،في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته،وإضفاء الصبغة «العلمية» عليه لغرض في نفوسهم ولغاية في مخططاهم[٢٣]!

ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه القضية،ونحن نواجه النصوص القرآنية المشابهة في سورة الأعراف في هذه الظلال [٢٤]فنقتطف هذه الفقرات مما سبق تقريره هناك:

«وعلى أية حال،فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام،وفي نشأة الجنس البشري،ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة،كان مصاحبا لخلقه.وأن الترقي «الإنساني» كان ترقيا في بروز هذه الخصائص،ونموها،وتدريبها،واكتسابها الخبرة العالية.و لم يكن ترقيا في «وجود» الإنسان ..من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان ..كما تقول الداروينية.

« ووجود أنواع مترقية من الحيوان تتبع ترتيبا زمنيا – بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء – هو مجرد نظرية «ظنية» وليست «يقينية» لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظنا! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها.وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدّلها أو تغيرها! «على أنه – على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور – ليس هناك ما يمنع من وجود «أنواع» من الحيوان،في أزمان متوالية،بعضها أرقى من بعض،بفعل الظروف السائدة في الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة في حياتها.ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة (وظهور أنواع أخرى أكثر ملاءمة للظروف السائدة) [٢٥]..ولكن هذا لا «يحتم» أن يكون بعضها «متطورا» من بعض ..وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا،لا تستطيع

---

[٢٣] – يراجع فصل:«اليهود الثلاثة» في كتاب:«التطور والثبات في الحياة البشرية» لمؤلفه:محمد قطب. «دار الشروق».

[٢٤] – ص ١٢٦٤ – ١٢٦٥ من الجزء الثامن.

[٢٥] – إضافات لم تجئ موضحة في المقتطفات.

أن تثبت – في يقين مقطوع به – أن هذا النوع تطور تطورا عضويا من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية – وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها – ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعا أرقى من النوع الذي قبله زمنيا ..وهذا يمكن تعليله بما قلنا من أن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع.فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر،فنشأ.ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشا من قبل في الظروف الأخرى،فانقرض.

« وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة،في الزمن الذي علم اللّه أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع ..وهذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية.

«وتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية.هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون – وفيهم الملحدون باللّه كلية – للاعتراف به،دليل مرجح (في مجال البحوث الإنسانية) على تفرد النشأة الإنسانية،وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي».

هذه النشأة المتفردة للإنسان،باحتوائها على هذه الخاصية المنشئة للوجود الإنساني المستقل ..خاصية النفخة من روح اللّه ..تجعل النظرة إلى هذا الإنسان و«مطالبه الأساسية» تختلف اختلافا أصيلا عن نظرة المذاهب المادية،بكل إفرازاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية،وكل إفرازاتها في التصورات والقيم التي ينبغي أن تسود الحياة الإنسانية.

إن الزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان! هي التي جعلت الإعلان الماركسي يذكر أن مطالب الإنسان الأساسية هي الطعام والشراب والمسكن والجنس! فهذه فعلا هي مطالب الحيوان الأساسية! ولا يكون الإنسان في وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة! ومن ثم تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرده عن الحيوان بخصائصه الإنسانية ..تهدر حقوقه في الاعتقاد الديني.وتهدر حقوقه في حرية التفكير والرأي.وتهدر حقوقه في اختيار نوع العمل،ومكان الإقامة.وتهدر حقوقه في نقد النظام السائد وأسسه

الفكرية والمذهبية.بل تهدر حقوقه في نقد تصرفات «الحزب» ومن هم أقل من الحزب من الحكام المتسلطين في تلك الأنظمة البغيضة،التي تحشر الأناسي حشرا،وتسوقهم سوقا،لأن هؤلاء «الأناسيّ» وفق الفلسفة المادية ليسوا سوى نوع من الحيوان تطور عن حيوان! ..ثم يسمى ذلك النكد كله:«الاشتراكية العلمية»! فأما النظرة الإسلامية إلى «الإنسان» – وهي تقوم على أساس تفرده بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوي – فإنها منذ اللحظة الأولى تعتبر أن مطالب الإنسان الأساسية مختلفة وزائدة عن مطالب الحيوان الأساسية.فليس الطعام والشراب والمسكن والجنس هي كل مطالبه الأساسية.وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح مطالب ثانوية! ..إن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس ..بل هي أعلى منها في الاعتبار لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان.أي المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته! والتي بإهدارها تهدر آدميته! ومن ثم لا يجوز أن تهدر في النظام الإسلامي حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار في سبيل «الإنتاج» وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين! كما لا يجوز أن تهدر القيم الأخلاقية – كما يقررها اللّه للإنسان لا كما يقررها العرف والبيئة والاقتصاد – في سبيل توفير تلك المطالب الحيوانية ..

إنهما نظرتان مختلفتان من الأساس في تقييم «الإنسان» و«مطالبه الأساسية» ..ومن ثم لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق! فإما الإسلام،وإما المذاهب المادية بكل ما تفرزه من إفرازات نكدة ..بما فيها ما يسمونه هناك:«الاشتراكية العلمية» فإن هو إلا إفراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحتقرة للإنسان الذي كرمه اللّه.

والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدا عن منهج اللّه والتزيين له فيما عداه.استدراجه إلى الخروج من عبادة اللّه – أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور،وشعيرة ونسك،وشريعة ونظام – فأما الذين يدينون له وحده – أي يعبدونه وحده – فليس للشيطان عليهم من سلطان ..«إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ» ..

ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التي وعد بها المتقون وبين الاتجاه إلى جهنم التي وعد بها الغاوون،هو الدينونة للّه وحده – التي يعبر عنها في القرآن دائما بالعبادة – أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة.

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود اللّه سبحانه،ولا صفاته ..أي إنه لم يكن يلحد في اللّه من ناحية العقيدة! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة للّه ..وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين.

إن الدينونة للّه وحده هي مناط الإسلام.فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير اللّه في حكم من الأحكام.وسواء كان هذا الحكم خاصا بالاعتقاد والتصور.أو خاصا بالشعائر والمناسك.أو خاصا بالشرائع والقوانين.أو خاصا بالقيم والموازين ...فهو سواء ..الدينونة فيه للّه هي الإسلام.والدينونة فيه لغير اللّه هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان.

ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع.فالدينونة للّه كل لا يتجزأ.وهي العبادة للّه في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء ..وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان!..[٢٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٨٧]

قال تعالى:« وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» ..وهذه خاتمة السمات.الخاتمة التي تــربط الــدنيا بالآخرة،والمبدأ بالمصير،والعمل بالجزاء والتي تشعر الإنسان أنه ليس لقى مهملا،وأنه لم يخلق عبثا،ولن يترك سدى وأن العدالــة المطلقــة في انتظــاره،ليطمئن قلبه،وتســتقر بلابله،ويفيء إلى العمل الصالح،وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف.

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة،ومن يعــيش في الوجود المديد الرحيب.بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هــذا الوجود،ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء،وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك،وراء هذا الحيز الصغير المحدود.[٢٧]

والذين يتحدثون عن «الغيبية» و«العلمية» يتحدثون كذلك عن «الحتمية التاريخيــة» كأن كل المستقبل مستيقن! و«العلم» في هذا الزمان يقول:إن هنــاك «احتمــالات» وليست هنالك «حتميات»! ولقد كان ماركس من المتنبئين «بالحتميات»! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم؟

لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في انجلترا،نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمــة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر .. فإذا الشــيوعية تقــوم في أكثــر الشعوب تخلفا صناعيا .. في روسيا والصين وما إليها .. ولا تقــوم قــط في الــبلاد الصناعية الراقية! ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي. وها هو ذا خليفتهما «خروشوف» يحمل راية «التعــايش الســلمي»! ولا نمضي طويلا مع هذه «الحتميات» التنبؤية! فهي لا تستحق جدية المناقشة! إن هنالــك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب،وكل ما عداها احتمالات. وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره. وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هــو. وإن هنالك – مع هذا وذلك – ســننا للكــون ثابتــة،يملك الإنســان أن يتعــرف

[٢٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٣]

إليها،ويستعين بها في خلافة الأرض،مع ترك الباب مفتوحا لقدر اللّه النافذ وغيب اللّــه المجهول .. وهذا قوام الأمر كله .. «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»[٢٨].

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٢٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٥٤٨]

إن هذه البشرية – وهي من صنع اللّه – لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع اللّه ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده – سبحانه – وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق،وشفاء كل داء:«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» ..

«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» ..ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه،ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه،ولا تسلك في أمر نفسها،وفي أمر إنسانيتها،وفي أمر سعادتها أو شقوتها ..ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة ..وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز.ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه،فترده إلى المصنع الذي منه خرج،ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب،الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف،الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه:«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟» ..

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة.البشرية المسكينة الحائرة،البشرية التي لن تجد الرشد،ولن تجد الهدى،ولن تجد الراحة،ولن تجد السعادة،إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير،كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير!

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا في تاريخها،ونكبة قاصمة في حياتها،نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا في كل ما ألم بها من نكبات

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض،وأسنت الحياة،وتعفنت القيادات،وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة و«ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن،وبالتصور الجديد الذي جاء بــه القرآن،وبالشــريعة المستمدة من هذا التصور ..فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم في حقيقتــه مــن المولد الذي كانت به نشأته.لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجــود والحياة والقيم والنظم كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا،كان يعز على خيالها تصــوره مجرد تصور،قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء ..نعم! لقد كان هذا الواقع مــن النظافــة والجمال،والعظمة والارتفاع،والبساطة واليسر،والواقعية والإيجابية،والتوازن والتناســق ...بحيث لا يخطر للبشرية على بال،لولا أن اللّه أراده لها،وحققه في حياتها ..في ظــلال القرآن،ومنهج القرآن،وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ونحي الإسلام عن القيادة.نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى،في صورة من صورها الكثيرة.صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشــرية اليوم،كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية.يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى ثم يقولون لها:اختاري!!!

اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنســان في عــالم المادة،وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج اللّه!!!

وهذا خداع لئيم خبيث.فوضع المسألة ليس هكذا أبدا ..إن المنهج الإلهي ليس عــدوا للإبداع الإنساني.إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة ..ذلك كــي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض.هذا المقام الذي منحه اللّه له،وأقدره عليه،ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه وسخر لــه مــن القــوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع ..على أن يكون الإبداع نفسه عبادة للّه،ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام،والتقيد بشرطه في عقد الخلافة وهو أن يعمل ويتحرك في نطــاق مــا يرضــي اللّه.فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة،والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى ..فهم سيئو النية،شريرون،يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبــت

من التيه والحيرة والضلال،وهمت أن تسمع لصوت الحادي الناصح،وأن تؤوب من المتاهة المهلكة،وأن تطمئن إلى كنف اللّه ...

وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية ولكن ينقصهم الوعي الشامل،والإدراك العميق ..

هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية،وتروعهم انتصارات الإنسان في عالم المادة.فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية،وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحياة ويجعلون للقوانين الطبيعة مجالا،وللقيم الإيمانية مجالا آخر ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية،وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا.اتبعوا منهج اللّه أم خالفوا عنه.حكموا بشريعة اللّه أم بأهواء الناس!

هذا وهم ..إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما في حقيقتهما غير منفصلين.فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن اللّه في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء.ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ولا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره ..وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في ظلال القرآن.ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ».وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه:«فَقُلْتُ:اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً،وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ،وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً» ..وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله اللّه بهم:«إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ».

إن الإيمان باللّه،وعبادته على استقامة،وإقرار شريعته في الأرض ...كلها إنفاذ لسنن اللّه.

وهي سنن ذات فاعلية إيجابية،نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار.

ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية،حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية ..هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق ولكنها تظهر حتما في نهايته ..وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه.لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية.وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما.وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عند ما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا ..

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم.تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار،بينما جناحه الآخر مهيض،فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك ..لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج اللّه،وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة اللّه للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون.فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون ..والشريعة إن هي إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير.فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم،كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم.وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني،ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير،ونظافة في الشعور،وضخامة في الاهتمامات،ورفعة في الخلق،واستقامة في السلوك ...وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن اللّه كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية ..فكلها أطراف من سنة اللّه الشاملة لهذا الوجود.

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود.وعمله وإرادته،وإيمانه وصلاحه،وعبادته ونشاطه ....هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هذا الوجود وهي مرتبطة بسنة اللّه الشاملة للوجود ..وكلها تعمل متناسقة،وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق بينما تفسد آثارها وتضطرب،وتفسد الحياة معها،وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق

وتتصادم:«ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» ..فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين ماجريات الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع.ولا يوحي بتمزيق هذا الارتباط،ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق،ولا يحول بين الناس وسنة اللّه الجارية،إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى وينبغي لها أن تطارده،وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم[٢٩] ..

وقال تعالى:{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } [الإسراء:٩]

..هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم،فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق،وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور،بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض،والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة،وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء،وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه،وبين مشاعره وسلوكه،وبين عقيدته وعمله،فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم،متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض،وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى اللّه،ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة،فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء.ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار.ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض:أفرادا وأزواجا،وحكومات وشعوبا،ودولا وأجناسا،ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر

---

[٢٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٢]

بالرأي والهوى ولا تميل مع المودة والشنآن ولا تصرفها المصالح والأغراض.الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه،وهو أعلم بمن خلق،وأعرف بما يصلح لهم في كـــل أرض وفي كل جيل،فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظـــام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينـــها كلـــها،وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام.

« إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» ..«وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّـــالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً،وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً» فهـــذه هـــي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء.فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه.فلا إيمان بـــلا عمل،ولا عمل بلا إيمان.الأول مبتور لم يبلغ تمامه،والثاني مقطوع لاركيزة له.وبهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم ..وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن.

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن،فهم متروكون لهوى الإنسان.الإنســـان العجـــول الجاهل بما ينفعه وما يضره،المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشـــر له:«وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا» ..

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها.ولقد يفعل الفعل وهو شر،ويعجل به علـــى نفسه وهو لا يدري.أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه ..فـــأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادئ الهادي؟

ألا إنهما طريقان مختلفان:شتان شتان.هدى القرآن وهو الإنسان![٣٠]

[٣٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٨٨٠]

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) } [البقرة:٢٦ - ٢٧]

فأي عهد من عهود اللّه هو الذي ينقضون؟ وأي أمر مما أمر اللّه به أن يوصل هو الذي يقطعون؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون؟

لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال،لأن المجال مجال تشخيص طبيعة،وتصوير نماذج،لا مجال تسجيل حادثة،أو تفصيل واقعة ..إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها.فكل عهد بين اللّه وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض وكل ما أمر اللّه به أن يوصل فهو بينهم مقطوع وكل فساد في الأرض فهو منهم مصنوع ..إن صلة هذا النمط من البشر باللّه مقطوعة،وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ولا تستمسك بعروة ولا تتورع عن فساد.إنهم كالثمرة الفجة التي انفصلت من شجرة الحياة،فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة ..ومن ثم يكون ضلالهم بالمثل الذي يهدي المؤمنين وتجيء غوايتهم بالسبب الذي يهتدي به المتقون.

وننظر في الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر الذي كانت الدعوة تواجهه في المدينة في صورة اليهود والمنافقين والمشركين والذي ظلت تواجهه وما تزال تواجهه اليوم في الأرض مع اختلاف سطحي في الأسماء والعنوانات!

«الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ» ..وعهد اللّه المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة:إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي ..أن يعرف خالقه،وأن يتجه إليه بالعبادة.وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد باللّه،ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون اللّه أندادا وشركاء ..وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه اللّه

على آدم – كما سيجيء -:«فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» ..وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا اللّه وحده،وأن يحكموا في حياتهم منهجه وشريعته ..وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسقون.

وإذا نقض عهد اللّه من بعد ميثاقه،فكل عهد دون اللّه منقوض.فالذي يجرؤ على عهد اللّه لا يحترم بعده عهدا من العهود.

«وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» ..واللّه أمر بصلات كثيرة ..أمر بصلة الرحم والقربى.وأمر بصلة الإنسانية الكبرى.وأمر قبل هذا كله بصلة العقيدة والأخوة الإيمانية،التي لا تقوم صلة ولا وشيجة إلا معها ..وإذا قطع ما أمر اللّه به أن يوصل فقد تفككت العرى،وانحلت الروابط،ووقع الفساد في الأرض،وعمت الفوضى.

«وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» ..والفساد في الأرض ألوان شتى،تنبع كلها من الفسوق عن كلمة اللّه،ونقض عهد اللّه،وقطع ما أمر اللّه به أن يوصل.ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها.

هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتما،فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض،ومنهج اللّه بعيد عن تصريفها،وشريعة اللّه مقصاة عن حياتها.وإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال،وللحياة والمعاش وللأرض كلها وما عليها من ناس وأشياء.

إنه الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق اللّه ..ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم اللّه بما يهدي به عباده المؤمنين.[31]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[31] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٤]

قال تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

إننا نجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار.لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم ..وندرك أن هذا هو الأمر الأخير،الذي يجعل «الانطلاق» بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد،وليس هو مجرد «الدفاع» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة.

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام،وعن أحكام الجهاد في الإسلام،وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن ..أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآني بذاته مطلق،وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام،أن يكون دقيقا في كل موضع وألا يحيل في موضع على موضع بل يتخير اللفظ المحدد ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص.إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر،وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب،أن فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك[٣٢].

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام،وعن أحكام الجهاد في الإسلام،والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام،يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون اللّه – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا أن

[٣٢] – ص ١٥٦٤ – ١٥٨٣ وص ١٥٨٦ – ١٥٩٨ وص ١٦٠٦ – ١٦٠٩ وص ١٦٢٠ – ١٦٣٠ من الجزء العاشر.

يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار،وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار،كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار! ..يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا،فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة! إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو ..

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل اللّه» ..جهاد لتقرير ألوهية اللّه في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان اللّه ..جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير اللّه،ومن فتنته بالقوة عن الدينونة للّه وحده والانطلاق من العبودية للعباد ..«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه» ..وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله.إنما هو جهاد لتغليب منهج اللّه على مناهج العبيد! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم،إنما هو جهاد لتغليب سلطان اللّه على سلطان العبيد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد،إنما هو جهاد لإقامة مملكة اللّه في الأرض ..ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «الأرض» كلها،لتحرير «الإنسان» كله.بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها ..فكلها «أرض» يسكنها «الإنسان» وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج،وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم ..إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلا لا تستساغ! ..لولا أن الأمر ليس كذلك.وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية.فليس لواحد منها أن يقول:

إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعباد ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية للّه وحده بلا شريك! ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهم:إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف،وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة ..لولا أن

الأمر ليس كذلك على الإطلاق ..إن الإسلام يقوم على قاعدة:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ولما ذا اشترى اللّه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»؟ ..إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد ..بل لأمر مناقض تماما للإكراه على العقيدة ..إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد! ..لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد يواجه دائما طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد.ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم،أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل ..وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله ..

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة،ويدمر هذه القوى التي تحميها ..ثم ماذا؟ ..ثم يترك الناس - بعد ذلك - أحرارا حقا في اختيار العقيدة التي يريدونها.إن شاءوا دخلوا في الإسلام،فكان لهم ما للمسلمين من حقوق،وعليهم ما عليهم من واجبات،وكانوا إخوانا في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية،إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد،وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها - كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا - لتكرههم على التنصر.وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر،فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون ..وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية ..وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس

من الآب فقط،أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعــة واحــدة لاهوتية،أو طبيعة لاهوتية ناسوتية ..إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية! وأخيرا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهــزومين روحيا في هذا الزمان وتتعاظمهم لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكــاليف هــذا الانطلاق فيهولهم الأمر ..وهو يهول فعلا! ..فهل هــؤلاء الــذين يحملــون أسمــاء المسلمين،وهم شعوب مغلوبة على أمرها أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الــذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال،حتى لا تكون فتنة ويكــون الدين كله للّه؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا ..ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر اللّه فعــلا! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم اللّه دانت لها الجزيــرة العربيــة ودخلــت في هــذا الدين،ونظمت على أساسه.وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة الــتي باعــت أنفسها للّه بيعة صدق،فنصرها اللّه يوما بعد يوم،وغزوة بعد غزوة،ومرحلة بعد مرحلة ..وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث اللّه محمدا - ﷺ- ليدعو النــاس - في جاهليتهم - إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه.فجاهد والقلة التي معــه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة.وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حــتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة ..وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبــدأوا مــن شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول ..ثم يصلوا - يوم أن يصــلوا - إلى هــذه الصورة الأخيرة بإذن اللّه ..ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذي تتقاسمــه المــذاهب والمناهج والأهواء والذي تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية.ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية:لا إله إلا اللّه.ولا ترفع معها رايــة أخــرى ولا شعارا،ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد في الأرض إنما تنطلق باسم اللّــه وعلى بركة اللّه ..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين،وهم في مثل ما هم فيه من الهزال!
إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية اللّـــه وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!
إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين،الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة!
إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق.وحفظ ما في متون الكتب.والتعامل مع النصوص في غير حركة،لا يؤهل لفقه هذا الدين،و لم يكن مؤهلا له في يوم من الأيـــام!
وأخيرا فإن الظروف التي نزل فيها قول اللّه تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَـــاتِلُوا الَّـــذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..
تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم ..وهم أهل كتاب ..ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملي،بما في عقيدتهم من انحراف،وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد ..
وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الـــدين في الحركـــة تجـــاه أهـــل الكتاب،المنحرفين عن كتابهم،المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم! ..وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون – راضين – إلى شرائع من صنع الرجـــال وفـــيهم شريعة اللّه وكتابه،في أي زمان وفي أي مكان! ثم لقد أمر اللّه المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة،وعقب على هذا الأمر بقولـــه:«أَنَّ اللَّـــهَ مَـــعَ الْمُتَّقِينَ» ..
ولهذا التعقيب دلالته ..فالتقوى هنا ..التقوى التي يحب اللّه أهلها ..هي التقوى الـــتي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار وتقاتلهم في «غلظـــة» أي بـــلا هوادة ولا تميع ولا تراجع ..حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه.
ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين مـــن شـــأنهم أن يحاربوا وحدهم – وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين – وليست هي الغلظة المطلقـــة من كل قيد وأدب!

إنه قتال يسبقه إعلان،وتخيير بين:قبول الإسلام،أو أداء الجزية،أو القتال ..ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد - في حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها).

وهذه آداب المعركة كلها،من وصية رسول اللّه - ﷺ-:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:اغْزُوا بِسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا،وَلاَ تَغْدِرُوا،وَلاَ تُمَثِّلُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ،أَوْ خِلاَلٍ،فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّكَ،فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكَ؛فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ.[٣٣]

---

[٣٣] - أخرجه مسلم وغيره المسند الجامع [٣ /٤٨٤](١٩٠٢) ومسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٦٤٠]((٢٣٠٣٠) ٢٣٤١٨)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺفَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺعَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ[٣٤].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺلَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ،قَالَ:إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،فَادْعُهُم الَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ.[٣٥]

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لَعَلَّكُمْ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا فَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ فَيَتَّقُونَكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ دُونَ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ فَيُصَالِحُونَكُمْ عَلَى صُلْحٍ فَلاَ تُصِيبُوا مِنْهُمْ شَيْئًا فَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لاَ يَصْلُحُ لَكُمْ »[٣٦].

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ،يَقُولُ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺنَزَلَ بِخَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَأَنَّ صَاحِبَ خَيْبَرَ كَانَ رَجُلا بَارِدًا مُنْكَرًا،فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا،وَتَأْكُلُوا ثَمَرَتَنَا،وَتَدْخُلُوا بُيُوتَنَا،وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا ابْنَ عَوْفٍ،ارْكَبْ فَرَسَكَ،فَأَذِّنْ فِي النَّاسِ أَنَّ الْجَنَّةَ لا تَحِلُّ إِلا لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،وَأَنِ اجْتَمِعُوا إِلَى الصَّلاةِ قَالَ:فَاجْتَمَعْنَا لَهُ،فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحِلَّ لَكُمْ بُيُوتَ الْمُكَاتَبِينَ إِلا بِإِذْنٍ،وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ،وَلا تَضْرِبُوا نِسَاءَهُمْ،أَمْ حَسِبَ امْرُؤٌ مِنْكُمْ وَقَدْ شَبِعَ حَتَّى بَطِنَ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ،لا يَظُنُّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ شَيْئًا إِلا مَا فِي الْقُرْآنِ،أَلا إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُ وَوَعَظْتُ بِأَشْيَاءَ هِيَ مِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ،وَأَنَّهُ لا يَحِلُّ لَكُمْ مِنَ السِّبَاعِ كُلُّ ذِي نَابٍ،وَلا الْحُمُرُ،وَلا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُكَاتَبِينَ إِلا بِإِذْنٍ،وَلا

---

[٣٤] - مصنف ابن أبي شيبة [١٧ /٥٦٩](٣٣٧٨٤و٣٣٧٨٥) صحيح

[٣٥] - أخرجه الجماعة المسند الجامع [٨ /٥٥٣](٥٩١١) وهو حديث صحيح مشهور

[٣٦] - سنن أبي داود - المكنز [٣ /١٣٦](٣٠٥٣) والمسند الجامع [١٨ /١٣٤٧](١٥٧٢٦) فيه جهالة

تَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا إِلا مَا طَابُوا لَهُ نَفْسًا،وَقَالَ:لا تَضْرِبُوا،أَوْ قَالَ:لا تَجْلِدُوا نِسَاءَهُمْ " [٣٧].

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ حَدَّثَ الْأَسْوَدُ بْنُ سَرِيعٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺأَرْبَعَ غَزَوَاتٍ فَتَنَاوَلَ أَصْحَابُهُ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَمَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ،فَقَالَ:" أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ثُمَّ تَنَاوَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسُوا أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ أَخْيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَتْ تُولَدُ نَسَمَةٌ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا يَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يَبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا "[٣٨]

وعن الْحَسَنَ،حَدَّثَنَا الأَسْوَدُ بْن سَرِيعٍ وَكَانَ رَجُلاً مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَالَ:وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ،يَعْنِي الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺأَرْبَعَ غَزَوَاتٍ،قَالَ:فَتَنَاوَلَ قَوْمٌ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَ مَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَقَالَ:أَلاَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ حَتَّى تَنَاوَلُوا الذُّرِّيَّةَ،قَالَ:فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَوَلَيْسَ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ،إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلاَّ وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ،فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا،فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَ يُنَصِّرَانِهَا.[٣٩]

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ قَالَ لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ فَقَالُوا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَتَمْشِى وَنَحْنُ رُكْبَانٌ؟ فَقَالَ:إِنِّى أَحْتَسِبُ خُطَاىَ هَذِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ فَقَالَ:أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ اغْزُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ

---

[٣٧] - الآحاد والمثاني [٢ /٥٢٠](١٣٣٦) وسنن أبي داود - المكنز [٣ /١٣٥](٣٠٥٢) وصحيح الجامع (٧٨٤٠) حسن

[٣٨] - شرح مشكل الآثار [٤ /١٣](١٣٩٤) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٣ /٥٠٠] صحيح

[٣٩] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٥٨٤](١٦٣٠٣) ١٦٤١٢ صحيح

تَغْدِرُوا وَلاَ تَجْبُنُوا وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَلاَ تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمُ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِى الإِسْلاَمِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِى الْفَىْءِ وَالْغَنَائِمِ شَىْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِى الإِسْلاَمِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلاَ تُغْرِقُنَّ نَحْلاً وَلاَ تُحْرِقُنَّهَا وَلاَ تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلاَ شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلاَ تَهْدِمُوا بِيعَةً وَلاَ تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلاَ الشُّيُوخَ وَلاَ النِّسَاءَ وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِى الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِى أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ."[٤٠]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أُمَرَاءَ الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً "[٤١]

---

[٤٠] - السنن الكبرى للبيهقي- المكنز - (٩ / ٨٥) (١٨٥٩٢) صحيح لغيره

الغلول:الخيانة والسرقة - التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - الخصال:جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رزيلة -الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - أبى:امتنع ورفض -الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتَابي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله ،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم

[٤١] - شرح مشكل الآثار - (٣ / ١٤٤) صحيح لغيره

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ أَنْ لاَ تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلاَ صَبِيًّا،وَأَنْ تَقْتُلُوا مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُواسَى."[42]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ:لاَ تَغُلُّوا،وَلاَ تَغْدِرُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْفَلاَّحِينَ."[43]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،قَالَ:حدِّثْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتْبَعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ:إِنِّي أُوصِيك بِعَشْرٍ:لاَ تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا،وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً،وَلاَ بقرة إِلاَّ لِمَأْكَلَةٍ،وَلاَ تُغْرِقَنَّ نَخْلاً،وَلاَ تَحْرِقَنَّهُ وَلاَ تَغْلُلْ،وَلاَ تَجْبُنْ."[44]

وعَنْ مَنْصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ،قَالَ:حَدَّثَنِي شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَسَدِيُّ،عَنِ الرَّسُولِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ:نَدَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ النَّاسَ مَعَ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ بِالْحَرَّةِ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ فَارِسَ،وَقَالَ:" انْطَلِقُوا بِسْمِ اللَّهِ،وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ؛تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،لَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا شَيْخًا هَمًّا،وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَوْمِ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ،فَإِنْ قَبِلُوا فَهُمْ مِنْكُمْ،فَلَهُمْ مَا لَكُمْ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ،وَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِلَا جِهَادٍ،فَإِنْ قَبِلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ،فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ قَبِلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ،وَضَعْ فِيهِمْ جَيْشًا يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ،وَخَلِّهِمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهِمْ،فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ،فَإِنْ دَعَوكُمْ إِلَى أَنْ تَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ مُحَمَّدٍ،وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِكُمْ،ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ،فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتِلْهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ " فَلَمَّا قَدِمْنَا الْبِلَادَ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى كُلِّ مَا أُمِرْنَا بِهِ،فَأَبَوْا،فَلَمَّا مَسَّهُمُ الْحَصْرُ نَادَوْنَا:أَعْطُونَا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ،فَقُلْنَا:لَا،وَلَكِنَّا نُعْطِيكُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِنَا،ثُمَّ نَفِي لَكُمْ،فَأَبَوْا،فَقَاتَلْنَاهُمْ،فَأُصِيبَ

---

[42] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح

[43] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩٢) حسن

الغلول:الخيانة والسرقة -التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به

[44] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح مرسل

رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا،فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرِقَةٍ مَا شَاءُوا،ثُمَّ إِنَّ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ أَمِيرَ الْقَوْمِ دَخَلَ،فَجَعَلَ يَتَخَطَّى بُيُوتَ نَارِهِمْ،فَإِذَا بِسَفَطَيْنِ مُعَلَّقَيْنِ بِأَعْلَى الْبَيْتِ،فَقَالَ:مَا هَذَانِ السَّفَطَانِ ؟ فَقَالُوا:أَشْيَاءُ كَانَتْ تُعَظِّمُ بِهَا الْمُلُوكُ بُيُوتَ نَارِهِمْ،فَقَالَ:أَهْبِطُوهُمَا إِلَيَّ،فَإِذَا عَلَيْهِمَا طَوَابِعُ الْمُلُوكِ بَعْدَ الْمُلُوكِ قَالَ:مَا أَحْسَبُهُمْ طَبَعُوا إِلَّا عَلَى أَمْرٍ نَفِيسٍ،عَلَيَّ بِالْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرَهُمْ خَبَرَ السَّفَطَيْنِ،فَقَالَ:أَرَدْتُ أَنْ أَفُضَّهُمَا بِمَحْضَرٍ مِنْكُمْ،فَفَضَّهُمَا،فَإِذَا هُمَا مَمْلُوءَانِ بِمَا لَمْ يُرَ مِثْلُهُ أَوْ قَالَ:لَمْ أَرَ مِثْلَهُ،فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ،قَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَبْلَاكُمُ اللَّهُ فِي وَجْهِكُمْ هَذَا،فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَطِيبُوا بِهَذَيْنِ السَّفَطَيْنِ أَنْفُسًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِحَوَائِجِهِ وَأُمُورِهِ وَمَا يَنْتَابُهُ،فَأَجَابُوهُ بِصَوْتِ رَجُلٍ وَاحِدٍ:إِنَّا نُشْهِدُ اللَّهَ أَنَّا قَدْ فَعَلْنَا،وَطَابَتْ أَنْفُسُنَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينِ،فَدَعَانِي،فَقَالَ:قَدْ عَهِدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحَرَّةِ،وَمَا أَوْصَانَا،وَمَا اتَّبَعْنَا مِنْ وَصِيَّتِهِ وَأَمْرِ السَّفَطَيْنِ،وَطِيبِ أَنْفُسِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِهِمَا،فَأْتِ بِهِمَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،وَاصْدُقْهُ الْخَبَرَ،ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ بِمَا يَقُولُ لَكَ،فَقُلْتُ:مَا لِي بُدٌّ مِنْ صَاحِبٍ،فَقَالَ:خُذْ بِيَدِ مَنْ أَحْبَبْتَ .فَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ،فَانْطَلَقْنَا بِالسَّفَطَيْنِ نَهُزُّهُمَا حَتَّى قَدِمْنَا بِهِمَا الْمَدِينَةَ،فَأَجْلَسْتُ صَاحِبِي مَعَ السَّفَطَيْنِ،وَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَإِذَا بِهِ يُغَدِّي النَّاسَ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَّازٍ وَهُوَ يَقُولُ:" يَا يَرْفَأُ،ضَعْ هَاهُنَا،يَا يَرْفَأُ،ضَعْ هَاهُنَا "،فَجَلَسْتُ فِي عُرْضِ الْقَوْمِ لَا آكُلُ شَيْئًا فَمَرَّ بِي،فَقَالَ:" أَلَا تُصِيبُ مِنَ الطَّعَامِ ؟ " فَقُلْتُ:لَا حَاجَةَ لِي بِهِ،فَرَأَى النَّاسَ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يَدُورُ فِيهِمْ،فَقَالَ:" يَا يَرْفَأُ،خُذْ خُونَكَ وَقِصَاعَكَ "،ثُمَّ أَدْبَرَ وَاتَّبَعْتُهُ،فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ طَرِيقَ الْمَدِينَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارٍ قَوْرَاءَ عَظِيمَةٍ،فَدَخَلَهَا،فَدَخَلْتُ فِي إِثْرِهِ،ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ فَدَخَلَهَا،فَقُمْتُ مَلِيًّا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ،فَقُلْتُ:السَّلَامُ عَلَيْكَ،فَقَالَ:" وَعَلَيْكَ،فَادْخُلْ "،فَدَخَلْتُ،فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى وِسَادَةٍ مُرْتَفِقًا أُخْرَى،فَلَمَّا رَآنِي نَبَذَ إِلَيَّ الَّتِي كَانَ مُرْتَفِقًا،فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا،فَإِذَا هِيَ تَغْرِزُنِي،فَإِذَا حَشْوُهَا لِيفٌ،قَالَ:" يَا جَارِيَةُ،أَطْعِمِينَا "،فَجَاءَتْ بِقَصْعَةٍ فِيهَا قِدَرٌ مِنْ خُبْزٍ يَابِسٍ،فَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا،مَا فِيهِ مِلْحٌ وَلَا خَلٌّ،فَقَالَ:" أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ رَاضِيَةً أَطْعَمَتْنَا

أَطْيَبَ مِنْ هَذَا "،فَقَالَ لِي:" ادْنُ "،فَدَنَوْتُ،قَالَ:فَذَهَبْتُ أَتَنَاوَلُ مِنْهَا قِدْرَةً،فَلَا وَاللَّـــهِ إِنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُجِيزَهَا،فَجَعَلْتُ أَلُوكُهَا مَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ،وَمَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ،فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أُسِيغَهَا،وَأَكَلَ أَحْسَنَ النَّاسِ إِكْلَةً،إِنْ يَتَعَلَّقُ لَهُ طَعَامٌ بِثَوْبٍ أَوْ شَعْرٍ،حَتَّى رَأَيْتُـــهُ يَلْطَعُ جَوَانِبَ الْقَصْعَةِ،ثُمَّ قَالَ:" يَا جَارِيَةُ،اسْقِينَا "،فَجَاءَتْ بِسَوِيقِ سُلْتٍ،فَقَالَ:" أَعْطِيهِ "،فَنَاوَلَتْنِيهِ،فَجَعَلْتُ إِذَا أَنَا حَرَّكْتُهُ ثَارَتْ لَهُ قُشَارٌ،وَإِنْ أَنَا تَرَكْتُهُ تَنِدَ،فَلَمَّا رَآنِـــي قَـــدْ بَشِعْتُ ضَحِكَ،فَقَالَ:" مَا لَكَ أَرِنِيهِ إِنْ شِئْتَ "،فَنَاوَلْتُهُ،فَشَرِبَ حَتَّى وَضَعَ عَلَى جَبْهَتِهِ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ:" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا،وَسَقَانَا فَأَرْوَانَا،وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ "،فَقُلْتُ:قَدْ أَكَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَشَبِعَ،وَشَرِبَ فَرَوِيَ،حَاجَتِي جَعَلَنِي اللَّهُ فِـــدَاكَ – قَالَ شَقِيقٌ:وَكَانَ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ إِيَّايَ ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ،هَذَا فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا مَا قَالَ:لِلَّـــهِ أَبُوكَ فَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ:رَسُولُ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ:فَتَاللَّهِ،لَكَأَنَّمَا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِهِ تَحَنُّنًا عَلَيَّ،وَحُبًّا لِخَبَرِي عَمَّنْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِهِ،وَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ يَزْحَـــفُ إِلَـــيَّ:إِيهًـــا لِلَّـــهِ أَبُوكَ،كَيْفَ تَرَكْتَ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ ؟ كَيْفَ الْمُسْلِمُونَ ؟ مَا صَنَعْتُمْ ؟ كَيْفَ حَـــالُكُمْ ؟ قُلْتُ:مَا تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ الْخَبَرَ إِلَى أَنَّهُمْ نَاصَبُونَا الْقِتَالَ،فَأُصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَاسْتَرْجَعَ وَبَلَغَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ،وَتَرَحَّمَ عَلَى الرَّجُلِ طَوِيلًا،قُلْتُ:ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتْحًا عَظِيمًا فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرِقَةٍ مَا شَاءُوا قَالَ،وَيْحَكَ كَيْفَ اللَّحْمُ بِهَا ؟ فَإِنَّهَا شَجَرَةُ الْعَرَبِ،وَلَا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلَّا بِشَجَرَتِهَا،قُلْتُ:الشَّاةُ بِدِرْهَمَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:" اللَّهُ أَكْبَرُ "،ثُمَّ قَالَ:وَيْحَكَ هَلْ أُصِيبَ مِـــنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ آخَرُ ؟ قَالَ:جِئْتُ إِلَى ذِكْرِ السَّفَطَيْنِ،فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهُمَا،فَحَلَفَ الرَّسُولُ عِنْدَهَا يَمِينًا أُخْرَى،اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَكَأَنَّمَا أُرْسِلَتْ عَلَيْـــهِ الْأَفَـــاعِي وَالْأَسَـــاوِدُ وَالْأَرَاقِمُ أَنْ وَثَبَ كَمَكَانِ تِيكَ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ آخِذًا بِحَقْوَتِهِ فَقَالَ:لِلَّهِ أَبُوكَ وَعَلَامَ يَكُونَانِ لِعُمَرَ ؟ وَاللَّهِ لَيَسْتَقْبِلَنَّ الْمُسْلِمُونَ الظَّمَأَ وَالْجُـــوعَ وَالْخَـــوْفَ فِـــي نُحُـــورِ الْعَدُوِّ،وَعُمَرُ يَغْدُو مِنْ أَهْلِهِ وَيَرُوحُ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُ أَفْيَاءَ الْمَدِينَةِ،ارْجِعْ بِمَا جِئْتَ بِهِ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ،فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهُ أُبْدِعَ بِي وَبِصَاحِبِي فَاحْمِلْنَا قَالَ:لَا،وَلَا كَرَامَةَ لِلْآخِرِ مَا جِئْتَ بِمَا أُسَرُّ بِهِ فَأَحْمِلَكَ،قُلْتُ:يَا لَعِبَادِ اللَّهِ أَيَتْرُكُ رَجُلٌ بَيْنَ أَرْضَيْنِ ؟ قَالَ:أَمَا لَوْلَا

قُلْتَهَا يَا يَرْفَأُ انْطَلِقْ بِهِ فَاحْمِلْهُ وَصَاحِبَهُ عَلَى نَاقَتَيْنِ ظَهْرِيَّيْنِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ،ثُمَّ انْخَسْ بِهِمَا حَتَّى تُخْرِجَهُمَا مِنَ الْحَرَّةِ،ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ:أَمَا لَئِنْ شَتَا الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَاتِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَا بَيْنَهُمْ لَأَعْذِرَنَّ مِنْكَ وَمِنْ صُوَيْحِبِكَ،ثُمَّ قَالَ:إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْبِلَادِ فَانْظُرْ أَحْوَجَ مَنْ تَرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَادْفَعْ إِلَيْهِ النَّاقَتَيْنِ،فَأَتَيْنَاهُ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ،فَقَالَ:ادْعُ لِي الْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ:إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ وَفَرَكُمْ بِسَفَطَيْكُمْ،وَرَآكُمْ أَحَقَّ بِهِمَا مِنْهُ،فَاقْتَسِمُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ،فَقَالُوا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمَا بَصَرٌ وَتَقْوِيمٌ وَقِسْمَةٌ فَقَالَ:وَاللَّهِ لَا تَبْرَحُونَ وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي مِنْهَا بِحَجَرٍ،فَعَدَّ الْقَوْمَ وَعَدَّ الْحِجَارَةَ فَرُبَّمَا طَرَحُوا إِلَى الرَّجُلِ الْحَجَرَيْنِ،وَفَلَقُوا الْحَجَرَ بَيْنَ اثْنَيْنِ " "[٤٥]

وعن حيوة بن شريح:أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث أميرا أوصاهم بتقوى الله وقال عند عقدة الولاية:بسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر،وقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله،ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين،ثم لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة،ولا تسرفوا عند الظهور،ولا تنكلوا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة ولا هرما ولا وليدا،وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند جمة

---

[٤٥] – سنن سعيد بن منصور – (٦ / ١١) (٢٢٩٩) حسن

الغلول:الخيانة والسرقة –التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به – أبى:امتنع ورفض – الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب – الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتابي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله ،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم – الذمة والذمام:العَهْد،والأمَانِ،والضَّمان،والحُرمَة،والحقّ – أبى:رفض وامتنع – التخلل:التحرك والتنقل بين شيئين – في إثره:بعده – مليا:وقتا طويلا –النبذ:الرمي والطرح – القصعة:وعاء يؤكل ويُثْرَدُ فيه وكان يتخذ من الخشب غالبا – الدنو:الاقتراب – الجارية:الأمة المملوكة أو الشابة من النساء – السويق:طعام يصنع من دقيق القمح أو الشعير بخلطه بالسمن والعسل – السُّلت:ضَرْب من الشَّعير أبيضُ لا قشْر له،وقيل هو نوعٌ من الحِنْطة –إيه:هذه كلمة يراد بها الاسْتِزَادة،وهي مبنية على الكسر،فإذا وصَلْتَ نَوّنْتَ فقلت إيهٍ حدّثْنا،وإذا قلت إيهًا بالنصب فإنَّما تأمره بالسكوت أو العكس –المتاع:كل ما يُنْتَفَعُ به وَيُسْتَمْتَعُ ،أو يُتَبَلَّغُ بِهِ ويتُزَوَدَّ من سلعة أو مال أو زوج أو أثاث أو ثياب أو مأكل وغير ذلك – ويْح:كَلمةُ تَرَحُّمٍ وتَوَجُّعٍ،تقالُ لمن وَقَع في هَلَكةٍ لا يَسْتَحِقُّها. وقد يقال بمعنى المدح والتَّعجُّب – الشاة:الواحدة من الغنم وقيل:الواحدة من الضأن والمَعز والظِّباءِ والبَقَر والنعامِ وحُمُرِ الوحش – في نحر العدو:في مقابلته وقتاله – الغُدُو:السير أول النهار – أُبْدِعَ بفلان:عطبت راحلتُهُ وكلَّتْ وبقي بعيدا عن الرفاق – الإبل:الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه –مشاتيهم:مواضعهم وأماكنهم – برح المكان:زال عنه وغادره

النهضات،وفى شن الغارات،ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالأرباح فى البيع الذى بايعتم وذلك هو الفوز العظيم"[٤٦]

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه،وفي آدابه الرفيعة،وفي الرعاية لكرامة الإنسان.وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه.أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة،غير المحاربين أصلا وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان.وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين،ولاحترام بشرية المحاربين.إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب،بقدر ما تقتضي حالة الحرب،دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.[٤٧]

لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم،ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية.كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي ..

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة،دون إدراك لهاتين الحقيقتين ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام،ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها ..الذين يفعلون ذلك

---

[٤٦] - جامع الأحاديث - (٢٦ / ١٦٣) (٢٨٧٩٦) وفيه ضعف – هناك زيادات كثيرة من عندي

[٤٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٥٧]

ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ ..هؤلاء ليسوا «فقهاء»! وليس لهم «فقه» بطبيعة الفقه! وبطبيعة هذا الدين أصلا!

إن «فقه الحركة» يختلف اختلافا أساسيا عن «فقه الأوراق» مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها «فقه الأوراق»!

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره «الواقع» الذي نزلت فيه النصوص،وصيغت فيه الأحكام.ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لا تنفصل عناصره.فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته،واختل تركيبه! ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته،يعيش في فراغ،لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها ..إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ!

ونأخذ مثالا لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب،وهو المأخوذ من قوله تعالى:«فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ»،فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺأَنَا وَرَجُلانِ مِنْ بَنِي عَمِّي،فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ:أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلاكَ اللَّهُ،وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ،فَقَالَ:إِنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ،وَلا أَحَدًا حِرْصَ عَلَيْهِ"[٤٨] . ..

لقد نشأ هذا الحكم – كما نزلت تلك النصوص – في مجتمع مسلم ليطبق في هذا المجتمع وليعيش في هذا الوسط وليلبي حاجة ذلك المجتمع.وفق نشأته التاريخية،ووفق تركيبه العضوي،ووفق واقعه الذاتي.فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي ..وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي.وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي ..إسلامي في نشأته،وفي تركيبه العضوي،وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة ..وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر «فراغا» بالقياس إلى ذلك الحكم،لا يملك أن يعيش فيه،ولا يصلح

---

[٤٨] - مسند أبي عوانة مشكلا [٤ /٢١٠](٥٦٤٠) صحيح

له،ولا يصلحه كذلك! ..ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي.وإن كنـــا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني ..

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم،ولا يرشـــحون أنفســـهم للوظائف،ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة ...

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم.كمـــا أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بـــالتزاحم عليـــه – اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان اللّه تعـــالى – ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم.

وهؤلاء يجب أن يمنعوها! ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعـــة النشـــأة الطبيعيـــة للمجتمع المسلم،وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضا ..

إن الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع.فالمجتمع المسلم وليـــد الحركـــة بالعقيـــدة الإسلامية ..

أولا:تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله – علـــى عهـــد النبوات – أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند اللّه وما بلغه رسوله – على مدار الزمان بعد ذلك – فيستجيب للدعوة ناس يتعرضون للأذى والفتنـــة مـــن الجاهليـــة الحاكمة السائدة في أرض الدعوة.فمنهم من يفتن ويرتد،ومنهم من يصدق ما عاهد اللّه عليه فيقضي نحبه شهيدا ومنهم من ينتظر حتى يحكم اللّه بينه وبين قومه بالحق ..

هؤلاء يفتح اللّه عليهم،ويجعل منهم ستارا لقدره،ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعـــده بنصر من ينصره،والتمكين في الأرض له،ليقيم مملكة اللّه في الأرض – أي لينفذ حكـــم اللّه في الأرض – ليس له من هذا النصر والتمكين شيء إنما هو نصر لدين اللّه،وتمكين لربوبية اللّه في العباد.

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ولا عند حدود جنس معـــين ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوّم واحد من تلك المقوّمات البشرية الأرضية الهزيلة

السخيفة! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا «الإنسان» ..كل الإنسان:في «الأرض» ..كل الأرض ..من العبودية لغير اللّه وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت[٤٩].

وفي أثناء الحركة بهذا الدين – وقد لا حظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض،ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم – تتميز أقدار الناس،وتتحدد مقاماتهم في المجتمع،ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية،الجميع يتعارفون عليها،من البلاء في الجهاد،والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة ..وكلها قيم يحكم عليها الواقع،وتبرزها الحركة،ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها ..ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم،ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة،وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية – كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار.وأهل بدر،وأهل بيعة الرضوان،ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل – ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام ..في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا،ولا ينكر الناس فضائل المتميزين – مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع – وعندئذ تنتفي الحاجة من جانب آخر إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة ..لن يوجد اليوم أو غدا،إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد،وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها ..وهذه نقطة البدء ..ثم تعقبها الفتنة والابتلاء – كما حدث أول مرة – فأما ناس فيفتنون ويرتدون! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا اللّه عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء.وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على

---

[٤٩] – يراجع فصل «الجهاد في سبيل اللّه» في كتاب:«معالم في الطريق». «دار الشروق».

الإسلام،ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النـــار حـــتى يحكم اللّه بينهم وبين قومهم بالحق،ويمكّن لهم في الأرض - كما مكن للمســـلمين أول مرة - فيقوم في أرض من أرض اللّه نظام إسلامي ..ويومئذ تكون الحركة من نقطـــة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانيـــة،وفق الموازين والقيم الإيمانية ..ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفســـهم وتزكيتـــها،لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشـــحهم! ولقـــد يقـــال بعـــد هذا:ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى.فإذا استقر المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة ..يتحـــرك لتحرير «الإنسان».كل الإنسان ..في «الأرض» ..كل الأرض ..من العبودية لغير اللّه وليرفعه عن العبودية للطواغيت بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقـــوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! وإذن فستظل الحركة - التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة - تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ولا تقف أبدا ليركد هذا المجتمع ويأسن - إلا أن ينحرف عن الإسلام - وسيظل الحكم الفقهـــي - الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية - قائما وعـــاملا في محيطه الملائم ..ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه.

ثم يقال:ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضـــا ويصـــبح الأكفـــاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هـــذه التزكية!

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة ..إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربيـــة والتكوين والتوجيه،والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون أهل كل محلة عـــارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم موزونة هذه الكفايات والمواهب بمـــوازين وقـــيم إيمانية فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية ..

سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية.أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام – الـذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – له ..يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزهم الحركة.والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم،والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته – أو يكتبون – يدخلون في متاهة! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم،بتركيبه العضوي الحاضر!

وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر – بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية – فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام ..إن تركيبه العضوي مناقض تماما للتركيب العضوي للمجتمع المسلم.فالمجتمع المسلم – كما قلنا – يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع،ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام.مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة،والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف.أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد،قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام،ولا بالقيم الإيمانية ..

وهو – من ثم – يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام! هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم – أول ما يحيرهم – طريقة اختيار أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية! كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد – متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها – فكيف يعودون هم

فيختارون الإمام؟ ألا يؤثر هذا في ميزاهم؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهم له،ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتبار ه؟ ...

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا في هذه المتاهة! أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة ..إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر،وبقيمة وأخلاقه الحاضرة! هذه نقطة البدء في المتاهة ..ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ،ويوغل في هذا الفراغ،حتى يبعد في التيه،وحتى يأخذه الدوار! إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم،ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام ..لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ،ولم تتحرك في فراغ كذلك! إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي ..ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت – في وجه الجاهلية – لإنشائه وتحددت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة.

إنه مجتمع جديد ..ومجتمع وليد ..ومجتمع متحرك دائما في طريقه لتحرير «الإنسان»،..كل الإنسان ..في «الأرض» ..كل الأرض ..من العبودية لغير اللّه،ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت ..أيا كانت هذه الطواغيت ..

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة،واختيار الإمام،واختيار أهل الشورى ...وما إليها ...قضايا كثيرة تثار،ويطرقها الباحثون في الإسلام ..في الفراغ ..في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ..بتركيبه العضوي المختلف تماما عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم ..وبقيمة وموازينه واعتبارات ه وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتبارات ه وأخلاقه ومشاعره وتصوراته ..أعمال البنوك وأساسها الربوي ..شركات التأمين وقاعدتها الربوية ..تحديد النسل وما أدري

ماذا؟! إلى آخر هذه «المشكلات» التي يشغل «الباحثون» بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات توجه إليهم ..

إنهم جميعا – مع الأسف – يبدأون من نقطة البدء في المتاهة! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر فتنتقل هذه المجتمعات إذن – متى طبقت عليها أحكام الإسلام – إلى الإسلام!

وهي تصورات مضحكة لولا أنها محزنة! إن الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم.إنما المجتمع المسلم بحركته – في مواجهة الجاهلية ابتداء – ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانيا،هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمدا من أصول الشريعة الكلية ..والعكس لا يمكن أن يكون أصلا! إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ،ولا يعيش في فراغ كذلك ..لا ينشأ في الأدمغة والأوراق إنما ينشأ في واقع الحياة.وليست أية حياة.إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد ..ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق ..وعندئذ تختلف الأمور جدا ..

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص – بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة – إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل ...إلخ وقد لا يحتاج! ذلك أننا لا نملك سلفا أن نقدر أصل حاجته،ولا حجمها،ولا شكلها،حتى نشرّع لها سلفا! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها ..ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها.ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك! إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل،الذي يجب على دين اللّه أن يطابق نفسه عليه!

ولكن الأمر غير ذلك تماما ..إن دين اللّه هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة ..ولكن هذا

التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد ..هو التحرك – في وجه الجاهلية – لتحقيق ألوهية اللّه في الأرض وربوبيته وحده للعباد،وتحرير النــاس مــن العبوديــة للطاغوت،بتحكيم شريعة اللّه وحدها في حياهم ..

وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء .فيفتن من يفــتن ويرتــد مــن يرتد،ويصدق اللّه من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد،ويصبر مــن يصــبر ويمضــي في حركته حتى يحكم اللّه بينه وبين قومه بالحق،وحتى يمكن اللّه له في الأرض،وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي،وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه،وتميزوا بقيمة ..وعندئــذ تكون لحياهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتــها عــن حاجــات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها ..وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومــذاك تستنبط الأحكام وينشأ فقه إسلامي حي متحرك – لا في فراغ – ولكــن في وســط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات ..

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفــق في مصارفها،ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة،ثم بين كل أفراد الأمة،وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر ..إلى آخر مقومات الحيــاة الإسلامية ..من يدرينا أن مجتمعا كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصــلا؟! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات؟!

وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النــوع المعــروف في المجتمع الجاهلي،المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصــوراته؟! وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلا؟ ..وهكذا ..

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلما ولا حجــم هــذه الحاجات أو شكلها،بسبب اخــتلاف تركيبــه العضــوي عــن تركيــب المجتمــع الجاهلي،واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه ..فما هذا الضنى في محاولة تحوير

وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب،شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته!

إن نقطة البدء في المتاهة – كما قلنا – هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها،وهي بهذا التركيب العضوي ذاته،وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها.

كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين اللّه أن يطابق نفسه عليه.وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها ..حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلا من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره! ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته،فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية،والمجتمعات الجاهلية،والحاجات الجاهلية.وأن يقولوا للناس – وللذين يستفتونهم بوجه خاص – تعالوا أنتم أولا إلى الإسلام،وأعلنوا خضوعكم سلفا لأحكامه ..أو بعبارة أخرى ..تعالوا أنتم أولا فادخلوا في دين اللّه،وأعلنوا عبوديتكم للّه وحده،واشهدوا أن لا إله إلا اللّه بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به.وهو إفراد اللّه بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته – أي حاكميته وسلطانه – وحده في حياة الناس بجملتها.وتنحية ربوبية العباد للعباد،بتنحية حاكمية العباد للعباد،وتشريع العباد للعباد.

وحين يستجيب الناس – أو الجماعة منهم – لهذا القول،فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود.وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو،لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة اللّه فعلا ..

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس،باستنبات البذور في الهواء،ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ،كما أنه لن تنبت البذور في الهواء! إن العمل في الحقل «الفكري» للفقه الإسلامي عمل مريح! لأنه لا

خطر فيه! ولكنه ليس عملا للإسلام ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملا للإسلام في هذه الفترة فأحسب – واللّه أعلم – أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضا!

إن دين اللّه يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول،ومجرد خادم مطيع،لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه،المتنكر له،الشارد عنه ..الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه ..

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ،ولا تعمل في فراغ ..وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان اللّه ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع ..ولن تنعكس الآية أبدا.

إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائما واحدة والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوما ما سهلا ولا يسيرا.ولن يبدأ أبدا من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ،لتكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي.ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على «الجاهز» والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام.وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية «الجاهزة»! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة ..إلى آخر ما يخادع به بعضهم،وينخدع به بعضهم الآخر! كلا! إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمية للّه فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض للّه وحده.

وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا.يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة ..ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون اللّه – أي تدين لها وتخضع وتتبع – فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة.وتخرج

هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك ..فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام ..وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما في الأرض وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية:

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية – إذن – بوسائل مكافئة.إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية.ثم يحكم اللّه بين من يسلمون للّه وبين قومهم بالحق ..وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه،التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي،وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليد،وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها،وهي أمور كلها في ضمير الغيب – كما أسلفنا – ولا يمكن التكهن بها سلفا،ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين! إن هذا لا يعني – بحال – أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية.ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له،والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه – بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائما الآن فعلا.ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقا بقيام ذلك المجتمع ..ويبقى الالتزام بها قائما في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية ..

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير،كلما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية ..هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي،بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة اللّه في خلال القرنين الأخيرين وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام وإن بقيت المآذن والمساجد،والأدعية والشعائر تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين وتوهمهم أنه لا يزال بخير وهو يمحى من الوجود محوا!

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر،وقبل أن توجد المساجد ..وجد من يوم أن قيل للناس:اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره،فعبدوه.ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر،فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت.إنما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده - من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزّلت شرائع! - وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة للّه وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه،إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة ..

وهذا هو الطريق وحده وليس هنالك طريق آخر ..

وليت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان،وببيان أحكام الإسلام! ولكن هذه إنما هي «الأمانيّ»!

فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت،إلى الإسلام وعبادة اللّه وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة ..والذي يبدؤه فرد،ثم تتبعه طليعة،ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم اللّه بينها وبين قومها بالحق ويمكّن لها في الأرض ..ثم ..يدخل الناس في دين اللّه أفواجا ..ودين اللّه هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس دينا غيره:«ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه» ..

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف - عليه السلام.

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية.كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادما في وضع جاهلي.[50]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[50] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٤٠]

سورة الحجر ..إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية وتوجه الرسول – ﷺ– والجماعة المسلمة معه،توجيها واقعيا مباشرا وتجاهد المكذبين جهادا كبيرا.كما هي طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

ولما كانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت،بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبي – ﷺ– والعصبة المؤمنة معه حيث اجترأت قريش على رسول اللّه – ﷺ– بما لم تكن تجترئ عليه في حياة أبي طالب.واشتد استهزاؤها بدعوته كما اشتد إيذاؤها لصحابته ..فقد جاء القرآن الكريم في هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ويكشف للرسول – ﷺ– عن علة تكذيبهم وعنادهم وهي لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه،لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تجدي معه الآيات البينات.ومن ثم يسلي الرسول – ﷺ– ويواسيه ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذي معه والصدع به بقوة في مواجهة الشرك وأهله والصبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة،وطول الطريق! ومن هنا تلتقي هذه السورة في وجهتها وفي موضوعها وفي ملامحها مع بقية السور التي نزلت في تلك الفترة وتواجه مثلها مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية.أي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملابساتها الواقعية.

ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة،وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان.

ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن ..سمة الواقعية الحركية ..لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه ..

إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني ..لا بد من هذا لإدراك وجهة النص

وأبعاد مدلولاته ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ويواجه حالة واقعة كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده.وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية،وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية.

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة ومن ثم يواجهون أحوالا وملابسات وظروفا وأحداثا كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى – صلوات اللّه وسلامه عليه – والعصبة المسلمة معه ..من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة للّه وحده في كل شأن من شؤون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ..وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبتلى – في سبيل اللّه – به ..

إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى ..هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية ..وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه.على النحو الذي أسلفنا ..وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق،في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة! وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة.حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور،ومن الجاهلية إلى الإسلام ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد كما كانت الحركة الأولى – على عهد محمد ﷺ– تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة قبل أن تقوم الدولة في المدينة وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض وعلى أمة من الناس.

نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله،وذلك لاختلاف بعض الظروف والملابسات الخارجية ..

نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة ..ولكن مع اختلاف في الملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة ..وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي «اجتهادا» جديدا في «فقه الحركة» يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلا أو كثيرا ..

هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة ..أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة،وشرائع المجتمع المنظم المستقر،فهذا ليس أوانه ...إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم،قاعدة التعامل فيه هي شريعة اللّه والفقه الإسلامي! ..

هذا النوع من الفقه يأتي في حينه وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حين يوجد ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك! إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستنبت بذوره في الهواء![٥١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥١] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٦١]

قال تعالى:«لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ.أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ» ..لا يستويان طبيعة وحالا،ولا طريقا ولا سلوكا،ولا وجهة ولا مصيرا.فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا في طريق.ولا يلتقيان أبدا في سمة.ولا يلتقيان أبدا في خطة.ولا يلتقيان أبدا في سياسة.ولا يلتقيان أبدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة .. «أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ» ..يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه.معروفا.وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير![٥٢]

وقال تعالى:« وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا.وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ» ..القضية نفسها تتكرر في الصورة الأخرى،توكيدا لها وتدقيقا في بيانها والعلة في الأولى هي العلة في الثانية:«أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ،وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ.وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» ..

إن الطريقين مختلفان،والدعوتين مختلفتان،فكيف يلتقي الفريقان في وحدة تقوم عليها الحياة؟

إن طريق المشركين والمشركات إلى النار،ودعوتهم إلى النار.وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق اللّه.واللّه يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ..فما أبعد دعوتهم إذن من دعوة اللّه! ولكن أو يدعو أولئك المشركون والمشركات إلى النار؟ ومن الذي يدعو نفسه أو غيره إلى النار؟! ولكنها الحقيقة الأخيرة يختصر السياق إليها الطريق! ويبرزها من أولها دعوة إلى النار،بما أن مآلها إلى النار.واللّه يحذر من هذه الدعوة المردية «وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» ..فمن لم يتذكر،واستجاب لتلك الدعوة فهو الملوم! هنا نتذكر أن اللّه لم يحرم زواج المسلم من كتابية – مع اختلاف العقيدة – ولكن الأمر هنا يختلف.إن المسلم والكتابية يلتقيان في أصل العقيدة في اللّه.وإن اختلفت التفصيلات التشريعية ..

---

[٥٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٤٣٩٩]

ونحن نرى اليوم أن هذه الزيجات شر على البيت المسلم ..فالذي لا يمكن إنكاره واقعيا أن الزوجة اليهودية أو المسيحية أو اللادينية تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها،وتخرج جيلا أبعد ما يكون عن الإسلام.وبخاصة في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه،والذي لا يطلق عليه الإسلام إلا تجوزا في حقيقة الأمر.والذي لا يمسك من الإسلام إلا بخيوط واهية شكلية تقضي عليها القضاء الأخير زوجة تجيء من هناك![٥٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

---

[٥٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٧٩]

قلت:المشكلة اليوم أكبر من ذلك حيث أباح فقهاء الهزيمة بقاء المسلمة في عصمة الكتابي إذا أسلمت وبقي على كفره رفقا بالأطفال،ونسوا قول الله تعالى :{وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (٢٢١) سورة البقرة وإجماع المسلمين،بحجة تاليف قلوب الكفار والفجار على المسلمين !!!!

وفي الموسوعة الفقهية:" إِذَا أَسْلَمَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ الْوَثَنِيَّيْنِ،أَوِ الْمَجُوسِيَّيْنِ،أَوْ كِتَابِيٌّ مُتَزَوِّجٌ بِوَثَنِيَّةٍ،أَوْ مَجُوسِيَّةٌ قَبْل الدُّخُول،تَعَجَّلَتِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ حِينِ إِسْلاَمِهِ،وَيَكُونُ ذَلِكَ فَسْخًا لاَ طَلاَقًا .وَهَذَا مَذْهَبُ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لاَ تَتَعَجَّل الْفُرْقَةُ،بَل إِنْ كَانَا فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ عُرِضَ الإِْسْلاَمُ عَلَى الآْخَرِ،فَإِنْ أَبَى وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ حِينَئِذٍ،وَإِنْ أَسْلَمَ اسْتَمَرَّتِ الزَّوْجِيَّةُ،وَإِنْ كَانَا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَقَفَ ذَلِكَ عَلَى انْقِضَاءِ ثَلاَثِ حِيَضٍ،أَوْ مُضِيِّ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ،وَلَيْسَتْ عِدَّةً،فَإِنْ لَمْ يُسْلِمِ الآْخَرُ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ .وَقَال مَالِكٌ:إِنْ كَانَتْ هِيَ الْمُسْلِمَةُ عُرِضَ عَلَيْهِ الإِْسْلاَمُ،فَإِنْ أَسْلَمَ وَإِلاَّ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ،وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمُسْلِمُ تَعَجَّلَتِ الْفُرْقَةُ .

أَمَّا إِنْ كَانَ إِسْلاَمُ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ الْوَثَنِيَّيْنِ أَوِ الْمَجُوسِيَّيْنِ أَوْ زَوْجَةِ الْكِتَابِيِّ،بَعْدَ الدُّخُول،فَفِي الْمَسْأَلَةِ ثَلاَثَةُ اتِّجَاهَاتٍ :الأَْوَّل:يَقِفُ الأَْمْرُ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ،فَإِنْ أَسْلَمَ الآْخَرُ قَبْل انْقِضَائِهَا فَهُمَا عَلَى النِّكَاحِ،وَإِنْ أَسْلَمَ حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ مُنْذُ اخْتَلَفَ الدِّينَانِ،فَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِئْنَافِ الْعِدَّةِ .وَهَذَا قَوْل الشَّافِعِيِّ،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ .

الثَّانِي .تَتَعَجَّل الْفُرْقَةُ .وَهَذَا رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ وَقَوْل الْحَسَنِ وَطَاوُوسٍ .

الثَّالِثُ:يُعْرَضُ الإِْسْلاَمُ عَلَى الآْخَرِ إِنْ كَانَ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَهُوَ قَوْل أَبِي حَنِيفَةَ،كَقَوْلِهِ فِي إِسْلاَمِ أَحَدِهِمَا قَبْل الدُّخُول،إِلاَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ،فَانْقَضَتْ مُدَّةُ التَّرَبُّصِ،وَهِيَ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ أَوْ ثَلاَثَةُ حِيَضٍ،وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ،وَلاَ عِدَّةَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ،لأَِنَّهُ لاَ عِدَّةَ عَلَى الْحَرْبِيَّةِ .

وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْمُسْلِمَةُ،فَخَرَجَتْ إِلَيْنَا مُهَاجِرَةً،فَتَمَّتِ الْحِيَضُ هُنَا،فَكَذَلِكَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ .وَقَال الصَّاحِبَانِ:عَلَيْهَا الْعِدَّةُ ".الموسوعة الفقهية الكويتية [٤ /٢٦١]

إن القرآن وهو ينشىء هذه الأمة من حيث لم تكن وينشئها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشر:«خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» ..ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث:حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معا ..فقد كانت – على التحقيق – إنشاء وتنشئة،كانت ميلادا جديدا للأمة بل ميلادا جديدا «للإنسان» في صورة جديدة! و لم تكن مرحلة في طريق النشأة ولا خطوة في سبيل التطور،ولا حتى وثبة من وثبات النهضة! إنما كانت – على وجه التحديد – «نشأة»! و«ميلادا» للأمة العربية وللإنسان كله! وحين ننظر إلى الشعر الجاهلي – والنتف الأخرى من المأثورات الجاهلية – وهو ديوان العرب،الذي تضمن أعلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحياة والوجود،والكون والإنسان والخلق والسلوك كما تضمن معالم حياتهم،ومكنون مشاعرهم،ومجموع تصوراتهم ولباب ثقافتهم وحضارتهم وكينونتهم كلها بالاختصار ..

حين ننظر إلى مجموعة الثقافات والتصورات والقيم التي يتضمنها هذا الديوان في ظل القرآن وما تضمنه من نظرة للوجود والحياة،وللكون والإنسان ومن قيم في الحياة الإنسانية ومن نظام للمجتمع ومن تصور لغاية الوجود الإنساني.ومن تنظيم واقعي يقوم على أساس هذا التصور ..

ثم ننظر إلى واقع العرب قبل الإسلام وبعده ..في ظل تلك التصورات الجاهلية التي تتمثل في ديوانها.ثم في ظل هذه التصورات القرآنية التي تمثل المنهج الرباني ..

حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية ..في ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية:يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد ..أنها كانت نشأة و لم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة! كانت «إخراجا» من صنع اللّه كتعبير القرآن الدقيق ..وكانت أعجب نشأة وأغرب إخراج ..فهي المرة الأولى والأخيرة – فيما نعلم – التي تنبثق فيها

أمة من بين دفتي كتاب! و«تخرج» فيها حياة من خلال الكلمات! ولكن لا عجب ..فهذه الكلمات ..كلمات اللّه ..

ومن أراد المجادلة والمماحلة،فليقل لنا أين كانت هذه الأمة قبل أن «يخرجها» اللّه بكلماته وقبل أن ينشئها اللّه بقرآنه؟

إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية! ولكن أين كانت في الوجود «الإنساني»؟ أين كانت في سجل الحضارة البشرية؟ أين كانت في التاريخ العالمي؟ أين كانت تجلس على المائدة العالمية الإنسانية؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة،فيعرف باسمها ويحمل طابعها؟

لقد «نشأت» هذه الأمة نشأتها بهذا الدين ونشئت تنشئتها بهذا المنهج القويم وقادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب اللّه الذي في يدها،وبمنهجه الذي طبع حياتها ..لا بشيء آخر ..وأمامنا التاريخ! وقد صدقها اللّه وعده وهو يقول للعرب:«لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ..أَفَلا تَعْقِلُونَ»؟

فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض وكان لها دورها في التاريخ وكان لها «وجود إنساني» ابتداء،وحضارة عالمية ثانيا ..ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة اللّه هذه على الأمة العربية ويجحدوا فضل اللّه في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم ..ومن ثم جعل لهم وجودا وذكرا وتاريخا وحضارة - يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذي ألبسهم اللّه إياه وأن يمزقوا هذه الراية التي قادتهم إلى الذكر والمجد ..بل إلى الوجود يوم أخرج اللّه منهم الأمة المسلمة! نقول ..إن القرآن حين كان «ينشئ» هذه الأمة و«ينشئها» ..ويخطط ويثبت ملامح الإسلام الجديدة،في الجماعة المسلمة - التي التقطها من سفح الجاهلية - ويطمس ويمحو ملامح الجاهلية في حياتها ونفوسها ورواسبها ..وينظم مجتمعها - أو يقيمه ابتداء - على أساس الميلاد الجديد ..

وحين كان يخوض بالجماعة المسلمة المعركة في مواجهة الجاهلية الراسبة في نفوسها وأوضاعها من مخلفات البيئة التي التقطها المنهج الرباني منها وفي مواجهة الجاهلية

الرابضة فيها ومن حولها – ممثلة في يهود المدينة ومنافقيها ومشركي مكة وما حولها – والمعركتان موصولتان في الزمان والمكان! حين كان القرآن يصنع ذلك كله ..كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح،ببيان شرط الإيمان وحدّ الإسلام ويربط بهذا التصور – في هذه النقطة بالذات – نظامها الأساسي،الذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس،لتبين للناس،وتقودهم إلى اللّه ..

نظامها الرباني ..وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي،قائما ومنبثقا من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحدّ الإسلام!

إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها والطريقة التي تتلقى بها والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى،وترد إليه ما يجدّ من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها والسلطة التي تطيعها وعلة طاعتها ومصدر سلطانها ..ويقول:إن هذا هو شرط الإيمان وحدّه الإسلام ..

وعندئذ يلتقي «النظام الأساسي» لهذه الأمة بالعقيدة التي تؤمن بها ..في وحدة لا تتجزأ ولا تفترق عناصرها ..

وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقا كاملا ..وهذه هي القضية التي تبدو،بعد مطالعة هذا الدرس،بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل «مسلم» فيها! إنه يقول للأمة المسلمة:إن الرسل أرسلت لتطاع – بإذن اللّه – لا لمجرد الإبلاغ والإقناع:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» ..

ويقول لها:إن الناس لا يؤمنون – ابتداء – إلا أن يتحاكموا إلى منهج اللّه ممثلا – في حياة الرسول ﷺ– في أحكام الرسول.وباقيا بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ولا يكفي أن يتحاكموا إليه – ليحسبوا مؤمنين – بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين:«فَلا وَرَبِّكَ ..لا يُؤْمِنُونَ ..حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» ..فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

ويقول لها:إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – أي إلى غير شريعة اللّه – لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله.فهو زعم كاذب.يكذبه أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ،يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ – وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ – وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً».

ويقول لها:إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل اللّه والتحاكم إلى رسول اللّه:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ،رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».

ويقول لها:إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسي،أن تطيع اللّه – عز وجل – في هذا القرآن – وأن تطيع رسول اللّه – ﷺ– في سنته – وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ..

ويقول لها:إن المرجع،فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة،والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية ..إن المرجع هو اللّه ورسوله ..أي شريعة اللّه وسنة رسوله:«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شيء،فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» ..

وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك،أبد الدهر،في حياة الأمة المسلمة ..وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي،الذي لا تكون مؤمنة إلا به،ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه ..إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك،ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى اللّه ورسوله ..شرط الإيمان وحد الإسلام ..شرطا واضحا ونصا صريحا:«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [٥٤] ..

[٥٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٠٢٤]

إن أبرز إيحاءات قصة آدم - كما وردت في هذا الموضع - هو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض،ولمكانه في نظام الوجود،وللقيم التي يوزن بها.ثم لحقيقة ارتباطه بعهد اللّه،وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه ..وتتبدى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم،أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض كما تتبدى في أمر الملائكة بالسجود له.وفي طرد إبليس الذي استكبر وأبى،وفي رعاية اللّه له أولا وأخيرا ..

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبار ات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء.

وأول اعتبار من هذه الاعتبار ات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض،ومن أجله خلق كل شيء فيها - كما تقدم ذلك نصا - فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي،ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعا.ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي ..لا يجوز أن يعتدي على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة،ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي،أو إنتاج أي شيء مادي،أو تكثير أي عنصر مادي ..فهذه الماديات كلها مخلوقة - أو مصنوعة - من أجله.من أجل تحقيق إنسانيته.من أجل تقرير وجوده الإنساني.فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية،أو نقص مقوم من مقومات كلامته.

والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول.فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها.وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج،هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلا سلبيا كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر،بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر!

إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض،عاملا مهما في نظام الكون،ملحوظا في هذا النظام.فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار،ومع الشموس والكواكب ..وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض،وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة ..فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية،ولا تسمح له أن يتعداه؟! وما من شك أن كلا من نظرة الإسلام هذه ونظرة المادية للإنسان تؤثر في طبيعة النظام الذي تقيمه هذه وتلك للإنسان وطبيعة احترام المقومات الإنسانية أو إهدارها وطبيعة تكريم هذا الإنسان أو تحقيره ..

وليس ما نراه في العالم المادي من إهدار كل حريات الإنسان وحرماته ومقوماته في سبيل توفير الإنتاج المادي وتكثيره،إلا أثرا من آثار تلك النظرة إلى حقيقة الإنسان،وحقيقة دوره في هذه الأرض! كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعة إلى حقيقة الإنسان ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في وزنه وتقديره،وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية،وتكبير قيم الإيمان والصلاح والإخلاص في حياته.فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه:«فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ...» وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادية – هذا مع أن من مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية،ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطغى على تلك القيم العليا – ولهذا وزنه في توجيه القلب البشري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته.بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من استهزاء بكل القيم الروحية،وإهدار لكل القيم الأدبية،في سبيل الاهتمام المجرد بالإنتاج والسلع ومطالب البطون كالحيوان[٥٥]! وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع اللّه،وهي مناط التكليف والجزاء ..إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته،وعدم الخضوع لشهواته،والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه.بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه،بتغليب الشهوة على الإرادة،والغواية على

---

[٥٥] – يراجع بتوسع كتاب:«الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمد قطب – «دار الشروق».

الهداية،ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه.وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه،يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى.كما أن فيه تذكيرا دائما بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة،والرفعة والهبوط،ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق! وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة.إنها بين عهد اللّه وغواية الشيطان بين الإيمان والكفر.بين الحق والباطل.بين الهدى والضلال ..والإنسان هو نفسه ميدان المعركة.وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها.وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان! وأخيرا تجيء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة ..إن الخطيئة فردية والتوبة فردية.في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض ..ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول نظرية الكنيسة - وليس هنالك تكفير لاهوتي،كالذي تقول الكنيسة إن عيسى - عليه السلام - (ابن اللّه بزعمهم) قام به بصلبه،تخليصا لبني آدم من خطيئة آدم! ..

كلا! خطيئة آدم كانت خطيئة الشخصية،والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة.وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية،والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة ..تصور مريح صريح.يحمل كل إنسان وزره،ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط ..«إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» ..

هذا طرف من إيحاءات قصة آدم - في هذا الموضع - نكتفي به في ظلال القرآن.وهو وحده ثروة من الحقائق والتصورات القويمة وثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة وثروة من الأسس التي يقوم عليها تصور اجتماعي وأوضاع اجتماعية،يحكمها الخلق والخير والفضيلة.ومن هذا الطرف نستطيع أن ندرك أهمية القصص القرآني في تركيز قواعد التصور الإسلامي وإيضاح القيم التي يرتكز عليها.وهي القيم التي تليق بعالم صادر عن اللّه،متجه إلى اللّه،صائر إلى اللّه في نهاية المطاف ..عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقي الهدى من اللّه،والتقيد بمنهجه في الحياة.ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقاه من اللّه،أو أن يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان.وليس هناك

طريق ثالث ..إما اللّه وإما الشيطان.إما الهدى وإما الضلال.إما الحق وإما الباطل.إمـــا الفلاح وإما الخسران ..وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها القرآن كله،بوصفها الحقيقـــة الأولى،التي تقوم عليها سائر التصورات،وسائر الأوضاع في عالم الإنسان ..[٥٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٥]

قال تعالى:{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)} [آل عمران:٢ - ٤]

وهذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد،سواء منها عقائد الملحدين والمشركين،وعقائد أهل الكتاب المنحرفين:يهودا أو نصارى.على اختلاف مللهم ونحلهم جميعا.كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة سائر أهل العقائد في الأرض.فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدا كاملا دقيقا.

«اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» ..فلا شريك له في الألوهية ..«الْحَيُّ» ..الذي يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كل قيد فلا شبيه له في صفته ..«الْقَيُّومُ» ..الذي به تقوم كل حياة وبه يقوم كل وجود والذي يقوم كذلك على كل حياة وعلى كل وجود.فلا قيام لحياة في هذا الكون ولا وجود إلا به سبحانه.

وهذا مفرق الطريق في التصور والاعتقاد.ومفرق الطريق في الحياة والسلوك.

مفرق الطريق في التصور والاعتقاد.بين تفرد اللّه - سبحانه - بصفة الألوهية وذلك الركام من التصورات الجاهلية:سواء في ذلك تصورات المشركين - وقتها في الجزيرة - وتصورات اليهود والنصارى - وبخاصة تصورات النصارى.

ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم كانوا يقولون:عزيز ابن اللّه.كما أن الانحراف الذي سجله ما يعتبره اليهود اليوم «الكتاب المقدس» يتضمن شيئا كهذا.كما جاء في سفر التكوين:الإصحاح السادس[٥٧].

---

[٥٧] - «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات،أن أبناء اللّه رأوا بنات الناس أنهن حسنات،فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا.فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد.لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة.كان في الأرض طغاة في تلك الأيام.وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو اللّه على بنات الناس وولدن لهم أولادا.هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم».

فأما انحرافات التصورات المسيحية فقد حكى القرآن منها قولهم:إن اللّه ثالث ثلاثة.وقولهم:إن اللّه هو المسيح بن مريم.واتخاذهم المسيح وأمه إلهين من دون اللّه.واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه.

وقد جاء في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف أرنولد.شيء عن هذه التصورات ..

«ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرا مننطية.في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة.ففي الوقت الذي الوقت الذي نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين،إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية.وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد.

فالمسيح الواحد،الذي هو ابن اللّه،يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة.ومعنى هذا أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة ..لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام.ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب،بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد،وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء»[٥٨] كذلك يقول باحث مسيحي آخر هو «كانون تايلور» عن الحالة بين نصارى الشرق عند البعثة المحمدية:«وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة»[٥٩].

أما انحرافات عقائد المشركين فقد حكى القرآن عنها:عبادتهم للجن والملائكة والشمس والقمر والأصنام.

وكان أقل عقائدهم انحرافا عقيدة من يقولون عن هذه الآلهة:«ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى»!

---

[٥٨] – ترجمة حسن إبراهيم وزميله ص ٥٢ – ٥٣.

[٥٩] – المصدر نفسه ص ٦٧.

فأمام هذا الركام من التصورات الفاسدة والمنحرفة التي أشرنا إليها هـذه الإشـارات الخاطفة جاء الإسلام في هذه السورة - ليعلنها ناصعة واضحة صريحة حاسمة:«اللَّـهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

فكانت مفرق الطريق في التصور والاعتقاد ..كذلك كانت مفرق الطريـق في الحيـاة والسلوك ..

إن الذي يمتلئ شعوره بوجود اللّه الواحد الذي لا إله إلا هو.الحي الواحد الذي لا حي غيره.القيوم الواحد الذي به تقوم كل حياة أخرى وكل وجود،كما أنه هو الذي يقوم على كل حي وكل موجود ..

إن الذي يمتلئ شعوره بوجود اللّه الواحد الذي هذه صفته،لا بد أن يختلف منهج حياته ونظامها من الأساس عن الذي تغيم في حسه تلك التصورات التائهة المهوشة.فلا يجد في ضميره أثرا لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة في حياته! إنه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية إلا للّه.ولا مكان للاستمداد والتلقي إلا مـن اللّـه.لا في شـريعة أو نظام،ولا في أدب أو خلق.ولا في اقتصاد أو اجتماع.ولا مكان كذلك للتوجه لغير اللّه في شأن من شؤون الحياة،وما بعد الحياة ..أما في تلك التصـورات الزائغـة المنحرفـة المهزوزة الغامضة فلا متجه ولا قرار،ولا حدود لحرام أو حلال،ولا لخطإ أو صواب:في شرع أو نظام،في أدب أو خلق،وفي معاملة أو سلوك ..فكلها ..كلها ..إنمـا تتحـدد وتتضح عند ما تتحدد الجهة التي منها التلقي،وإليها التوجـه،ولها الطاعـة والعبوديـة والاستسلام.

ومن ثم كانت هذه المواجهة بذلك الحسم في مفرق الطريق:«اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَـيُّ الْقَيُّومُ» ..

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية - لا لطبيعة الاعتقـاد وحـده - فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقا من حقيقة هذا التصور الإسلامي عـن التوحيد الخالص الجازم.التوحيد الذي لا يستقيم عقيدة في الضمير ما لم تتبعه آثـاره

العملية في الحياة.من تلقي الشريعة والتوحيد من اللّه في كل شأن من شؤون الحياة.والتوجه كذلك إلى اللّه في كل نشاط وكل اتجاه.

وعقب هذا الإيضاح الحاسم في مفرق الطريق،بإعلان الوحدانية المطلقة لذات اللّه وصفاته،يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التي تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات.أي التي يتنزل منها المنهج الذي يصرف حياة البشر في جميع الأجيال:«نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ – مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ – وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ – هُدىً لِلنَّاسِ – وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ.إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ.وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ».

وتتضمن هذه الآية في شطرها الأول جملة حقائق أساسية في التصور الاعتقادي،وفي الرد كذلك على أهل الكتاب وغيرهم من المنكرين لرسالة محمد – ﷺ- وصحة ما جاء به من عند اللّه.

فهي تقرر وحدة الجهة التي تتنزل منها الكتب على الرسل.فاللّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم،هو الذي نزل هذا القرآن – عليك – كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل.وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية.إنما هناك إله واحد يتنزل الكتب على المختارين من عباده.وهناك عبيد يتلقون.وهم عبيد للّه ولو كانوا أنبياء مرسلين.

وهي تقرر وحدة الدين ووحدة الحق الذي تتضمنه الكتب المتنزلة من عند اللّه.فهذا الكتاب نزله – عليك – «بِالْحَقِّ» ..«مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» ..من التوراة والإنجيل ..وكلها تستهدف غاية واحدة:«هُدىً لِلنَّاسِ» ..

وهذا الكتاب الجديد «فرقان» بين الحق الذي تضمنته الكتب المتنزلة،والانحرافات والشبهات التي لحقت بها بفعل الأهواء والتيارات الفكرية والسياسية (التي رأينا نموذجا منها فيما نقلناه عن الكاتب المسيحي سيرت.و.أرنولد في كتاب «الدعوة إلى الإسلام»).

وهي تقرر – ضمنا – أنه لا وجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة.فهي سائرة على نمط الرسالات قبلها.وكتابها نزل بالحق كالكتب المترلة.ونزل على رسول من البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر.

وهو مصدق لما بين يديه من كتب اللّه،يضم جناحيه على «الحق» الذي تضم جوانحها عليه.وقد نزله من يملك تتريل الكتب ..فهو مترل من الجهة التي لها «الحق» في وضع منهاج الحياة للبشر،وبناء تصوراتهم الاعتقادية،وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم في الكتاب الذي يترله على رسوله.

ثم تتضمن الآية في شطرها الثاني التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات اللّه،وتلوح لهم بعزة اللّه وقوته وشدة عذابه وانتقامه ..والذين كفروا بآيات اللّه هم الذين كذبوا بهذا الدين الواحد بإطلاقه ..وأهل الكتاب الذين انحرفوا عن كتاب اللّه الصحيح المترل إليهم من قبل،فقادهم هذا الانحراف إلى التكذيب بالكتاب الجديد – وهو فرقان واضح مبين – هم أول المعنيين هنا بصفة الكفر،وهم أول من يتوجه إليهم التهديد الرعيب بعذاب اللّه الشديد وانتقامه الأكيد [٦٠]..

وقال تعالى:«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيءٍ. إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ،ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» ..إنه مفرق الطريق بين الرسول – ﷺ – ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل ..سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها،شيعا وفرقا وقبائل وعشائر وبطونا. أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلا ومعسكرات ودولا.أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة إلى يوم الدين.

إن رسول اللّه – ﷺ – ليس من هؤلاء كلهم في شيء .. إن دينه هو الإسلام وشريعته هي التي في كتاب اللّه ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز .. وما يمكن ان يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من

[٦٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٦٢٥]

المذاهب والأوضاع والنظريات .. وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام .. إسلامي .. وشيء آخر ..!!!

إن الإسلام إسلام فحسب. والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب. والنظام الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الإسلامي إسلامي فحسب .. ورسول اللّه – ﷺ- ليس في شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان! إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى.وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمية فيه للّه وحده – وبالتعبير الآخر:ليست الألوهية والربوبية فيه للّه وحده – إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى .. قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهات أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما في الإسلام!

إن الدين عند اللّه الإسلام .. ورسول اللّه – ﷺ- ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام.وإن الدين عند اللّه هو المنهج والشرع .. ورسول اللّه – ﷺ- ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج اللّه منهجا،وغير شريعة اللّه شرعا ..الأمر هكذا جملة. وللنظرة الأولى. بدون دخول في التفصيلات! وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا،وبرئ منهم رسول اللّه – ﷺ- بحكم من اللّه تعالى.أمرهم بعد ذلك إلى اللّه وهو محاسبهم على ما كانوا يفعلون:«إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ،ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ»..[٦١]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٦١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٦٧٨]

إن حقيقة التوحيد تستلزم مصداقا لها في واقع الحياة البشرية،هو الذي يقـــرره الشـــطر الثاني من هذا الدرس.

ومن ثم يبدأ بإعادة تقرير الحقيقة الأولى ليرتب عليها آثارها الملازمة لها ..يبدأ بشـــهادة اللّه – سبحانه – «وأنه لا إله إلا هو» وشهادة الملائكة وأولي العلم بهذه الحقيقة.ويقرر معها صفة اللّه المتعلقة بالقوامة،وهي قيامه بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون.

وما دام اللّه متفردا بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهـــذه الحقيقـــة،هو الإقرار بالعبودية للّه وحده وتحكيمـــه في شـــأن العبيـــد كلـــه واستســـلام العبيـــد لإلههم،وطاعتهم للقيوم عليهم،واتباعهم لكتابه ولرسوله – ﷺ- .

ويضمن هذه الحقيقة قوله تعالى:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» ..فهو لا يقبل دينا سواه من أحد ..الإسلام الذي هو الاستسلام والطاعة والاتباع ..وإذن فليس الدين الـــذي يقبله اللّه من الناس هو مجرد تصور في العقل ولا مجرد تصديق في القلب.إنما هو القيـــام بحق هذا التصديق وذلك التصور ..هو تحكيم منهج اللّه في أمر العباد كله،وطاعتهم لما يحكم به،واتباعهم لرسوله في منهجه.

وهكذا ..يعجب من أهل الكتاب ويشهر بأمرهم ..إذ يدّعون أنهم على دين اللّـــه.ثم «يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ»!!!

مما ينقض دعوى التدين من الأساس.فلا دين يقبله اللّه إلا الإسلام.ولا إســـلام بغـــير استسلام للّه وطاعة لرسوله،واتباع لمنهجه،وتحكيم لكتابه في أمور الحياة ..

ويكشف عن علة هذا الإعراض – الذي هو التعبير الواقعي عن عدم الإيمان بدين اللّـــه – فإذا هي عدم الاعتقاد بجدية «القسط» في الجزاء يوم الحساب:«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا:لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ» ..معتمدين على أنهم أهل كتاب «وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» ..وهو غرور خادع.فما هم بأهل كتاب،وما هم بمؤمنين أصلا.وما هم

على دين اللّه إطلاقا وهم يدعون إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم،ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون.

وبهذا الجزم القاطع يقرر اللّه سبحانه في القرآن الكريم معنى الدين وحقيقة التدين ..فلا يقبل من العباد إلا صورة واحدة ناصعة قاطعة ..الدين:الإسلام.والإسلام:التحاكم إلى كتاب اللّه وطاعته واتباعه ..فمن لم يفعل فليس له دين،وليس مسلما وإن ادعى الإسلام وادعى أنه على دين اللّه.فدين اللّه يحدده ويقرره ويفسره اللّه،وليس خاضعا في تعريفه وتحديده لأهواء البشر ..كل يحدده أو يعرّفه كما يشاء! لا.بل إن الذي يتخذ الكفار أولياء - والكفار كما يقرر السياق هم الذين لا يقبلون التحاكم إلى كتاب اللّه - «فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيء » ..ولا علاقة له باللّه في شيء ولا صلة بينه وبين اللّه في شيء ..مجرد من يتولى وينصر أو يستنصر أولئك الكفار الذين يرفضون أن يتحاكموا إلى كتاب اللّه.ولو ادعوا أنهم على دين اللّه! ويشتد التحذير من هذه الولاية التي تذهب بالدين من أساسه.ويضيف السياق إلى التحذير التبصير.تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة القوى التي تعمل في هذا الوجود.فاللّه وحده هو السيد المتصرف،مالك الملك،يؤتي الملك من يشاء،وينزع الملك ممن يشاء،ويعز من يشاء ويذل من يشاء ..وهذا التصريف لأمر الناس ليس إلا طرفا من التصريف لأمر الكون كله.فهو كذلك يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ..وهذا هو القيام بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون،فلا داعي إذن لولاية غيره من العباد،مهما يكن لهم من قوة ومن مال وأولاد.

ويشي هذا التحذير المؤكد المكرر بما كان واقعا في الجماعة المسلمة يومذاك من عدم وضوح الأمر تماما ومن تشبث بعضهم بصلاته العائلية والقومية والاقتصادية مع المشركين في مكة ومع اليهود في المدينة،مما اقتضى هذا التفسير والتحذير.كما أنه يشي بطبيعة ميل النفس البشرية إلى التأثر بالقوى البشرية الظاهرة،وضرورة تذكيرها بحقيقة الأمر وحقيقة القوى،إلى جانب إيضاح أصل العقيدة ومقتضياتها في واقع الحياة.

ويختم الدرس بكلمة حاسمة قاطعة:إن الإسلام هو طاعة اللّه والرسول.وإن الطريق إلى اللّه هو طريق الاتباع للرسول.وليس مجرد الاعتقاد بالقلب،ولا الشهادة باللسان:«قُلْ:إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...» «قُلْ:أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» ..فإما طاعة واتباع يحبه اللّه،وإما كفر يكرهه اللّه ..وهذا هو مفرق الطريق الواضح المبين[٦٢] ..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٦٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٦٣٨]

قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إنْ تُطيعُوا فَريقاً منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانكُمْ كافرِينَ.وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفيكُمْ رَسُولُهُ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُديَ إِلى صراط مُسْتَقيمٍ» ..

لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشئ في الأرض طريقها على منهج اللّه وحده،متميزة متفردة ظاهرة.لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج اللّه لتؤدي في حياة البشر دورا خاصا لا ينهض به سواها.لقد وجدت لإقرار منهج اللّه في الأرض،وتحقيقه في صورة عملية،ذات معالم منظورة،تترجم فيها النصوص إلى حركات وأعمال،ومشاعر وأخلاق،وأوضاع وارتباطات.

وهي لا تحقق غاية وجودها،ولا تستقيم على طريقها،ولا تنشئ في الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة،إلا إذا تلقت من اللّه وحده،وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما تتلقاه من اللّه وحده.قيادة البشرية ..لا التلقي من أحد من البشر،ولا اتباع أحد من البشر،ولا طاعة أحد من البشر ..إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف ..

هذا ما يؤكده القرآن ويكرره في شتى المناسبات.وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة ..وهنا موضع من هذه المواضع،مناسبته هي المناظرة مع أهل الكتاب،ومواجهة كيدهم وتآمرهم على الجماعة المسلمة في المدينة ..ولكنه ليس محدودا بحدود هذه المناسبة،فهو التوجيه الدائم لهذه الأمة،في كل جيل من أجيالها.لأنه هو قاعدة حياتها،بل قاعدة وجودها.

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية.فكيف تتلقى إذن من الجاهلية التي جاءت لتبدلها ولتصلها باللّه،ولتقودها بمنهج اللّه؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما وجودها إذن،وليس لوجودها – في هذه الحال – من غاية؟!

لقد وجدت للقيادة:قيادة التصور الصحيح.والاعتقاد الصحيح.والشعور الصحيح.والخلق الصحيح.والنظام الصحيح.والتنظيم الصحيح ..وفي ظل هذه الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول،وأن تتفتح،وأن تتعرف إلى هذا الكون،وأن تعرف أسراره،وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته ..ولكن القيادة الأساسية التي تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله،وتوجهه لخير البشر لا لتهديدهم بالخراب والدمار،ولا لتسخيره في المآرب والشهوات ..ينبغي أن تكون للإيمان،وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة،مهتدية فيها بتوجيه اللّه.لا بتوجيه أحد من عبيد اللّه.

وهنا في هذا الدرس يحذر الأمة المسلمة من اتباع غيرها،ويبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها.ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب،وإلا فسيقودونها إلى الكفر لا مناص.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ.وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»

إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم،واقتباس مناهجهم وأوضاعهم،تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية،والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة.كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج اللّه لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعدا في طريق النماء والارتقاء.وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس،وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب.

هذا من جانب المسلمين.فأما من الجانب الآخر،فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها.فهذه العقيدة هي صخرة النجاة وخط الدفاع،ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة.وأعداؤه يعرفون هذا جيدا.يعرفونه قديما ويعرفونه حديثا،ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة،ومن قوة كذلك وعدة.وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين.وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم،يجندون من المنافقين

المتظاهرين بالإسلام،أو ممن ينتسبون - زورا - للإسلام،جنودا مجندة،لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار،ولتصد الناس عنها،ولتزين لهم مناهج غير منهجها،وأوضاعا غير أوضاعها،وقيادة غير قيادتها ..

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعا واتباعا،فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله في سبيل الغاية التي تؤرقهم،وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال.

ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ» ..

وما كان يفزع المسلم - حينذاك - ما يفزعه أن يرى نفسه منتكسا إلى الكفر بعد الإيمان.وراجعا إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة.وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطا يلهب الضمير،ويوقظه بشدة لصوت النذير ..ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير ..

فيا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم،وآيات اللّه تتلى عليهم،ورسوله فيهم.ودواعي الإيمان حاضرة،والدعوة إلى الإيمان قائمة،ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور:« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟» أجل.إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن في ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان ..وإذا كان رسول اللّه - ﷺ- قد استوفى أجله،واختار الرفيق الأعلى،فإن آيات اللّه باقية،وهدى رسوله - ﷺ- باق ..ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون،وطريق العصمة بين،ولواء العصمة مرفوع:«وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..

أجل.إنه الاعتصام باللّه يعتصم.واللّه سبحانه باق.وهو - سبحانه - الحي القيوم.

ولقد كان رسول اللّه - ﷺ- يتشدد مع أصحابه - رضوان اللّه عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج،بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة،كشؤون الزرع،وخطط القتال،وأمثالها من المسائل

العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي،ولا بالنظام الاجتماعي،ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان ..وفرق بين هذا وذلك بين.فمنهج الحياة شيء،والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر.والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج اللّه،هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة ..

روى أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتٍ،قَالَ:جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ،فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ أَلاَ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ ؟ قَالَ:فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ عَبْدُ اللهِ:فَقُلْتُ لَهُ:أَلاَ تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ:رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا،وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا،وَبِمُحَمَّدٍ ﷺرَسُولاً،قَالَ:فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ:وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ،وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ،إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ،وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ.[63]

وروى الحافظ أبو يعلى عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:لا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا،وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ،وَإِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ،وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي".[64]..

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-:« لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَىْءٍ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا »[65].

هؤلاء هم أهل الكتاب.وهذا هو هدى رسول اللّه – ﷺ- في التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعقيدة والتصور،أو بالشريعة والمنهج ..ولا ضير – وفق روح الإسلام وتوجيهه – من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة،علما وتطبيقا ..مع ربطها بالمنهج الإيماني:من ناحية الشعور بها،وكونها من تسخير اللّه للإنسان.ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية،وتوفير الأمن لها والرخاء.

---

[63] – مسند أحمد (عالم الكتب) [ص /٤٤٩](١٥٨٦٤) ١٥٩٥٨ حسن لغيره

[64] – مسند أبي يعلى الموصلي مشكل [٢ /٣٥٤](٢١٣٥) حسن

[65] – السنن الكبرى للبيهقي- المكنز [٢ /١٠](٢٣٣٠) حسن

وشكر اللّه على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية.شكره بالعبادة،وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية ..

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني،وفي تفسير الوجود،وغاية الوجود الإنساني.وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها،وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضا ..أما التلقي في شيء من هذا كله،فهو الذي تغير وجه رسول اللّه – ﷺ- لأيسر شيء منه.وهو الذي حذر اللّه الأمة المسلمة عاقبته.وهي الكفر الصراح ..

هذا هو توجيه اللّه – سبحانه – وهذا هو هدى رسوله – ﷺ- فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون،فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا – ﷺ- عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء،ومن الفلاسفة والمفكرين:الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن،الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين ..أي دين ..ثم نزعم – واللّه – أننا مسلمون! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح.فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ.حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون – مثلنا – أنهم مسلمون! إن الإسلام منهج.وهو منهج ذو خصائص متميزة:من ناحية التصور الاعتقادي،ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها.ومن ناحية القواعد الأخلاقية،التي تقوم عليها هذه الارتباطات،ولا تفارقها،سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها.فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية.ومما يتناقض مع طبيعة القيادة – كما أسلفنا – أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي ..

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء.ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغدا.بل الأمر اليوم ألزم،والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت

إليها ما تعاني.وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي،الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى.

لقد أجرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية.وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق – بالنسبة للماضي – وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة ..ولكن ما أثر هذا كله في حياتها؟ ما أثره في حياتها النفسية؟ هل وجدت السعادة؟ هل وجدت الطمأنينة؟ هل وجدت السلام؟ كلا! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف ..والأمراض العصبية والنفسية،والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق! ..

إنها لم تتقدم كذلك في تصور غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية ..وحين تقاس غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية في ذهن الرجل المتحضر المعاصر،إلى التصور الإسلامي في هذا الجانب،تبدو هذه الحضارة في غاية القزامة! بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه في هذا الوجود،وتسفل به،وتصغر من اهتماماته ومن أشواقه! ..والخواء يأكل قلب البشرية المكدود،والحيرة تهد روحها المتعبة ..

إنها لا تجد اللّه ..لقد أبعدتها عنه ملابسات نكدة.والعلم الذي كان من شأنه،لو سار تحت منهج اللّه،أن يجعل من كل انتصار للبشرية في ميدانه خطوة تقربها من اللّه،هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواطا بسبب انطماس روحها ونكستها ..إنها لا تجد النور الذي يكشف لها غاية وجودها الحقيقية فتنطلق إليها مستعينة بهذا العلم الذي منحه اللّه لها ووهبها الاستعداد له.ولا تجد المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون،وفطرتها وفطرة الكون،وقانونها وناموس الكون.ولا تجد النظام الذي ينسق بين طاقاتها وقواها،وآخرتها ودنياها،وأفرادها وجماعاتها،وواجباتها وحقوقها ..تنسيقا طبيعيا شاملا مريحا ..

وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج اللّه الهادي.وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج «رجعية!» ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات

التاريخ ..وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة،كما يقود خطاها إلى النمو والرقي ..ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو.إننا نرى واقع البشرية النكد،ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه.ونرى.نرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق،والمرتقى الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان،ولكل معنى من معاني الإنسان! وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد،ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ..كما يظل المنهج نظيفا سليما.إلى أن يأذن اللّه بقيادته للبشرية مرة أخرى.واللّه أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر،الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك! ..وهذا ما أراد اللّه سبحانه أن يلقنه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم وما حرص رسول اللّه – ﷺ- أن يعلمها إياه في تعليمه القويم ..[٦٦]

وقال تعالى:«قُلْ:أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟ قُلِ اللَّهُ.شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ،وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ،أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى ؟ قُلْ:لا أَشْهَدُ،قُلْ:إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ،وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» ..

إن تتابع المقاطع والإيقاعات في الآية الواحدة عجيب وإن هذا التتابع ليرسم الموقف لحظة لحظة،ومشهدا مشهدا،ويكاد ينطق بملامح الوجوه فيه وخلجات الصدور ..

فها هو ذا رسول اللّه – ﷺ- يؤمر من ربه هذا الأمر ..ثم ها هو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون اللّه أولياء يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع اللّه ويدعون رسول اللّه – ﷺ- أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به! كأن ذلك يمكن أن يكون! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه والذي لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان،من أنه يمكن

[٦٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٧٠٣]

أن يكون الإنسان مسلما للّه بينما هو يتلقى من غير اللّه في شؤون الحياة وبينمـــا هـــو يخضع لغير اللّه ويستنصر بغير اللّه،ويتولى غير اللّه!

ها هو ذا رسول اللّه – ﷺ- يواجه هؤلاء المشركين،ليبين لهم مفرق الطريق بين دينـــه ودينهم،وبين توحيده وشركهم،وبين إسلامه وجاهليتهم.وليقرر لهم:أنه لا موضع للقاء بينه وبينهم،إلا أن يتخلصوا هم من دينهم ويدخلوا في دينه.وأنه لا وجه للمصـــالحة في هذا الأمر لأنه يفترق معهم في أول الطريق! وها هو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلني المفتوح المكشوف:«قُلْ:أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟» ..أيّ شاهد في هذا الوجود كله هـــو أكبر شهادة؟ أي شاهد تعلو شهادته كل شهادة؟ أي شاهد تحسم شهادته في القضـــية فلا يبقى بعد شهادته شهادة؟

وللتعميم المطلق،حتى لا يبقى في الوجود كله «شيء » لا يستقصى وزنـــه في مقـــام الشهادة:يكون السؤال:«أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟»».

وكما يؤمر رسول اللّه – ﷺ- بالسؤال،فهو يؤمر كذلك بالجواب.ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم.ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع:«قُلِ:اللَّـــهُ» ..نعم! فاللّه – سبحانه وتعالى – هو أكبر شهادة ..هو الذي يقص الحق وهـــو خـــير الفاصلين ..هو الذي لا شهادة بعد شهادته،ولا قول بعد قوله.فإذا قال فقـــد انتـــهى القول،وقد قضي الأمر.

فإذا أعلن هذه الحقيقة:حقيقة أن اللّه سبحانه هو أكبر شهادة،أعلن لهم أنه – ســـبحانه – هو الشهيد بينه وبينهم في القضية:«شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» ..على تقدير:هو شهيد بيني وبينكم،فهذا التقطيع في العبارة هو الأنسب في جو المشهد:وهو أولى من الوصل علـــى تقدير:«قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

فإذا تقرر المبدأ:مبدأ تحكيم اللّه ســـبحانه في القضـــية،أعلن إلـــيهم أن شـــهادة اللّـــه سبحانه،تضمنها هذا القرآن،الذي أوحاه إليه لينذرهم به وينذر به كل مـــن يبلغـــه في حياته ﷺ- أو من بعد.

فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم لأنه يتضمن شهادة اللّــه في هــذه القضــية الأساسية التي تقوم عليها الدنيا والآخرة،ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنســاني ضمنا:«وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» ..فكل من بلغه هذا القرآن من الناس،بلغة يفهمها،ويحصل منها محتواه،فقد قامت عليه الحجة به،وبلغه الإنــذار،وحق عليه العذاب،إن كذب بعد البلاغ ..(فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمــه لفحواه،فلا تقوم عليه الحجة به ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذه الشهادة ..هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته) ..

فإذا أعلن إليهم أن شهادة اللّه – سبحانه – متضمنة في هذا القرآن،أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم،المختلفة في أساســها عــن شهادة اللّه سبحانه.وعالنهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها وأنه يعلن غيرها ويقــرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة وأنه يفاصلهم على هذا عنــد مفرق الطريق وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد:«أَإِنَّكُمْ لَتَشْــهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى ؟ قُلْ:لا أَشْهَدُ،قُلْ:إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ،وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْــرِكُونَ» ..والنصوص القرآنية بمقاطعها هذه،وبإيقاعاتها هذه،تهز القلوب بمــا لا يملــك البيــان البشري أن يفعل.فلا أريد أن أوقف تدفقها وانسكابها في القلب بأي تعليق[67].

وقال تعالى:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْــرَ كُــلِّ جَبَّــارٍ عَنِيدٍ.وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ.أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ.أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

«وَتِلْكَ عادٌ» ..بهذا البعد.وقد كان ذكرهم منذ لحظة في الســياق،وكان مصــرعهم معروضا على الأنظار ..ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار ..

«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ» ..وهم عصوا رسولا واحدا.ولكــن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصــى الرسل جميعا.ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية

---

٦٧ – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٤٦٨]

أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها.فهم جحدوا آيات،وهم عصوا رسلا.فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة! «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

أمر كل متسلط عليهم،معاند لا يسلم بحق،وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين،ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم.ولا يكونوا ذيولا فيهدروا آدميتهم.

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية اللّه وحده لهم والدينونة للّه وحده من دون العباد ..

كانت هي قضية الحاكمية والاتباع ..كانت هي قضية:من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره؟ يتجلى هذا في قول اللّه تعالى:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة أمر الرسل - لأنه أمر اللّه - ومعصية أمر الجبارين.وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان ..في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير اللّه والتمردعلى سلطان الأرباب الطغاة وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية،واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ..لقد خلق اللّه الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه،ولا يتزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم.فهذا مناط تكريمهم.

فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند اللّه ولا نجاة.وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة،وتدعي الإنسانية،وهي تدين لغير اللّه من عباده.والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين.فهم كثرة والمتجبرون قلة.ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال.

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد ..هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة:«وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال:«أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» ..

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد.كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا:..«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ»!!! [٦٨]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٦٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٢٨]

هذه السورة(سورة النساء) تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة،وإنشاء المجتمع الإسلامي وفي حماية تلك الجماعة،وصيانة هذا المجتمع.وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد،الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه،والذي نشأ ابتداء من خلال المنهج الرباني.وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني ..تفاعله معه وهو يقود خطاه في المرتقى الصاعد،من السفح الهابط،إلى القمة السامقة ..خطوة خطوة،ومرحلة مرحلة ..بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب وبين أشواك الطريق التي لا تخلو منها خطوة واحدة وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك! وكما رأينا من قبل – في سورة البقرة وسورة آل عمران – مواجهة القرآن لكل الملابسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة في المدينة وبيان طبيعة المنهج الرباني الذي تنشأ الجماعة على أساسه وتقرير الحقائق الأساسية التي يقوم عليها التصور الإسلامي،والقيم والموازين التي تنبثق من هذا التصور وإبراز التكاليف التي يقتضيها النهوض بهذه الأمانة في الأرض وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التي تقوم عليه في الأرض،وتحذيرها من وسائل أولئك الأعداء ودسائسهم وبيان ما في عقائدهم من زيف وانحراف،وما في وسائلهم من خسة والتواء ...إلخ ...فكذلك نرى القرآن – في هذه السورة – يواجه جملة هذه الملابسات والحقائق ..

إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة،وملامحها المميزة،ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعا ..ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها،تبرز فيه ملامحها،وتتميز به شخصيتها.كالكائن الحي المميز السمات والملامح،وهو – مع هذا – واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السورة – ونكاد نحس – أنها كائن حي،يستهدف غرضا معينا،ويجهد له،ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل ..والفقرات والآيات والكلمات في

السورة،هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد! ومن ثم نستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي،المعروف السمات،المميز الملامح،صاحب القصد والوجهة،وصاحب الحياة والحركة،وصاحب الحس والشعور! إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي - الذي منه التقطت المجموعة المسلمة - ونبذ رواسبه وفي تكييف ملامح المجتمع المسلم،وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه،وجلاء شخصيته الخاصة.

كما تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة،وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة،والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله - من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتميعين فيه - من ضعاف الإيمان والمنافقين - وكشف وسائلهم وحبلهم ومكايدهم،وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم.مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده،وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط.

وفي الوقت ذاته نلمح رواسب الجاهلية،وهي تتصارع مع المنهج الجديد،والقيم الجديدة،والاعتبار ات الجديدة.ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملامح الجديدة الوضيئة الجميلة.ونشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان.وهي معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة،عن المعركة التي يخوضها في الميدان الآخر،مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه! وحين ندقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء،والتي تعالج هذه السورة جوانب منها - كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى - قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب،حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التي رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها ..ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر ..ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التي انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد،بالجماعة المسلمة.وقد التقطها من ذلك السفح الهابط،الذي تمثله تلك الرواسب،فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة ..القمة التي لم

ترتق إليها البشرية قط،إلا على حداء ذلك المنهج العجيب الفريد.المنهج الـذي يملـك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح،فيرتقي بها إلى تلـك القمة،رويـدا رويدا،في يسر ورفق،وفي ثبات وصبر،وفي خطو متناسق موزون! والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية،يتجلى له جانب من حكمـة اللّـه في اختيـار «الأميين» في الجزيرة العربية،في ذلك الحين،لهذه الرسالة العظيمة ..حيث يمثلون سـفح الجاهلية الكاملة،بكل مقوماتها.الاعتقادية والتصـورية،والعقلية والفكرية،والأخلاقيـة والاجتماعية ،والاقتصادية والسياسية،ليعرف فيهم أثر هذا المنهج،وليتبين فيهم كيـف تتم المعجزة الخارقة،التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر،في كل ما عرفت الأرض مـن مناهج،وليرتسم فيهم خط هذا المنهج،بكل مراحله – من السفح إلى القمة – وبكـل ظواهره،وبكل تجاربه،ولترى البشرية – في عمرها كله – أين تجد المنهج الذي يأخـذ بيدها إلى القمة السامقة،أيا كان موقفها في المرتقى الصاعد.سواء كانت في درجة مـن درجاته،أم كانت في سفحه الذي التقط منه «الأميين»! إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته،لأنه يتعامل مع «الإنسان».وللإنسان كينونة ثابتة،فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى.وكل التحورات والتطورات التي تلابس حياته لا تغير من طبيعته،ولا تبدل مـن كينونته،ولا تحوّله خلقا آخر.إنما هي تغيرات وتطورات سطحية،كالأمواج في الخضم،لا تغير من طبيعته المائية،بل لا تؤثر في تياراته التحتية الدائمة،المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة! ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة،تلك الكينونة البشرية الثابتة.ولأنها مـن صـنع المصدر الذي صنع الإنسان،فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة،وأطوارها المتجددة،بنفس المرونة التي يواجه بها «الإنسان» ظروف الحياة المتغيرة،وأطوارها المتجددة،وهو محـافظ على مقوماته الأساسية ..مقوّمات الإنسان ..

وفي «الإنسان» هذا الاستعداد،وهذه المرونة،وإلا ما استطاع أن يواجه ظروف الحيـاة وأطوارها،وهي ليست ثابتة من حوله.وفي المنهج الرباني الموضوع لهذا الإنسـان،ذات الخصائص،بحكم أنه صادر من المصدر الذي صدر منـه الإنسـان،ومودع خصائصـه ذاتها،ومعدّ للعمل معه إلى آخر الزمان.

وهكذا يستطيع ذلك المنهج،وتستطيع هذه النصوص،أن تلتقط الفرد الإنساني،وأن تلتقط المجموعة الإنسانية،من أي مستوى،ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد،فينتهي به وبها إلى القمة السامقة ..

إنه لا يرده ولا يردها أبدا إلى الوراء،ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل في المرتقى.كما أنه لا يضيق به ولا بها،ولا يعجز عن رفعه ورفعها،أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق! المجتمع البدائي المتخلف كالمجتمع العربي في الجاهلية القديمة،والمجتمع الصناعي المتحضر،كالمجتمع الأوربي والأمريكي في الجاهلية الحديثة ..كلاهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانه،ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان،فيرقى به في المرتقى الصاعد،إلى القمة السامقة،التي حققها الإسلام،في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني ..

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ.إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر.

وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء.ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم،يأخذ البشر عن بشر مثلهم:التصورات والمبادئ،والموازين والقيم،والشرائع والقوانين،والأوضاع والتقاليد.

وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها.الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر،حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون اللّه.

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد،الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر.لأنهم يتلقون التصورات والمبادئ،والموازين والقيم،والشرائع والقوانين،والأوضاع والتقاليد،من يد اللّه – سبحانه – فإذا أحنوا رءوسهم فإنما يحنونها للّه وحده،وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون اللّه وحده،وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون للّه وحده.ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد،حين يصبحون كلهم عبيدا للّه بلا شريك.

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية – في كل صورة من صورها – وبين الإسلام.وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذي لا تبقى معه ريبة لمستريب.

ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم،كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي،وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة،وإما إبطال حالة قائمة ..وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة:«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ..ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا.وفي هذا تمكن المعجزة.فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها،هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية،في أي طور من أطوارها.والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية،هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة – أيا كان موقفها على الدرج الصاعد – ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة،التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى،يوم التقطها من ذلك السفح السحيق! ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي،من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها،وأن يثبتها في المجتمع الجديد ..

فماذا نحن واجدون – في هذه السورة – من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راسبة في الجماعة المسلمة،منذ أن التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية؟ وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتثبيتها! إننا نجد مجتمعا تؤكل فيه حقوق الأيتام – وبخاصة اليتمات – في حجور الأهل والأولياء والأوصياء،ويستبدل الخبيث منها بالطيب،ويعمل فيها بالإسراف والطمع،خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال،ليتخذهن الأولياء زوجات،طمعا في مالهن لا رغبة فيهن! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته! ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقي من الميراث.إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء،القادرون على حمل السلاح ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات.

وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات،هو الذي يحتجزن من أجله،ويحبسن على الأطفال من الذكور أو على الشيوخ من الأولياء.كي لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب في الغرباء! ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم،ويعاملها بالعسف والجور.في كل أدوار حياتها.يحرمها الميراث - كما قلنا - أو يحبسها لما ينالها منع،ويورّثها للرجل كما يورثه المتاع! فإذا مات زوجها جاء وليه،فألقي عليها ثوبه،فيعرف أنها محجوزة له.إن شاء نكحها بغير مهر،وإن شاء زوجها وأخذ مهرها! ويعضلها زوجها إذا طلقها،فيدعها لا هي زوجة،ولا هي مطلقة،حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها! ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه،علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء،واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب،فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية والعائلية.حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة.

ونجد مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية.وتغتصب فيه الحقوق.وتجحد فيه الأمانات.

وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح.ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء.كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس،اجتلابا للمفاخر،ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء! وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية - وهي التي تصدت لها هذه السورة - ووراءها ما صورته السور الأخرى،وما تحفل به أخبار هذه الجاهلية في العرب،وفيمن حولهم من الأمم» [٦٩]..

إنه لم يكن - قطعا - مجتمعا بلا فضائل.فقد كانت له فضائله،التي هيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى.

ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا،ووجهها الوجهة البناءة.وكانت - لولا الإسلام - مضيعة تحت ركام هذه الرذائل،مفرقة غير متجمعة،وضائعة غير

[٦٩] - يراجع ما سبق تفصيله من ملامح الجاهلية العربية في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالى:«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ...» ص ٥٠٨

موجهة.وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة،لولا هذا المنهج،الذي جعل يمحو ملامح الجاهلية الشائهة،وينشئ أو يثبت ملامح الإسلام الوضيئة،ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة،شأنها في هذا شأن سائر أمم الجاهلية التي عاصرتها،والتي اندثرت كلها،لأنها لم تدركها رسالة ولم تنشئها عقيدة! من تلك الجاهلية،التي هذه بعض ملامحها،التقط الإسلام المجموعة التي قسم اللّه لها الخير،وقدّر أن يسلمها قيادة البشر،فكون منها الجماعة المسلمة،وأنشأ بها المجتمع المسلم.ذلك المجتمع الذي بلغ إلى القمة التي لم تبلغها البشرية قط،والتي ما تزال أملا للبشرية،يمكن أن تحاوله،حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق.

وفي هذه السورة نجد بعض الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم،بعد تطهيره من رواسب الجاهلية،وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية،التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي .

نجد في مستهلها تقريرا لحقيقة الربوبية ووحدانيتها،ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها،ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة،واتصالها بوشيجة الرحم،مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري،واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها،وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة،ذات الخالق الواحد،وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة وتنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم،والمجتمع الإنساني كله،على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية:«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ،وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها،وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً،وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ.إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً» ..وهذه الحقيقة الكبيرة التي تتضمنها آية الافتتاح تمثل قاعدة أصيلة في التصور الإسلامي،تقوم عليها الحياة الجماعية.نرجو أن نعرض لها بالتفصيل في مكانها من سياق السورة.

ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلي للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة:في حماية اليتامى نجد التوجيه الموحي،والتحذير المخيف،والتشريع المحدد الأصول:«وَآتُوا

الْيَتامى أَمْوالَهُمْ،وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبيراً (آية ٢) ..

وَابْتَلُوا الْيَتامى،حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً،وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا.وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ،وَمَنْ كانَ فَقيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ.فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ.وَكَفى بِاللَّهِ حَسيباً» (آية ٦) ..«وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ.فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ،وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَديداً.إِنَّ الَّذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ ناراً،وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً» (٩ – ١٠) ..

وفي حماية الإناث خاصة – يتيمات صغيرات ونساء مستضعفات – وحفظ حقهن جميعا في الميراث،وفي الكسب،وفي حقهن في أنفسهن،واستنقاذهن من عسف الجاهلية،وتقاليدها الظالمة المهينة ..نجد أمثال هذه التوجيهات والتشريعات المنوعة الكثيرة:«وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ،مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ،فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً،أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ،ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا[٧٠].وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً،فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً» ..(٣ – ٤) ..«لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ،وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ.مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً» (آية ٧) ..«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً،وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ – إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ – وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً،وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ،وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً.أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ،وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً؟» ..(١٩ – ٢١) ..«وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ.

---

[٧٠] – تعولوا:تجوروا.

قُلِ:اللَّهُ يُفْتيكُمْ فيهِنَّ،وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ،وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ.وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ،وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ.وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً» ..(آية ١٢٧) ..

وفي تنظيم الأسرة،وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة،وتوفير الحماية لها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية ..ترد مثل هذه التوجيهات والتوجيهات والتنظيمات - بالإضافة إلى ما ورد منها في ثنايا الحديث عن اليتيمات والمطلقات -:«وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ.إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلًا.حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ،وَبَناتُكُمْ،وَأَخَواتُكُمْ،وَعَمَّاتُكُمْ،وَخالاتُكُمْ،وَبَناتُ الْأَخِ،وَبَناتُ الْأُخْتِ،وَأُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ،وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ،وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ،وَرَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ - فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ - وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ،وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ - إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً.وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ - إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ - كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.وَأُحِلَّ لَكُمْ - ما وَراءَ ذلِكُمْ - أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ.فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً،وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ.إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» (٢٢ - ٢٤) ..«الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ،بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ،وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ.فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ،وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ،وَاضْرِبُوهُنَّ.فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا،إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً.وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها،إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما،إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً» ..(٣٤ - ٣٥) ..«وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً،وَالصُّلْحُ خَيْرٌ،وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ،وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

وَلَنْ تَسْتَطيعُوا أَنْ تَعْدلُوا بَيْنَ النِّساء وَلَوْ حَرَصْتُمْ،فَلا تَميلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَة وَإِنْ تُصْلحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً.وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَته،وَكانَ اللَّهُ واسعاً حَكيماً» ..(١٢٨ - ١٣٠) ..

وفي تنظيم علاقات الميراث والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة وبين الموالي والأولياء الذين كانوا متعاقدين قبل نزول تشريعات النسب،وإبطال التبني،ترد هذه المبادئ الجامعة وهذه التشريعات المحددة،ذات الأهداف الاجتماعية البعيدة:«للرِّجال نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوالدانِ وَالْأَقْرَبُونَ،وَللنِّساء نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوالدان وَالْأَقْرَبُونَ،ممَّا قَلَّ منْهُ أَوْ كَثُرَ نَصيباً مَفْرُوضاً (آية ٧) ..«يُوصيكُمُ اللَّهُ في أَوْلادكُمْ:للذَّكَرِ مثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ.فَإِنْ كُنَّ نساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ،وَإِنْ كانَتْ واحدَةً فَلَها النِّصْفُ.وَلأَبَوَيْه لكُلِّ واحد منْهُمَا السُّدُسُ ممَّا تَرَكَ - إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ - فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فَلأُمِّه الثُّلُثُ.فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّه السُّدُسُ - منْ بَعْد وَصيَّة يُوصي بها أَوْ دَيْنٍ - آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً.فَريضَةً منَ اللَّه،إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً.وَلَكُمْ نصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ - إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ - فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ ممَّا تَرَكْنَ - منْ بَعْد وَصيَّة يُوصينَ بها أَوْ دَيْنٍ - وَلَهُنَّ الرُّبُعُ ممَّا تَرَكْتُمْ - إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ - فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ ممَّا تَرَكْتُمْ - منْ بَعْد وَصيَّة تُوصُونَ بها أَوْ دَيْنٍ - وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً،أَو امْرَأَةٌ،وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ،فَلكُلِّ واحد منْهُمَا السُّدُسُ.فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ منْ ذلكَ فَهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلُث - منْ بَعْد وَصيَّة يُوصى بها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضارٍّ - وَصيَّةً منَ اللَّه وَاللَّهُ عَليمٌ حَليمٌ» ..(١١ - ١٢) ..«يَسْتَفْتُونَكَ.قُلِ اللَّهُ يُفْتيكُمْ في الْكَلالَة:إِن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ،وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نصْفُ ما تَرَكَ.وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ.فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثان ممَّا تَرَكَ.وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رجالًا وَنساءً فَللذَّكَرِ مثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ.يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضلُّوا،وَاللَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ» ..(آية ١٧٦) ..«وَلكُلٍّ جَعَلْنا مَواليَ ممَّا تَرَكَ الْوالدانِ وَالْأَقْرَبُونَ،وَالَّذينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصيبَهُمْ.إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيداً» ..(آية ٣٣) ..

وفي حماية المجتمع من الفاحشة،وتوفير أسباب الإحصان والوقاية ..نجد مثل هذه التنظيمات:«وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ،أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا.وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما،فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما،إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً» ..(١٥ – ١٦) ..«وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ،بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ.فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ،وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَلا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ.فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ.ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ.وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ،وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ،وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ،وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ..(٢٥ – ٢٦) ..

وفي تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله وإقامتها على التكافل والتراحم والتناصح،والأمانة،والعدل،والسماحة والمودة،والإحسان ..ترد توجيهات وتشريعات شتى – إلى جانب ما ذكرنا من قبل – نذكر منها هنا على سبيل المثال بضعة نماذج ولا نستقصيها فستأتي كلها في مكانها من سياق السورة:«وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً،وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» (آية ٥) .. « وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» ..(آية ٨) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ – إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ – وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ،إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً.وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً،وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» ..(٢٩ – ٣٠) ..«وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ.لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ.وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ.إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» ..(آية ٣٢) ..«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً،وَبِذِي الْقُرْبى،وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ،وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى،وَالْجارِ الْجُنُبِ،وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ،وَابْنِ

السَّبِيلِ،وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً.الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ،وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ،وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً،وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ،وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً» ..(٣٦ – ٣٨) ..«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها،وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ.إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ.إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً» ..(آية ٥٨) ..«مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً.وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً» ..(٨٥ – ٨٦) ..«وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ..»

«وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها،وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ،وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً» ..(٩٢ –٩٣) ..«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ،شُهَداءَ لِلَّهِ،وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ.إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما.فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا.وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» ..(آية ١٣٥) ..«لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ.وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً.إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ،فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً» ..(١٤٨ – ١٤٩) ..

إلى جانب ذلك الهدف الكبير في تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والتسامح،والأمانة والعدل والمودة والطهارة ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة ..نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا في حياة المجتمع المسلم – إن لم يكن هو الأساس الذي يقوم عليه الهدف الأول – ذلك هو تحديد معنى الدين،وحد الإيمان،وشرط الإسلام،وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين،وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام.

إن الدين هو النظام الذي قرره اللّه للحياة البشرية بجملتها،والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها واللّه وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك.والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع،ومنها وحدها يكون التلقي،ولها وحدها يكون الاستسلام ..فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة – كما له عقيدة خاصة وتصور خاص – قيادة ربانية متمثلة في رسول اللّه – ﷺ– وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة اللّه ومنهجه.وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه صفة الإسلام وتجعل منه «مجتمعا مسلما».وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون «مسلما» بحال.وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى اللّه والرسول،ورد الأمر كله إلى اللّه،والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم.

وتبلغ نصوص السورة في بيان هذه الحقيقة،وتقرير هذا الأصل،مبلغا حاسما جازما،لا سبيل للجدال فيه،أو الاحتيال عليه،أو تمويهه وتلبيسه،لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال! وتقرير هذا المبدأ الأساسي يتمثل في نصوص كثيرة كثرة واضحة في السورة.وسيجيء استعراضها التفصيلي في مكانها من السياق.فنكتفي هنا بذكر بعضها إجمالا:يتمثل على وجه الإجمال في آية الافتتاح في السورة:«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ..» ..كما يتمثل في مثل هذه الآيات:«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ...» (آية ٣٦) ..«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» ..(آية ٤٨) ..

ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد في مثل قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ،فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ،إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ – وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ – وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً.وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً» ..(٥٩ – ٦١) ..«وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» ..(آية ٦٤) ..«فَلا

وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» ..(آية ٦٥) ..«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ،وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً» ..(آية ٨٠) ..«وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ - مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى - وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ،نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى،وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً» ..(آية ١١٥) ..

وهكذا يتحدد معنى الدين،وحد الإيمان،وشرط الإسلام،ونظام المجتمع المسلم،ومنهجه في الحياة.

وهكذا لا يعود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات،ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات ..إنما هو إلى جانب هذا وذلك،وقبل هذا وذلك.نظام يحكم،ومنهج يتحكم،وقيادة تطاع،ووضع يستند إلى نظام معين،ومنهج معين،وقيادة معينة.وبغير هذا كله لا يكون إيمان،ولا يكون إسلام،ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام.

وتترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسي توجيهات كثيرة في السورة.كلها تفريعات على هذا الأصل الكبير:

١ - يترتب عليه أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها في المجتمع - شأنها شأن الشعائر التعبدية - مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير،مستندة إلى معنى الدين،وحد الإيمان،وشرط الإسلام،على هذا النحو الذي قررته تلك النماذج التي أسلفنا.فهي ليست مجرد تنظيمات وتشريعات.إنما هي مقتضى الإيمان باللّه والاعتراف بألوهيته،وإفراده بالألوهية،والتلقي من القيادة التي يحددها ..ومن ثم نرى كل التشريعات والتنظيمات التي أشرنا إليها تستند إلى هذه الجهة،وينص في أعقابها نصا على هذه الحقيقة:آية الافتتاح التي تقرر وحدة البشرية،وتدعو الناس إلى رعاية وشيجة الرحم،وتعد مقدمة لسائر التنظيمات التي تلتها في السورة ..تبدأ بدعوة الناس إلى تقوى ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة:«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ» ..وتنتهي إلى تقواه،وتحذيرهم من رقابته:«إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً»

..والآيات التي تحض على رعاية أموال اليتامى،وتبين طريقة التصرف في أموالهم تنتهي بالتذكير باللّه وحسابه:«وَكَفى بِاللّه حَسِيباً» ..وتوزيع أنصبة الميراث في الأسرة يجيء وصية من اللّه:«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ...» «فَرِيضَةً مِنَ اللَّه» ..وتنتهي تشريعات الإرث بهذا التعقيب:«تِلْكَ حُدُودُ اللَّه،وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ» ..

وفي تشريعات الأسرة وتنظيم المهور والطلاق وما إليها ترد مثل هذه التعقيبات:«وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً» ..«وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ..كِتابَ اللَّه عَلَيْكُمْ ..» ..«يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ،وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ،وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ..«فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا.إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً» ..

«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» ..تسبق في الآية الوصية بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين ..إلخ وهكذا ترتبط سائر التنظيمات والتشريعات باللّه،وتستمد من شريعته،وترجع الأمور كلها إلى هذه القيادة التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع.

٢ - ويترتب على إقرار ذلك الأصل الكبير أن يكون ولاء المؤمنين لقيادتهم ولجماعتهم المؤمنة.فلا يتولوا أحدا لا يؤمن إيمانهم،ولا يتبع منهجهم،ولا يخضع لنظامهم،ولا يتلقى من قيادتهم.كائنة ما كانت العلاقة التي تربطهم بهذا الأحد.علاقة قرابة.أو جنس.أو أرض أو مصلحة.وإلا فهو الشرك أو النفاق،وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال:«وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ - مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى - وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى،وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ،وَساءَتْ مَصِيراً.إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ،وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ،وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّه فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً» ..(١١٥ - ١١٦) ..«بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا)..[آية ١٣٩] ..{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) } [النساء:١٤٤ – ١٤٦]..

٣ – ويترتب عليه وجوب هجرة المسلمين من دار الحرب – وهي كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام ولا تدين للقيادة السملمة – ليلحقوا بالجماعة المسلمة متى قامت في الأرض وأصبح لها قيادة وسلطان – وليستظلوا برايه القيادة المسلمة ولا يخضعوا لراية الكفر – وهي كل راية غير راية الإسلام – وإلا فهو النفاق أو الكفر ؛وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال:{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)} [النساء:٨٨،٨٩]..{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) } [النساء:٩٧ – ١٠٠]..

٤ – ويترتب عليه أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين،الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر،وضمهم إلى الجماعة المسلمة في دار الإسلام،كي لا يفتنوا عن دينهم،ولا يستظلوا براية غير راية الإسلام،ولا يخضعوا لنظام غير نظامه .ثم لكي يتمتعوا بالنظام الإسلامي الرفيع،وبالحياة في المجتمع الإسلامي النظيف .وهو حق كل مسلم،والحرمان منه حرمان من أكبر نعم الله في الأرض،ومن

أفضل طيبات الحياة:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)} [النساء:٧٥]..

ويستتبع هذا الأمر حملة ضخمة للحض على الجهاد بالنفس والمال،والتنديد بالمعوقين والمبطئين والقاعدين .وهي حملة تستغرق قطاعا كبيرا من السورة،يرتفع عندها نبض السورة الهادئة الأنفاس ! ويشتد إيقاعها،وتحمى لذعاتها في التوجيه والتنديد ![71]

وقال تعالى:«رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» ..لماذا؟

«رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ» ..فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك،وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجدب والحرمان.«فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» ..وفي التعبير رقة ورفرفة،تصور القلوب رفافة مجنحة،وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب.إنه تعبير نديّ يندّي الجدب برقة القلوب ..«وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ» ..عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج ..لماذا؟ أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا؟ نعم! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور:«لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» ..وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام ..إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة للّه.ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض ..إنه شكر اللّه المنعم الوهاب.

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم ..فلا صلاة قائمة للّه،ولا شكر بعد استجابة الدعاء،وهويّ القلوب والثمرات![72]

وقال تعالى:{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [هود:١٧]..

---

[71] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٨٧١]

[72] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٥٥]

وما شك رسول اللّه – ﷺ- فيما أوحي إليه،ولا امترى – وهو على بينة من ربه – ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشي بما كان يخالج نفس رسول اللّه – ﷺ- من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين،تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت.وكذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب يحتاج إلى برد اليقين يتنزل عليهم من ربهم الرحيم.

وما أحوج طلائع البعث الإسلامي وهي تواجه مثل تلك الحال في كل مكان ويتآزر عليها الصد والإعراض،والسخرية والاستهزاء،والتعذيب والإيذاء والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية وتتضافر عليها كل قوى الجاهلية في الأرض من محلية وعالمية وتسلط عليها أبشع ألوان الحرب وأنكدها ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها هذه الحرب ومن يطاردونها هذه المطاردة ...

ما أحوج هذه الطلائع إلى تدبر هذه الآية بكل فقرة فيها،وبكل إشارة،وبكل لمحة فيها وكل إيماءة! ما أحوجها إلى اليقين الذي يحمله التوكيد الرباني الحكيم:«فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ،إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» ..

وما أحوجها إلى أن تجد في نفوسها ظلالا لما كان يجده الرسل الكرام صلوات اللّه عليهم وسلامه من بينة من ربهم،ومن رحمة لا يخطئونها ولا يشكون فيها لحظة ومن التزام بالمضي في الطريق مهما تكن عقبات الطريق:«قالَ:يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ» ..

إن هذه الطلائع تتصدى لمثل ما كان يتصدى له ذلك الرهط الكريم من الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم جميعا – وتجد من الجاهلية مثلما كانوا يجدون ..لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء رسول اللّه – ﷺ- إلى البشرية كلها بهذا الدين فواجهته بجاهليتها التي صارت إليها بعد الإسلام الذي جاءها به من قبل إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى،وسائر النبيين!

إنما الجاهلية التي تعترف بوجود اللّه - سبحانه - أو لا تعترف.ولكنها تقيم للناس أربابا في الأرض يحكمونهم بغير ما أنزل اللّه ويشرعون لهم من القيم والتقاليد والأوضاع ما يجعل دينونتهم لهذه الأرباب لا للّه ..ثم هي الدعوة الإسلامية للناس كافة أن ينحوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومجتمعاتهم وقيمهم وشرائعهم،وأن يعودوا إلى اللّه وحده يتخذونه ربا لا أرباب معه ويدينون له وحده.فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه،ولا يطيعون إلا أمره ونهيه ..ثم هي بعد هذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد.وبين الجاهلية والإسلام.وبين طلائع البعث الإسلامي وهذه الطواغيت في أرجاء الأرض والأصنام! ومن ثم لا بد لهذه الطلائع من أن تجد نفسها وموقفها كله في هذا القرآن في مثل هذا الأوان ..وهذا بعض ما نعنيه حين نقول:«إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة.ويواجه مثل تلك المواقف التي تتزل فيها ليواجهها ويوجهها،وإن الذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئا في هذه القعدة الباردة الساكنة،بعيدا عن المعركة،وبعيدا عن الحركة ...»[٧٣].

وقال تعالى:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ.أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ.أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

«وَتِلْكَ عادٌ» ..بهذا البعد.وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق،وكان مصرعهم معروضا على الأنظار ..ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار ..

«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ» ..وهم عصوا رسولا واحدا.ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعا.ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية

---

[٧٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٩١]

أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها.فهم جحدوا آيات،وهم عصوا رسلا.فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة! «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

أمر كل متسلط عليهم،معاند لا يسلم بحق،وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين،ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم.ولا يكونوا ذيولا فيهدروا آدميتهم.

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية اللّه وحده لهم والدينونة للّه وحده من دون العباد ..

كانت هي قضية الحاكمية والاتباع ..كانت هي قضية:من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره؟ يتجلى هذا في قول اللّه تعالى:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة أمر الرسل - لأنه أمر اللّه - ومعصية أمر الجبارين.وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان ..في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير اللّه والتمردعلى سلطان الأرباب الطغاة وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية،واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ..لقد خلق اللّه الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه،ولا يتزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم.فهذا مناط تكريمهم.

فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند اللّه ولا نجاة.وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة،وتدعي الإنسانية،وهي تدين لغير اللّه من عباده.والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين.فهم كثرة والمتجبرون قلة.ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال.

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد ..هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة:«وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعـــلان عـــام وتنبيـــه عال:«أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» ..

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد.كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا:..«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ»!!! [٧٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٧٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٢٨]

قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى – حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ – وَلا جُنُباً – إِلَّا عابري سَبِيلٍ – حَتَّى تَغْتَسلُوا.وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ،أَوْ جاءَ أَحَدٌ منْكُمْ منَ الْغائط،أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجدُوا ماءً،فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً،فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ.إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً» ..

إنها حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة – التي التقطها المنهج الإسلامي من سفح الجاهلية – وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع.كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضا ..الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته وللمجتمع الفارسي أيضا.وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته! والشأن أيضا كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى! في السويد – وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة – كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها.وكان متوسط ما يستهلكه الفرد،حوالي عشرين لترا.وأحست الحكومة خطورة هذه الحال،وما ينشره من إدمان فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور،وتحديد الاستهلاك الفردي،ومنع شرب الخمور في المحال العامة ..ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام.ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة،حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب «النبيذ والبيرة» فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف ..!

أما في أمريكا،فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونا في سنة ١٩١٩ سمي قانون «الجفاف»! من باب التهكم عليه،لأنه يمنع «الري» بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائما مدة أربعة عشر عاما،حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣.وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما

والمحاضرات للدعاية ضد الخمر.ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات.وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة.وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه.وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن كذلك ٣٣٥،٥٣٢ نفسا.وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه.وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه ..وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون[٧٥].

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ..ببضع آيات من القرآن.

وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية،وفي علاج المجتمع الإنساني ..بين منهج اللّه،ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء! ولكي ندرك تغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي،يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي حيث نجد «الخمر» عنصرا أساسيا من عناصر المادة الأدبية كما أنه عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها.

لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر،أن أصبحت كلمة التجارة،مرادفة لبيع الخمر ..يقول لبيد:

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

ويقول عمرو بن قميئة:

إذ أسحب الريط والمروط إلى أدني تجاري وأنفض اللمما

ووصف مجالس الشراب،والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلي،وتطبعه طابعا ظاهرا.

يقول امرؤ القيس:

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني أراقب خلّات من العيش أربعا

فمنهن قولي للندامى:ترفقوا يداجون نشاجا من الخمر مترعا

ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا يبادرن سربا آمنا أن يفزّعا

---

[٧٥] - عن كتاب تنقيحات للسيد أبي الأعلى المودودي.نقلا عن كتاب:«ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد الندوي.

...إلخ ويقول طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبذلي وإنفاقي طريفي وتالدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

ويقول الأعشى:

فقد أشرب الراح قد تعلمين يوم المقام ويوم الظعن

وأشرب بالريف حتى يقال قد طال بالريف ما قد دجن

ويقول المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير

فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير [٧٦]

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي ...

ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم،والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث ..وفيهم عمر،وعلي،وحمزة،وعبد الرحمن بن عوف ..وأمثال هذا الطراز من الرجال ..

تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية.وتكفي عن الوصف المطول المفصل:

فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ،قَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا،فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}،قَالَ:فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً،فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺإِذَا أَقَامَ الصَّلاَةَ نَادَى:أَنْ لاَ يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانُ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً،فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي

---

[٧٦] – قصران للنعمان بن المنذر كانت تتحدث بهما العرب في الجاهلية.

الْمَائِدَةِ،فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ،فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا"[٧٧] ..

وفي سبب نزول هذه الآية:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى » ترد روايتان يشترك في أحداثهما علي وعبد الرحمن بن عوف من المهاجرين.وسعد بن معاذ من الأنصار.

روى ابن أبي حاتم عَنْ سَعْدٍ،قَالَ:"نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ،صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ،فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا حَتَّى سَكِرْنَا،ثُمَّ افْتَخَرْنَا فَرَفَعَ رَجُلٌ فِي لِحَى بَعِيرٍ فَغَرَزَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ،فَكَانَ سَعْدٌ مَغْرُوزُ الأَنْفِ،وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُحَرِّمَ الْخَمْرَ،فَنَزَلَتْ:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى " ".[٧٨] .

وروى ابن أبي حاتم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ:"صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَاماً فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ،فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا،وَحَضَرَتِ الصَّلاةُ،فَقَدَّمُوا فُلانًا،قَالَ:فَقَرَأَ:" قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ قَالَ:فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:يَا أَيُّهَا الَّذِينُ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ " ".[٧٩]

ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي.فهي كانت والميسر،الظاهرتين البارزتين المتداخلتين،في تقاليد هذا المجتمع ..

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة،التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبدا؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصيلة قديمة،تتعلق بها تقاليد اجتماعية كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟

لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن وعلى مراحل،وفي رفق وتؤدة.وكسب المعركة.

دون حرب.ودون تضحيات.ودون إراقة دماء ..والذي أريق فقط هودنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين – حين سمعوا آية التحريم – فمجوها

---

[٧٧] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ١٨٩)(٣٧٨) صحيح

[٧٨] - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ١٧١) (٥٣٩٢) صحيح

[٧٩] - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ١٧٠) (٥٣٩١) صحيح

من أفواههم.ولم يبلعوها.كما سيجيء ! في مكة – حيث لم يكن للإسلام دولـة ولا سلطان ..إلا سلطان القرآن – وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر.تدرك من ثنايا العبارة.وهي مجرد إشارة:

جاء في سورة النحل:«وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً» ..فوضع «السكر» وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه مـن ثمـرات النخيـل والأعناب،في مقابل الرزق الحسن! ملمحا بهذا التقابل إلى أن السكر شـيء.والـرزق «الحسن» شيء آخر ..وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد! ولكن عـادة الشراب،أو تقليد الشراب – بمعنى أدق – فقد كان أعمق من عادة فردية.كان تقليـدا اجتماعيا،له جذور اقتصادية ..كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة ..وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان ..لم يلجأ إلى تحـريم الخمـر بقوة الدولة وسيف السلطان.إنما كان أولا سلطان القرآن ..

وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر،وفي خبرة بالنفس البشرية،والأوضاع الاجتماعيـة ..

بدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر،وفي خبرة بالنفس البشرية،والأوضاع الاجتماعية ..

بدأ بآية البقرة ردا على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسـلم ضـد الخمـر والميسر:«يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ.قُلْ:فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ،وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ ..وَإِثْمُهُمـا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ..»

وكانت هي الطرقة الأولى،ذات الصوت المسموع ..في الحس الإسلامي،وفي الضـمير الإسلامي.وفي المنطق الفقهي الإسلامي ..فمدار الحل والحرمة ..أو الكراهية ..علـى رجحان الإثم أو رجحان الخير،في أمر من الأمور ..وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما ..فهذا مفرق الطريق ..ولكن الأمر كان أعمق من هذا .. عَـنْ عُمَـرَ بْـنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ،قَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا،فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:{يَسْأَلُونَكَ عَـنِ الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِـرِ قُـلْ فِيهِمَـا إِثْـمٌ كَبِيرٌ} ،قَالَ:فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِـفَاءً،فَنَزَلَتِ

الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺإِذَا أَقَامَ الصَّلاَةَ نَادَى:أَنْ لاَ يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانُ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً،فَنَزَلَت الآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ،فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ،فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا[٨٠]...

عمر!!! وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي! ثم حدثت أحداث – كالتي رويناها – ونزلت هذه الآية:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى،حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» ..

وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل ..

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة،بين التنفير من الخمر،لأن إثمها أكبر من نفعها،وبين التحريم البات،لأنها رجس من عمل الشيطان.وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة:هي «قطع عادة الشراب» أو «كسر الإدمان» ..وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة.وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار.وبينها فترات لا تكفي للشراب – الذي يرضي المدمنين – ثم الإفاقة من السكر الغليظ! حتى يعلموا ما يقولون! فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتا ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق ..صباحا ومساء ..وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة ..وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب ..وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة ..

ومع ذلك ..فقد قال عمر رضي اللّه عنه – وهو عمر!!! – «اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر» ..

ثم مضى الزمن.ووقعت الأحداث.وجاء الوعد المناسب – وفق ترتيب المنهج – للضربة الحاسمة.فنزلت الآيتان في المائدة:«إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ،فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ،وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ،فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟».

[٨٠] – مسند أحمد (عالم الكتب) [١ /١٨٩](٣٧٨) صحيح

وانتهى المسلمون كافة.وأريقت زقاق الخمر،وكسرت دنانها في كل مكـــان ..بمجـــرد سماع الأمر ..ومج الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم - حـــين سمعوا و لم يبلعوها وهي في أفواههم.وهم شاربون ..

لقد انتصر القرآن.وأفلح المنهج.وفرض سلطانه - دون أن يستخدم السلطان!!! ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة،التي لا نظير لها في تاريخ البشر ولا مثيل لهـــا في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان،ولا في أي زمان؟

لقد تمت المعجزة،لأن المنهج الرباني،أخذ النفس الإنسانية،بطريقته الخاصـــة ..أخـــذها بسلطان اللّه وخشيته ومراقبته،وبحضور اللّه - سبحانه - فيها حضورا لا تملك الغفلـــة عنه لحظة من زمان ..أخذها جملة لا تفاريق ..وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة ..

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا تملـــؤه بنشـــوة الخمر،وخيـــالات الســـكر،وما يصـــاحبها مـــن مفـــاخرات وخـــيلاء ..في الهـــواء ..مـــلأ فراغهـــا باهتمامات.منها:نقل هذه البشـــرية الضـــالة الشـــاردة كلـــها،من تيـــه الجاهليـــة الأجرد،وهجيرها المتلظى،وظلامها الدامس،وعبوديتها المذلة،وضيقها الخانق،إلى رياض الإسلام البديعة،وظلاله الندية،ونوره الوضيء،وحريته الكريمة،وسعته التي تشمل الـــدنيا والآخرة! وملأ فراغها - وهذا هو الأهم - بالإيمان.بهذا الإحساس النـــدي الرضـــي الجميل البهيج.فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر،تحلق بها في خيالات كاذبة وسمـــادير! وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضيء ..وتعيش بقرب اللّه ونوره وجلالـــه ..وتذوق طعم هذا القرب،فتمج طعم الخمر ونشوتها وتـــرفض خمارهـــا وصـــداعها وتستقذر لوثتها وخمودها في النهاية! إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهليـــة وفتحهـــا بمفتاحها،الذي لا تفتح بغيره وتمشى في حناياها وأوصالها وفي مسالكها ودروبها ..ينشر النور،والحياة،والنظافة،والطهر،واليقظة،والهمة،والانـــدفاع للخـــير الكـــبير والعمـــل الكبير،والخلافة في الأرض،على أصولها،التي قررها العلـــيم الخبير،وعلـــى عهـــد اللّـــه وشرطه،وعلى هدى ونور .

إن الخمر – كالميسر.كبقية الملاهي.كالجنون بما يسمونه «الألعاب الرياضية» والإسراف في الاهتمام بمشاهدها ..كالجنون بالسرعة ..كالجنون بالسينما ..كالجنون «بالمودات» «والتقاليع» ..كالجنون بمصارعة الثيران ..كالجنون ببقية التفاهات التي تغشى حياة القطعان البشرية في الجاهلية الحديثة اليوم،جاهلية الحضارة الصناعية! إن هذه كلها ليست إلا تعبيرا عن الخواء الروحي ..من الإيمان أولا ..ومن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانيا ..وليست إلا إعلانا عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية ..ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ،كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا ..وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى «الجنون» المعروف،وإلى المرض النفسي والعصبي ..وإلى الشذوذ ..

إنها لم تكن كلمات ..هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة ..إنما كان منهج.منهج هذه الكلمات متنه وأصله.منهج من صنع رب الناس.لا من صنع الناس! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج،لا تؤدي إلى كثير! إنه ليست المسألة أن يقال كلام! فالكلام كثير.وقد يكتب فلان من الفلاسفة.أو فلان من الشعراء أو فلان من المفكرين.أو فلان من السلاطين! قد يكتب كلاما منمقا جميلا يبدو أنه يؤلف منهجا،أو مذهبا،أو فلسفة ..إلخ ..ولكن ضمائر الناس تتلقاه،بلا سلطان.لأنه «ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ»! فمصدر الكلمة هو الذي يمنحها السلطان ..وذلك فوق ما في طبيعة المنهج البشري ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور! فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج،غير منهج العليم الخبير؟

وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير؟ متى؟ متى ينتهون عن هذا الغرور؟؟؟[٨١]

[٨١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٩٩٧]

:«الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ.فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ.إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» ..

وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق.وفي لحظة ترتسم الأهداف،وتتضح الخطوط.وينقسم الناس إلى فريقين اثنين تحت رايتين متميزتين:«الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ..

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ» ..الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه لتحقيق منهجه،وإقرار شريعته،وإقامة العدل «بين الناس» باسم اللّه.لا تحت أي عنوان آخر.اعترافا بأن اللّه وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم:

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت،لتحقيق مناهج شتى - غير منهج اللّه - وإقرار شرائع شتى - غير شريعة اللّه - وإقامة قيم شتى - غير التي أذن بها اللّه - ونصب موازين شتى غير ميزان اللّه! ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية اللّه وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم،وشتى مناهجهم،وشتى شرائعهم،وشتى طرائقهم،وشتى قيمهم،وشتى موازينهم ...فكلهم أولياء الشيطان.

ويأمر اللّه الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان:«فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ،إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً».

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة،مسندين ظهورهم إلى ركن شديد.مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة للّه،ليس لأنفسهم منها نصيب،ولا لذواتهم منها حظ.وليست لقومهم،ولا لجنسهم،ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء ..إنما هي للّه وحده،ولمنهجه وشريعته.وأنهم يواجهون قوما أهل باطل يقاتلون لتغليب الباطل على الحق.لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية - وكل مناهج البشر جاهلية - على شريعة منهج اللّه ولتغليب شرائع البشر الجاهلية - وكل شرائع البشر جاهلية - على

اللّه ولتغليب ظلم البشر – وكل حكم للبشر من دون اللّه ظلم – على عدل اللّه،الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس ..

كذلك يخوضون المعركة،وهم يوقنون أن اللّه وليهم فيها.وأنهم يواجهون قوما،الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف ..إن كيد الشيطان كان ضعيفا ..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين،وتتحدد نهايتها.قبل أن يدخلوها.وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة – فهو واثق من النتيجة – أم بقي حتى غلب،ورأى بعينيه النصر فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه،انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل اللّه في حياة الجماعة المسلمة الأولى والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة.وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال فهي كثيرة مشهورة ..ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب،في أقصر فترة عرفت في التاريخ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة،على المعسكرات المعادية ..ذلك التفوق الذي أشرنا إليه من قبل في هذا الجزء[٨٢].وبناء هذا التصور ذاته كان طرفا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين،وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين فأمسوا مهزومين! وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته.فلم يكن الأمر هينا.ولم يكن مجرد كلمة تقال.ولكنه كان جهدا موصولا،لمعالجة شح النفس،وحرصها على الحياة – بأي ثمن – وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة ..وفي الدرس بقية من هذا العلاج،وذلك الجهد الموصول.[٨٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٨٢] –ص ٦٧٣.

[٨٣] –في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٠٥٦]

بلمسة قوية عميقة التأثير في التشجيع على الجهاد في سبيل اللّه في وجه الآلام والمتاعب التي تصيب المجاهدين.وذلك في تصوير ناصع لحال المؤمنين المجاهدين،وحال أعـــدائهم المحاربين على مفرق الطريق:«وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ ..إِنْ تَكُونُوا تَـــأْلَمُونَ فَـــإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ.وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ ..»

وبهذا التصوير يفترق طريقان ويبرز منهجان ويصغر كل ألم،وتهون كل مشقة.ولا يبقى مجال للشعور بالضنى وبالكلال ..فالآخرون كذلك يألمون.ولكنهم يرجون من اللّه مـــا لا يرجون! ويرسم هذا الدرس - بجملة الموضوعات التي يعالجها،وبطرائق العلاج الـــتي يسلكها - ما كان يعتمل في جسم الجماعة المسلمة،وهي تواجه مشاق التكوين الواقعية ومشكلات التكوين العملية.وما كان يشتجر في النفوس من عوامل الضعف البشـــري ومن رواسب الماضي الجاهلي،ومن طبيعة الفطرة البشرية وهي تواجه التكاليف بمشاقها وآلامها مع ما يصاحب هذه المشاق والآلام من أشواق ومن تطلع إلى الوفاء كـــذلك يستثيرها المنهج الحكيم،ويستجيشها في الفطرة لتنهض بهذا الأمر العظيم.

ونرى ذلك كله مرتسما من خلال الوصف للواقع ومن خلال التشجيع والاستجاشـــة ومن خلال المعالجة للمخاوف الفطرية والآلام الواقعية ومن خلال التسليح في المعركـــة بالصلاة! وبالصلاة خاصة - إلى جانب التسلح بالعدة واليقظة - وبالثقة في ضمانة اللّه للمهاجرين،وثوابه للمجاهدين،وعونه للخارجين في سبيله،وما أعده للكـــافرين مـــن عذاب مهين.

ونرى طريقة المنهج القرآني الرباني في التعامل مع النفس البشرية في قوتها وضـــعفها وفي التعامل مع الجماعة الإنسانية في أثناء تكوينها وإنضاجها.ونرى شتى الخيوط التي يشدها منها في الوقت الواحد وفي الآية الواحدة ..

ونرى - على الأخص - كيف يملأ مشاعر الجماعة المسلمة بالتفوق على عـــدوها،في الوقت الذي يملأ نفوسها بالحذر واليقظة والتهيؤ الدائم للخطر،وفي الوقت الذي يـــدلها كذلك على مواطن الضعف فيها،ومواضع التقصير،ويحذرها إياها أشد التحذير.

إنه منهج عجيب في تكامله وفي تقابله مع النفس البشرية وفي عدد الأوتار التي يلمسها في اللمسة الواحدة،وعدد الخيوط التي يشدها في هذه النفس،فتصوت كلها وتستجيب!

لقد كان التفوق في منهج التربية،والتفوق في التنظيم الاجتماعي الذي قام عليه هـــو الأمر البارز الظاهر فيما بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله من فروق ..ولقــد كان هذا التفوق البارز هو كذلك أوضح الأسباب - التي يراها البشر - لتمكن هـــذا المجتمع الناشئ الشاب - بكل ما كان في حياته من ملابسات ومـــن ضـــعف أحيانـــا وتقصير - من طي تلك المجتمعات الأخرى،والغلبة عليها.لا غلبة معركـــة بالســـلاح فحسب ولكن غلبة حضارة فتية علـــى حضـــارات شـــاخت.غلبـــة منـــهج علـــى مناهج،ونموذج من الحياة على نماذج ومولد عصر جديد على مولد إنسان جديد [٨٤]..

إنهن كلمات معدودات.يضعن الخطوط الحاسمة،ويكشفن عن الشقة البعيدة،بين جبهتي الصراع ..

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة ..ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونـــه ..إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء ..ولكن شتان بين هؤلاء وهـــؤلاء ..إن المؤمنين يتوجهون إلى اللّه بجهادهم،ويرتقبون عنده جزاءهم ..فأما الكفار فهـــم ضائعون مضيعون،لا يتجهون للّه،ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة ..

فإذا أصر الكفار على المعركة،فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا،وإذا احتمل الكفار آلامها،فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام.وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال،وتعقب آثارهم،حتى لا تبقى لهم قوة،وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه.

---

[٨٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٠٩٥]

وإن هذا لهو فضل العقيدة في اللّه في كل كفاح.فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشــقة على الطاقة،ويربو الألم على الاحتمال.ويحتاج القلب البشري إلى مــدد فــائض وإلى زاد.هنالك يأتي المدد من هذا المعين،ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة.معركة يألم فيها المتقــاتلون مــن الفريقين.لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة ..ولكن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبدا،حتى ولو كان غالبا! إنه يلاقي الآلام من داخله.من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض.ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء.

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار.وأن تعلم أنهــا إن كانــت تألم،فــإن عدوها كذلك يألم.

والألم أنواع.والقرح ألوان ..«وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ» ..وهــذا هــو العــزاء العميق.وهذا هو مفرق الطريق ..«وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» ..يعلــم كيــف تعــتلج المشاعر في القلوب.ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح [٨٥]..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

---

٨٥ – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١١٠٩]

قال تعالى:«لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ.إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ.وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ،فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» ..

لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى وهي أن تجتمع طائفة بعيدا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة،لتبيت أمرا ..وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه،فيعرضه على النبي - ﷺ- مسارة إن كان أمرا شخصيا لا يريد أن يشيع عنه شيء في الناس.أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة،التي ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة في هذه الخطة،هو ألا تتكون «جيوب» في الجماعة المسلمة وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها،أو بأفكارها واتجاهاتها.وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمرا بليل،وتواجه به الجماعة أمرا مقررا من قبل أو تخفيه عن الجماعة وتستخفي به عن أعينها - وإن كانت لا تختفي به عن اللّه وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول.

وهذا الموضع أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها ..

ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة،تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة.وكان المجتمع المسلم كله مجتمعا مفتوحا تعرض مشكلاته - التي ليست بأسرار للقيادة في المعارك وغيرها والتي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن - عرضا عاما.وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعا نظيفا طلق الهواء.لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره،إلا الذين يتآمرون عليه! أو على مبدأ من مبادئه - من المنافقين غالبا - وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع.

وهذه حقيقة تنفعنا.فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئا من هذه الظاهرة،وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر،أو بما يعرض لهم من خطط

واتجاهات أو مشكلات! والنص القرآني هنا يستثني نوعا من النجوى ..هو في الحقيقة ليس منها،وإن كان له شكلها:«إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ،أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ» ..

وذلك أن يجتمع الرجل الخير بالرجل الخير،فيقول له:هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته في خفية عن الأعين.أو هلم إلى معروف معين نفعله أو نحض عليه.أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعا ..وقد تتكون العصبة من الخيرين لأداء أمر من هذه الأمور،وتتفق فيما بينها سرا على النهوض بهذا الأمر.فهذا ليس نجوى ولا تآمرا.ومن ثم سماه «أمرا» وإن كان له شكل النجوى،في مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر في معروف يعلمه أو خطر له ..

على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة اللّه:«وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» ..فلا يكون لهوى في الصدقة على فلان،أو الإصلاح بين فلان وعلان.ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه - واللّه رجل طيب - ! يحض على الصدقة والمعروف،ويسعى في الإصلاح بين الناس! ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى اللّه،بهذا الخير.فهذا هو مفرق الطريق بين العمل يعمله المرء فيرضى اللّه عنه ويثيبه به.والعمل نفسه يعمله المرء فيغضب اللّه عليه،ويكتبه له في سجل السيئات![٨٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٨٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١١٢٠]

قال تعالى:«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ – وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَميعاً.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه.وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدا للّه.لأنه – عليه السلام – وهو نبي اللّه ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان.وهو خير من يعرف أنه من خلق اللّه فلا يكون خلق اللّه كاللّه أو بعضا من اللّه! وهو خير من يعرف أن العبودية للّه – فضلا على أها الحقيقة المؤكدة الوحيدة – لا تنقص من قدره.فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء.وهي المرتبة التي يصف اللّه بها رسله،وهم في أرقى حالاهم وأكرمها عنده ..وكذلك الملائكة المقربون – وفيهم روح القدس جبريل – شأهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء – فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟! مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَميعاً»..

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر اللّه لهم بسلطانه ..سلطان الألوهية على العباد ..شأهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه ..

فأما الذين عرفوا الحق،فأقروا بعبوديتهم للّه وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

«وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

وما يريد اللّه – سبحانه – من عباده أن يقروا له بالعبودية،وأن يعبدوه وحده،لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادهم،ولا لأها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء.ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،لتصح تصوراهم ومشاعرهم،كما

تصح حياتهم وأوضاعهم.فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر،ولا أن تستقر الحياة والأوضاع،على أساس سليم قويم،إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار،وما يتبع الإقــرار من آثار ..

يريد اللّه – سبحانه – أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس النــاس وفي حياتهم.ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض فلا يخضعوا إلا له،وإلا لمنهجه وشريعته للحياة،وإلا لمــن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ليرفعــوا جباههم أمام كل من عداه حين تعنو له وحده الوجوه والجباه.يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة،حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون اللّه ولا يذكرون أحدا إلا اللّه.يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب.ولكن تجــيء عــن تقوى وعمل صالح فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى اللّه.يريد أن تكــون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فتكون لهم غيرة على سلطان اللّه في الأرض أن يدعيه المدعون باسم اللّه أو باسم غير اللّه فيردون الأمر كله للّه ..ومــن ثم تصــلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس ...

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة وتعليق أنظار البشر للّه وحده وتعليــق قلــوبهم برضــاه وأعمالهم بتقواه ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه ..إن هذا كله رصــيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشــرية في حياتهــا الأرضية وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض ..في هذه الحياة ..فأما ما يجزي اللّه به المؤمنين المقرين بالعبودية العــاملين للصــالحات،في الآخرة،فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر.وفيض من عطاء اللّه.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان باللّه في الصورة الناصعة التي جــاء بهــا الإسلام وقرر أنها قاعدة الرسالة كلــها ودعــوة الرســل جميعــا قبــل أن يحرفهــا الأتباع،وتشوهها الأجيال ..يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلادا جديدا للإنسان تتــوافر له معه الكرامة والحرية،والعدل والصلاح،والخروج من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده

في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.والذين يستنكفون من العبودية للّه،يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ..يذلون لعبودية الهوى والشهوة.أو عبودية الوهم والخرافة.ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم،ويحنون لهم الجباه.ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدا مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام اللّه ..ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون اللّه ..هذا في الدنيا ..أما في الآخرة «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان.وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان ..[٨٧]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٨٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١١٩١]

قال تعالى:«يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ،وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» ..

وهذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب الناس.«يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ».

إن طابع الصنعة الربانية ظاهر فيه يفرقه عن كلام البشر وعن صنع البشر ..في مبناه وفي فحواه سواء.

وهي قضية واضحة يدركها أحيانا من لا يفهمون من العربية حرفا واحدا،بصورة تدعو إلى العجب.

كنا على ظهر الباخرة في عرض الأطلنطي في طريقنا إلى نيويورك،حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب ..ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة وكثير من عمال المركب أهل النوبة.وألقيت خطبة الجمعة متضمنة آيات من القرآن في ثناياها.وسائر ركاب السفينة من جنسيات شتى متحلقون يشاهدون! وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا – من بين من جاء يعبر لنا عن تأثره العميق بالصلاة الإسلامية – سيدة يوغسلافية فارة من الشيوعية إلى الولايات المتحدة! جاءتنا وفي عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفي صوتها رعشة.وقالت لنا في انجليزية ضعيفة:أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم ..ولكن ليس هذا ما جئت من أجله ..إنني لا أفهم من لغتكم حرفا واحدا.غير أنني أحس أن فيها إيقاعا موسيقيا لم أعهده في أية لغة ..ثم ..إن هناك فقرات مميزة في خطبة الخطيب.هي أشد إيقاعا.ولها سلطان خاص على نفسي!!!

وعرفت طبعا أنها الآيات القرآنية،المميزة الإيقاع ذات السلطان الخاص! لا أقول:إن هذه قاعدة عند كل من يسمع ممن لا يعرفون العربية ..ولكنها ولا شك ظاهرة ذات دلالة!

فأما الذين لهم ذوق خاص في هذه اللغة،وحس خاص بأساليبها،فقد كان من أمرهم ما كان يوم واجههم محمد – ﷺ– بهذا القرآن ..وقصة الأخنس بن شريق،وأبي سفيان بن حرب،وأبي جهل وعمرو بن هشام،في الاستماع سرا للقرآن،وهم به مأخوذون،قصة مشهورة،فعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ قَالَ:حُدِّثْتُ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ،وَأَبَا سُفْيَانَ،وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ،خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَهُوَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ،وَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا لِيَسْتَمِعَ فِيهِ،وَكُلٌّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ،فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا أَصْبَحُوا وَطَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا،فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ فَتَلَاوَمُوا،وَقَالَ:بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:لَا تَعُودُوا فَلَوْ رَآكُمْ بَعْضُ سُفَهَائِكُمْ لَأَوقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا،ثُمَّ انْصَرَفُوا حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ،فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا،فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ .، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ،فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا،فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ،فَقَالُوا:لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَتَعَاهَدَ لَا نَعُودُ،فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ،ثُمَّ تَفَرَّقُوا فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ أَخَذَ عَصَاهُ،ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ:أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ فَقَالَ:يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا .فَقَالَ الْأَخْنَسُ:وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ بِهِ،ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ،فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ فَقَالَ:يَا أَبَا الْحَكَمِ مَا رَأْيُكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ ؟ فَقَالَ:مَاذَا سَمِعْتَ ؟ تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ؛أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا،وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا،وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا حَتَّى

إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكَبِ وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ قَالُوا:مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ،فَمَتَى نُدْرِكُ هَذِهِ ؟ وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا،وَلَا نُصَدِّقُهُ،فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ "[88]

وهي إحدى القصص الكثيرة ..والذين لهم ذوق في أي جيل يعرفون ما في القرآن من خصوصية وسلطان وبرهان من هذا الجانب ..فأما فحوى القرآن ..التصور الذي يحمله.والمنهج الذي يقرره.والنظام الذي يرسمه.و«التصميم» الذي يضعه للحياة ..فلا نملك هنا أن نفصله ..ولكن فيه البرهان كل البرهان على المصدر الذي جاء منه وعلى أنه ليس من صنع الإنسان،لأنه يحمل طابع صنعة كاملة ليس هو طابع الإنسان[89].

وفي هذا القرآن نور:«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» ..

نور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محددا مرسوما ..في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء ..حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولا فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحا ..حيث يتلاشى الغبش وينكشف وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية،وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه،يحس يسرا وبساطة ووضوحا في رؤية الأمور.ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوء وتلتزم حقائقها في يسر وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة لتبدو في براءتها الفطرية،ونصاعتها كما خرجت من يد اللّه ..

ومهما قلت في هذا التعبير:«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» ..فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته،لمن لم يذق طعمه و لم يجده في نفسه! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني!

---

[88] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥١١) وسيرة ابن هشام - (١ / ٣١٥) وفيه انقطاع -وقد ذكرها السيد رحمه الله بالهامش

[89] - يراجع في الظلال في مواضع متفرقة ما جاء عن هذا المنهج الذي يحمله القرآن على سبيل المثال:في مقدمة الظلال بعنوان:«في ظلال القرآن» ص ١٧ وسورة الحجرات جزء ٢٦،سورة الذاريات جزء ٢٧،سورة العصر جزء ٣٠ ويراجع كتاب:«هذا الدين» للمؤلف،وكتاب:«منهج التربية الإسلامية» لمحمد قطب «دار الشروق».وكتاب:«منهج التربية في القرآن» لمحمد شديد.

ولا بد من التذوق الذاتي! ولا بد من التجربة المباشرة! «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ،وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» ..
والاعتصام باللّه ثمرة ملازمة للإيمان به ..متى صح الإيمان،ومتى عرفت النفس حقيقة اللّه وعرفت حقيقة عبودية الكل له.فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم باللّه وحده.وهو صاحب السلطان والقدرة وحده ..وهؤلاء يدخلهم اللّه في رحمة منه وفضل.رحمة في هذه الحياة الدنيا – قبل الحياة الأخرى – وفضل في هذه العاجلة – قبل الفضل في الآجلة – فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرود.كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه في كرامة وحرية ونظافة واستقامة – كما أسلفنا – حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته.عبد للّه وسيد مع كل من عداه ..وليس هذا في أي نظام آخر غير نظام الإيمان – كما جاء به الإسلام – هذا النظام الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.حين يوحد الألوهية ويسوي بين الخلائق جميعا في العبودية.وحيث يجعل السلطان للّه وحده والحاكمية للّه وحده فلا يخضع بشر لتشريع بشر مثله،فيكون عبدا له مهما تحرر! فالذين آمنوا في رحمة من اللّه وفضل،في حياتهم الحاضرة،وفي حياتهم الآجلة سواء
«وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» ..وكلمة «إليه» ..تخلع على التعبير حركة مصورة.إذ ترسم المؤمنين ويد اللّه تنقل خطاهم في الطريق إلى اللّه على استقامة وتقربهم إليه خطوة خطوة ..وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن باللّه على بصيرة،فيعتصم به على ثقة ..حيث يحس في كل لحظة أنه يهتدي وتتضح أمامه الطريق ويقترب فعلا من اللّه كأنما هو يخطو إليه في طريق مستقيم.إنه مدلول يذاق ..ولا يعرف حتى يذاق![٩٠]
وقال تعالى:« كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ – وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ

[٩٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١١٩٢]

بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ - فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..

هذه هي القصة ..كان الناس أمة واحدة.على نهج واحد،وتصور واحد.وقد تكون هذه إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم،قبل اختلاف التصورات والاعتقادات.

فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد.وهم أبناء الأسرة الأولى:أسرة آدم وحواء.وقد شاء اللّه أن يجعل البشر جميعا نتاج أسرة واحدة صغيرة،ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم،وليجعلها هي اللبنة الأولى.وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه في مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد في نطاق الأسرة الأولى.حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها،وتفرقوا في المكان،وتطورت معايشهم وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة،التي فطرهم اللّه عليها لحكمة يعلمها،ويعلم ما وراءها من خير للحياة في التنوع في الاستعدادات والطاقات والاتجاهات.عندئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر،وتعددت المناهج،وتنوعت المعتقدات ..وعندئذ بعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين ..

«وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» ..وهنا تتبين تلك الحقيقة الكبرى ..إن من طبيعة الناس أن يختلفوا لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض ..إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة،واستعدادات شتى من ألوان متعددة كي تتكامل جميعها وتتناسق،وتؤدي دورها الكلي في الخلافة والعمارة،وفق التصميم الكلي المقدر في علم اللّه.فلا بد إذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات ..«وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ - وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ» ..

هذا الاختلاف في الاستعدادات والوظائف ينشئ بدوره اختلافا في التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق ..ولكن اللّه يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة

الواقعة داخل اطار واسع عريض يسعها جميعا حين تصلح وتستقيم ..هذا الإطار هو إطار التصور الإيماني الصحيح.الذي ينفسح حتى يضم جوانحه على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات فلا يقتلها ولا يكبحها ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها في طريق الصلاح.

ومن ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون وحكم عدل يرجع إليه المختصمون وقول فصل ينتهي عنده الجدل،ويثوب الجميع منه إلى اليقين:«فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ،وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ،لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ».

ولا بد أن نقف عند قوله تعالى «بِالْحَقِّ» ..فهو القول الفصل بأن الحق هو ما جاء به الكتاب وأن هذا الحق قد أنزل ليكون هو الحكم العدل،والقول الفصل،فيما عداه من أقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم ..لا حق غيره.ولا حكم معه.ولا قول بعده.وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدد وبغير تحكيمه في كل ما يختلف فيه الناس وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض ..بغير هذا كله لا يستقيم أمر هذه الحياة ولا ينتهي الناس من الخلاف والفرقة ولا يقوم على الأرض السلام ولا يدخل الناس في السلم بحال.

ولهذه الحقيقة قيمتها الكبرى في تحديد الجهة التي يتلقى منها الناس تصوراتهم وشرائعهم والتي ينتهون إليها في كل ما يشجر بينهم من خلاف في شتى صور الخلاف ..إنها جهة واحدة لا تتعدد هي التي أنزلت هذا الكتاب بالحق وهو مصدر واحد لا يتعدد هو هذا الكتاب الذي أنزله اللّه بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..

وهو كتاب واحد في حقيقته،جاء به الرسل جميعا.فهو كتاب واحد في أصله،وهي ملة واحدة في عمومها،وهو تصور واحد في قاعدته:إله واحد،ورب واحد،ومعبود واحد،ومشرّع واحد لبني الإنسان ..ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال ووفق أطوار الحياة والارتباطات حتى تكون الصورة الأخيرة التي جاء بها الإسلام،وأطلق الحياة تنمو في محيطها الواسع الشامل بلا عوائق.بقيادة اللّه ومنهجه

وشريعته الحية المتجددة في حدود ذلك المحيط الشامل الكبير.وهذا الذي يقرره القرآن في أمر الكتاب هو النظرية الإسلامية الصحيحة في خط سير الأديان والعقائد ..

كل نبي جاء بهذا الدين الواحد في أصله،يقوم على القاعدة الأصيلة:قاعدة التوحيد المطلق ..ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة،وتتراكم الخرافات والأساطير،حتى يبعد الناس نهائيا عن ذلك الأصل الكبير.وهنا تجيء رسالة جديدة تجدد العقيدة الأصيلة،وتنفي ما علق بها من الانحرافات،وتراعي أحوال الأمة وأطوارها في التفصيلات ..وهذه النظرية أولى بالاتباع من نظريات الباحثين في تطور العقائد من غير المسلمين،والتي كثيرا ما يتأثر بها باحثون مسلمون،وهم لا يشعرون،فيقيمون بحوثهم على أساس التطور في أصل العقيدة وقاعدة التصور،كما يقول المستشرقون وأمثالهم من الباحثين الغربيين الجاهليين! وهذا الثبات في أصل التصور الإيماني،هو الذي يتفق مع وظيفة الكتاب الذي أنزله اللّه بالحق،ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه،في كل زمان،ومع كل رسول،منذ أقدم الأزمان.

و لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه الناس،وأن يكون هناك قول فصل ينتهون إليه.و لم يكن بد كذلك أن يكون هذا الميزان من صنع مصدر آخر غير المصدر الإنساني،وأن يكون هذا القول قول حاكم عدل لا يتأثر بالهوى الإنساني،ولا يتأثر بالقصور الإنساني،ولا يتأثر بالجهل الإنساني! وإقامة ذلك الميزان الثابت تقتضي علما غير محدود.علم ما كان وما هو كائن وما سيكون.علمه كله لا مقيدا بقيود الزمان التي تفصل الوجود الواحد إلى ماض وحاضر ومستقبل،وإلى مستيقن ومظنون ومجهول،وإلى حاضر مشهود ومغيب مخبوء ..ولا مقيدا بقيود المكان التي تفصل الوجود الواحد إلى قريب وبعيد،ومنظور ومحجوب،ومحسوس وغير محسوس ..في حاجة إلى إله يعلم ما خلق،ويعلم من خلق ..ويعلم ما يصلح وما يصلح حال الجميع.

وإقامة ذلك الميزان في حاجة كذلك إلى استعلاء على الحاجة،واستعلاء على النقص،واستعلاء على الفناء،واستعلاء على الفوت،واستعلاء على الطمع،واستعلاء على الرغبة والرهبة ..واستعلاء على الكون كله بما فيه ومن فيه ..في حاجة إلى إله،لا أرب

له،ولا هوى،ولا لذة،ولا ضعف في ذاته - سبحانه - ولا قصور! أما العقل البشري فبحسبه أن يواجه الأحوال المتطورة،والظروف المتغيرة،والحاجات المتجددة ثم يوائم بينها وبين الإنسان في لحظة عابرة وظرف موقوت.على أن يكون هناك الميزان الثابت الذي يفيء إليه،فيدرك خطأه وصوابه،وغيه ورشاده،وحقه وباطله،من ذلك الميزان الثابت ..وبهذا وحده تستقيم الحياة.

ويطمئن الناس إلى أن الذي يسوسهم في النهاية إله! إن الكتاب لم يترل بالحق ليمحو فوارق الاستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل.إنما جاء ليحتكم الناس إليه ..وإليه وحده ..حين يختلفون ..

ومن شأن هذه الحقيقة أن تنشئ حقيقة أخرى تقوم على أساسها نظرة الإسلام التاريخية:

إن الإسلام يضع «الْكِتابَ» الذي أنزله اللّه «بِالْحَقِّ» ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشرية.ثم تمضي الحياة.فإما اتفقت مع هذه القاعدة،وظلت قائمة عليها،فهذا هو الحق.وإما خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى،فهذا هو الباطل ..هذا هو الباطل ولو ارتضاه الناس جميعا.

في فترة من فترات التاريخ.فالناس ليسوا هم الحكم في الحق والباطل.وليس الذي يقرره الناس هو الحق،وليس الذي يقرره الناس هو الدين.إن نظرة الإسلام تقوم ابتداء على أساس أن فعل الناس لشيء،وقولهم لشيء،وإقامة حياتهم على شيء ..لا تحيل هذا الشيء حقا إذا كان مخالفا للكتاب ولا تجعله أصلا من أصول الدين ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين ولا تبرره لأن أجيالا متعاقبة قامت عليه ..

وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى في عزل أصول الدين عما يدخله عليها الناس!

وفي التاريخ الإسلامي مثلا وقع انحراف،وظل ينمو وينمو ..فلا يقال:إن هذا الانحراف متى وقع وقامت عليه حياة الناس فهو إذن الصورة الواقعية للإسلام! كلا! إن الإسلام يظل بريئا من هذا الواقع التاريخي.ويظل هذا الذي وقع خطأ وانحرافا لا يصلح حجة

ولا سابقة ومن واجب من يريد استئناف حياة إسلامية أن يلغيه ويبطله،وأن يعود إلى الكتاب الذي أنزله اللّه بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..[٩١]

لقد كانت غزوة بدر – التي بدأت وانتهت بتدبير اللّه وتوجيهه وقيادته ومدده – فرقانا .. فرقانا بين الحق والباطل – كما يقول المفسرون إجمالا – وفرقانا بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيرا ..

كانت فرقانا بين الحق والباطل فعلا .. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض،وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء .. الحق الذي يتمثل في تفرد اللّه – سبحانه – بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير وفي عبودية الكون كله:سمائه وأرضه،أشيائه وأحيائه،لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد،ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك .. والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ويغشي على ذلك الحق الأصيل ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد اللّه بما تشاء،وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء! .. فهذا هو الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر حيث فرق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغي وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان! لقد كانت فرقانا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق،على أبعاد وآماد:كانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير .. فرقانا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور،وفي الخلق والسلوك،وفي العبادة والعبودية وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير اللّه من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات ...

وكانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك .. فرقانا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء،وللقيم والأوضاع،وللشرائع والقوانين،وللتقاليد والعادات ... وبين الرجوع في هذا كله للّه الواحد الذي لا إله غيره،ولا متسلط سواه،ولا حاكم من دونه،ولا مشرع إلا إياه .. فارتفعت الهامات لا تنحني لغير اللّه وتساوت الرؤوس لا تخضع إلا لحاكميته وشرعه وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة ..

---

[٩١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٤٤٨]

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية:عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار. وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع .. والإسلام بوصفه تصورا جديدا للحياة،ومنهجا جديدا للوجود الإنساني،ونظاما جديدا للمجتمع،وشكلا جديدا للدولة .. بوصفه إعلانا عاما لتحرير «الإنسان» في «الأرض» بتقرير ألوهية اللّه وحده وحاكميته،ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكميته .. الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع،لأنه لم يكن يملك أن يقف كامنا منتظرا على طول الأمد. لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه،تتمثل في شعائر تعبدية للّه،وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم. ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد،والمنهج الجديد،والدولة الجديدة،والمجتمع الجديد،في واقع الحياة وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي فى حياة المسلمين أولا ثم في حياة البشرية كلها أخيرا .. وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند اللّه ..[٩٢]

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ البشرية .. فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامي هي غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام .. هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام. وهذا النظام الجديد الذي انبثق من هذا التصور. وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلادا جديدا للإنسان. وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعي والتشريع القانوني سواء .. هذا كله لم يعد ملكا للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود المجتمع الجديد. إنما صار - شيئا فشيئا - ملكا للبشرية كلها تأثرت به سواء في دار الإسلام أم في خارجها،سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته! .. والصليبيون الذين زحفوا من الغرب،ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه في ربوعه،قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذي جاءوا ليحطموه وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعي الذي كان سائدا عندهم،بعد ما شاهدوا بقايا النظام

---

[٩٢] - يراجع ما جاء في الجزء التاسع عن أهداف الجهاد الإسلامي في تقديم سورة الأنفال:ص ١٤٣١ - ١٤٥٢.- دار الشروق

الاجتماعي الإسلامي! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه – بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام! – قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية في النهاية وحملوها لينشروها في رقعة من الأرض جديدة وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين في قلب أوربا! ..

وعلى أية حال فالتاريخ البشري كله – منذ وقعة بدر – متأثر بهذا الفرقان في أرض الإسلام،أو في الأرض التي تناهض الإسلام على السواء» .

وكانت فرقانا بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة. فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصبة المؤمنة،حتى لقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض:«غر هؤلاء دينهم» .. وقد أراد اللّه أن تجري المعركة على هذا النحو – وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة – لتكون فرقانا بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية،لا لمجرد السلاح والعتاد وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية،لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة وأن هذا ليس كلاما يقال،إنما هو واقع متحقق للعيان.

وأخيرا فلقد كانت بدر فرقانا بين الحق والباطل بمدلول آخر. ذلك المدلول الذي يوحي به قول اللّه تعالى في أوائل هذه السورة:«وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ،وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ،وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ،لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين،إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة. فأراد اللّه لهم غير ما أرادوا. أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة! وقال لهم اللّه – سبحانه – إنه صنع هذا:«لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ» ..

وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة .. إن الحق لا يحق،وإن الباطل لا يبطل – في المجتمع الإنساني – بمجرد البيان «النظري» للحق والباطل. ولا بمجرد الاعتقاد «النظري» بأن هذا حق وهذا باطل .. إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس. إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق،وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا،ويهزم جند الباطل ويندحروا ..

فهذا الدين منهج حركي واقعي،لا مجرد «نظرية» للمعرفة والجدل! أو لمجرد الاعتقاد السلبي! ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة وكان هذا النصر العملي فرقانا واقعيا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار

الذي أشار إليه قول اللّه تعالى في معرض بيان إرادته – سبحانه – من وراء المعركة،ومن وراء إخراج الرسول – ﷺ– من بيته بالحق ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة ..

ولقد كان هذا كله فرقانا في منهج هذا الدين ذاته،تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم .. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! [٩٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٩٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٥٢] وكان موضع هذه اللفتة في الجزء التاسع عند استعراض هذا النص.ولكن لم يفتح به علي وقتها،وفتح علي به هنا.والحمد للّه أولا وأخيرا

قال تعالى:« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ،فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ،فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» ..

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها،وحاضرها بماضيها،فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم،ولم تكن معارفهم،ولم تكن تجاربهم – قبل الإسلام – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة.لولا هذا الإسلام – وكتابه القرآن – الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى،وخلق به منهم أمة تقود الدنيا ..

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله،ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة وما جريات حياتهم فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها،فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعا ..وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة،ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة.بل حملتهم إليها! وارتقت بهم إلى مستواها،في ربع قرن من الزمان.على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية،إلا بعد أجيال وأجيال ..فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية،وأنه إلى الله تصير الأمور ..فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله،واتسع له تصورها،ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة،فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان – بعد هذا – إلى مشيئته الطليقة! «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» ..

وهي هي التي تحكم الحياة.وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة.فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله – بمشيئة الله – في زمانكم،وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم.

«فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» ..فالأرض كلها وحدة.والأرض كلها مسرح للحياة البشرية.والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر.

«فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» ..وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض،وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك ..ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة.بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه.

وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل ..وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة:

إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغدا.ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة.وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى.وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير.وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير.

وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان:«هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ،وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» ..

هذا بيان للناس كافة.فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادي.ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى،وتجد فيه الموعظة،وتنتفع به وتصل على هداه ..طائفة «المتقين» ..

إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى.والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها ..والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل،وبالهدى والضلال ..إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل.إنما تنقص الناس الرغبة في الحق،والقدرة على اختيار طريقه ..والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان،ولا يحفظهما إلا التقوى ..ومن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات.تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق،ومن هدى،ومن نور،ومن موعظة،ومن عبرة ..إنما هي للمؤمنين وللمتقين.فالإيمان والتقوى

هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة.وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة ..واحتمال مشقات الطريق ..وهذا هو الأمر،وهذا هو لب المسألة ..لا مجرد العلم والمعرفة ..فكم ممن يعلمون ويعرفون،وهم في حمأة الباطل يتمرغون.إما خضوعا لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة،وإما خوفا من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة![٩٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٩٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٧٧٦]

قال تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ» ..

وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب،من الإيمان إلى الكفر؟ وأي ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان؟

وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم،فهو وهم،يضرب السياق صفحا عنه،ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية:«بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ،وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ».

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية،ويطلبون عندها النصرة.ومن كان اللّه مولاه،فما حاجته بولاية أحد من خلقه؟ ومن كان اللّه ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد؟

ثم يمضي السياق يثبت قلوب المسلمين،ويبشرهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم،بسبب إشراكهم باللّه ما لم يترل به سلطانا،ولم يجعل له قوة وقدرة.وذلك فوق عذاب الآخرة المهيأ للظالمين:«سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً.وَمَأْواهُمُ النَّارُ،وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» ..

والوعد من اللّه الجليل القادر القاهر،بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا،كفيل بنهاية المعركة،وضمان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه ..

وهو وعد قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان.فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم،ويتحرك الرعب الملقى من اللّه في قلوبهم.ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين.حقيقة الشعور بولاية اللّه وحده،والثقة المطلقة بهذه الولاية،والتجرد من كل شائبة من شك في أن جند اللّه هم الغالبون،وأن اللّه غالب على أمره،وأن الذين كفروا غير معجزين في الأرض ولا سابقين للّه سبحانه!

والتعامل مع وعد اللّه هذا،مهما تكن ظواهر الأمور تخالفه،فوعد اللّه أصدق مما تـراه عيون البشر وتقدره عقولهم! إنه الرعب لأن قلوبهم خاوية من السند الصحيح.لأنهم لا يستندون إلى قوة ولا إلى ذي قوة.إنهم أشركوا باللّه آلهة لا سلطان لهـا،لأن اللّـه لم يمنحها سلطانا.

والتعبير:«ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً» ذو معنى عميق،وهو يصادفنا في القرآن كـثيرا.مـرة توصف به الآلهة المدعاة،ومرة توصف به العقائد الزائفة ..وهو يشير إلى حقيقة أساسية عميقة:

إن أية فكرة،أو عقيدة،أو شخصية،أو منظمة ..إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمـل من قوة كامنة وسلطان قاهر.هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها مـن «الحـق» أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام اللّه عليها الكون،ومع سنن اللّه التي تعمل في هذا الكون.وعندئذ يمنحها اللّه القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هـذا الوجود.وإلا فهي زائفة باطلة ضعيفة واهية،مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفـاش! والمشركون يشركون مع اللّه آلهة أخرى - في صور شتى - ويقوم الشرك ابتداء علـى إعطاء غير اللّه - سبحانه - شيئا ما من خصائص الألوهية ومظاهرها.وفي مقدمة هذه الخصائص حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها وحق وضع القيم التي يتحـاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم وحق الاستعلاء على العباد وإلـزامهم بالطاعـة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم ..ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطـاء هذه الخصائص لغير اللّه سبحانه،وواحدة منها! فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الـذي أقام اللّه عليه الكون؟ إن اللّه الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى خالقه الواحد وخلق هذه الخلائق لتقر له بالعبودية وحده بلا شريك ولتتلقى منه الشريعة والقيم بلا منـازع ولتعبده وحده حق عبادته بلا أنداد ..فكل ما يخرج على قاعدة التوحيـد في معناهـا الشامل،فهو زائف باطل،مناقض للحق الكامن في بنية الكون.ومن ثم فهو واه هزيل،لا يحمل قوة ولا سلطانا،ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة بل لا يملك عناصر الحيـاة ولا حق الحياة! وما دام أولئك المشركون يشركون باللّه ما لم يترل به سلطانا مـن الآلهـة

والعقائد والتصورات فهم يرتكنون إلى ضعف وخواء،وهم أبدا خوارون ضعفاء وهم أبدا في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذي السلطان ..

وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل ..وكم من مرة وقف الباطل مدججا بالسلاح أمام الحق الأعزل.ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب،ويرتجف من كل حركة وكل صوت - وهو في حشده المسلح المحشود! فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل ولو كانت له الحشود،وكان للحق القلة،تصديقا لوعد اللّه الصادق:«سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً» ..ذلك في الدنيا.فأما في الآخرة ..فهناك المصير المحزن البائس الذي يليق بالظالمين.«وَمَأْواهُمُ النَّارُ.وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ!» ..[٩٥]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٩٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٧٩٢]

قال تعالى:« وَلا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ،إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً،يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ،وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ.إِنَّ الَّذينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً،وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ،إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً،وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ.ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ،حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ،وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ،وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ،فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ،وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» ..

إن هذا الختام هو أنسب ختام لاستعراض الغزوة التي أصيب فيها المسلمون هذه الإصابة والتي رجع منها المشركون بالنصر والغلبة ..فهناك دائما تلك الشبهة الكاذبة التي تحيك في بعض الصدور أو الأمنية العاتبة التي همس في بعض القلوب،أمام المعارك التي تنشب بين الحق والباطل.ثم يعود فيها الحق بمثل هذه الإصابة،ويعود منها الباطل ذا صولة وجولة! هناك دائما الشبهة الكاذبة،أو الأمنية العاتبة:لماذا يا رب؟ لماذا يصاب الحق وينجو الباطل؟ لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل؟ ولما ذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل،ويعود بالغلبة والغنيمة؟ أليس هو الحق الذي ينبغي أن ينتصر؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة؟ وفيم يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة،وفيها فتنة للقلوب وهزة؟! ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أحد في دهشة واستغراب:«أَنَّى هذا؟!» ..

ففي هذا المقطع الختامي يجيء الجواب الأخير،والبيان الأخير.ويريح اللّه القلوب المتعبة،ويجلو كل خاطرة تتدسس إلى القلوب من هذه الناحية،ويبين سنته وقدره وتدبيره في الأمر كله:أمس واليوم وغدا وحيثما التقى الحق والباطل في معركة فانتهت بمثل هذه النهاية:

إن ذهاب الباطل ناجيا في معركة من المعارك.وبقاءه منتفشا فترة من الزمان،ليس معناه أن اللّه تاركه،أو أنه من القوة بحيث لا يغلب،أو بحيث يضر الحق ضررا باقيا قاضيا ..

وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك،وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان،ليس معناه أن اللّه مجافيه أو ناسيه! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه ..

كلا.إنما هي حكمة وتدبير ..هنا وهناك ..يملى للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق وليرتكب أبشع الآثام،وليحمل أثقل الأوزار،ولينال أشد العذاب باستحقاق! ..ويبتلى الحق،ليميز الخبيث من الطيب،ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ويثبت ..فهو الكسب للحق والخسار للباطل،مضاعفا هذا وذاك! هنا وهناك! «وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ،إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً،يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ،وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» ..

إنه يواسي النبي - ﷺ- ويدفع عنه الحزن الذي يساور خاطره وهو يرى المغالين في الكفر،يسارعون فيه،ويمضون بعنف واندفاع وسرعة،كأنما هنالك هدف منصوب لهم يسارعون إلى بلوغه! وهو تعبير مصور لحالة نفسية واقعية.فبعض الناس يرى مشتدا في طريق الكفر والباطل والشر والمعصية كأنه يجهد لنيل السبق فيه! فهو يمضي في عنف واندفاع وحماسة كأن هناك من يطارده من الخلف،أو من يهتف له من الأمام،إلى جائزة تنال! وكان الحزن يساور قلب رسول اللّه - ﷺ- حسرة على هؤلاء العباد الذين يراهم مشمرين ساعين إلى النار،وهو لا يملك لهم ردا،وهم لا يسمعون له نذارة! وكان الحزن يساور قلبه كذلك لما يثيره هؤلاء المشمرون إلى النار المسارعون في الكفر،من الشر والأذى يصيب المسلمين،ويصيب دعوة اللّه،وسيرها بين الجماهير،التي كانت تنتظر نتائج المعركة مع قريش لتختار الصف الذي تنحاز إليه في النهاية ..فلما أسلمت قريش واستسلمت دخل الناس في دين اللّه أفواجا ..ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الاعتبار ات وقعها في قلب الرسول الكريم.فيطمئن اللّه رسوله - ﷺ- ويواسي قلبه،ويمسح عنه الحزن الذي يساوره.

«وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ.إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً» ..

وهؤلاء العباد المهازيل لا يبلغون أن يضروا اللّه شيئا.والأمر في هذا لا يحتاج إلى بيان.إنما يريد اللّه سبحانه أن يجعل قضية العقيدة قضيته هو وأن يجعل المعركة مع المشركين معركته هو.ويريد أن يرفع عبء هذه العقيدة وعبء هذه المعركة عن عاتق الرسول - ﷺ- وعاتق المسلمين جملة ..فالذين يسارعون في الكفر يحاربون اللّه،وهم أضعف من أن يضروا اللّه شيئا ..وهم إذن لن يضروا دعوته.ولن يضروا حملة هذه الدعوة.مهما سارعوا في الكفر،ومهما أصابوا أولياء اللّه بالأذى.

إذن لماذا يتركهم اللّه يذهبون ناجين،وينتفشون غالبين،وهم أعداؤه المباشرون؟

لأنه يدبر لهم ما هو أنكى وأخزى! «يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ» ..

يريد لهم أن يستنفدوا رصيدهم كله وأن يحملوا وزرهم كله،وأن يستحقوا عذابهم كله،وأن يمضوا مسارعين في الكفر إلى نهاية الطريق! «وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» ..

ولما ذا يريد اللّه بهم هذه النهاية الفظيعة؟ لأنهم استحقوها بشرائهم الكفر بالإيمان.

«إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» ..

ولقد كان الإيمان في متناول أيديهم.دلائله مبثوثة في صفحات الكون،وفي أعماق الفطرة.وأماراته قائمة في «تصميم» هذا الوجود العجيب،وفي تناسقه وتكامله الغريب،وقائمة كذلك في «تصميم» الفطرة المباشرة،وتجاوبها مع هذا الوجود،وشعورها باليد الصانعة،وبطابع الصنعة البارعة ..ثم إن الدعوة إلى الإيمان - بعد هذا كله - قائمة على لسان الرسل،وقائمة في طبيعة الدعوة وما فيها من تلبية الفطرة،ومن جمال التناسق،ومن صلاحية للحياة والناس ..

أجل كان الإيمان مبذولا لهم،فباعوه واشتروا به الكفر،على علم وعن بينة،ومن هنا استحقوا أن يتركهم اللّه يسارعون في الكفر،ليستنفدوا رصيدهم كله،ولا يستبقوا لهم حظا من ثواب الآخرة.ومن هنا كذلك كانوا أضعف من أن يضروا اللّه شيئا.فهم في ضلالة كاملة ليس معهم من الحق شيء.و لم ينزل اللّه بالضلالة سلطانا و لم يجعل في الباطل قوة.فهم أضعف من أن يضروا أولياء اللّه ودعوته،بهذه القوة الضئيلة الهزيلة،مهما

انتفشت،ومهما أوقعت بالمؤمنين من أذى وقتي إلى حين! «وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» ..أشد إيلاما – بما لا يقاس – مما يملكون إيقاعه بالمؤمنين من آلام!

«وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ.إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً.وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» ..وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور،والشبهة التي تجول في بعض القلوب،والعتاب الذي تجيش به بعض الأرواح،وهي ترى أعداء اللّه وأعداء الحق،متروكين لا يأخذهم العذاب،ممتعين في ظاهر الأمر،بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون باللّه غير الحق ظن الجاهلية يحسبون أن اللّه – حاشاه – يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان،فيملي له ويرخي له العنان! أو يحسبون أن اللّه – سبحانه – لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل،فيدع للباطل أن يحطم الحق،ولا يتدخل لنصرته! أو يحسبون أن هذا الباطل حق،وإلا فلم تركه اللّه ينمو ويكبر ويغلب؟! أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض،وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر! ثم ..يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين،يلجون في عتوهم،ويسارعون في كفرهم،ويلجون في طغيانهم،ويظنون أن الأمر قد استقام لهم،وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم!!!

وهذا كله وهم باطل،وظن باللّه غير الحق،والأمر ليس كذلك.وها هو ذا اللّه سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن ..إنه إذا كان اللّه لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه،وإذا كان يعطيهم حظا في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه ..إذا كان اللّه يأخذهم بهذا الابتلاء،فإنما هي الفتنة وإنما هو الكيد المتين،وإنما هو الاستدراج البعيد:« وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ..إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً»! ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم اللّه من غمرة النعمة،بالابتلاء الموقظ،لابتلاهم ..ولكنه لا يريد بهم خيرا،وقد اشتروا الكفر بالإيمان،وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم اللّه من هذه الغمرة – غمرة النعمة

والسلطان – بالابتلاء ! «وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» ..والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء.

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من اللّه نعمة لا تصيب إلا من يريد له اللّه به الخير.فإذا أصابت أولياءه،فإنما تصيبهم لخير يريده اللّه لهم – ولو وقع الابتلاء مترتبا على تصرفات هؤلاء الأولياء – فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف،وفضل اللّه على أوليائه المؤمنين.

وهكذا تستقر القلوب،وتطمئن النفوس،وتستقر الحقائق الأصيلة البسيطة في التصور الإسلامي الواضح المستقيم.

ولقد شاءت حكمة اللّه وبره بالمؤمنين،أن يميزهم من المنافقين،الذين اندسوا في الصفوف،تحت تأثير ملابسات شتى،ليست من حب الإسلام في شيء[96].فابتلاهم اللّه هذا الابتلاء – في أحد – بسبب من تصرفاتهم وتصوراتهم،ليميز الخبيث من الطيب،عن هذا الطريق:«ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ.وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ.فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ.وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» ..

ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن اللّه – سبحانه – وليس من مقتضى ألوهيته،وليس من فعل سنته،أن يدع الصف المسلم مختلطا غير مميز يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان،ومظهر الإسلام،بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان،ومن روح الإسلام.فقد أخرج اللّه الأمة المسلمة لتؤدي دورا كونيا كبيرا،ولتحمل منهجا إلهيا عظيما،ولتنشئ في الأرض واقعا فريدا،ونظاما جديدا ..وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك،ويقتضي ألا يكون في الصف خلل،ولا في بنائه دخل ..وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره اللّه لها في هذه الأرض وتسامي المكانة التي أعدها اللّه لها في الآخرة ..

[96] – ص ٣١ من الجزء الأول من الظلال.

وكل هذا يقتضي أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث.وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة.وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر ..ومن ثم كان شأن اللّه – سبحانه – أن يميز الخبيث من الطيب،ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة! كذلك ما كان من شأن اللّه – سبحانه – أن يطلع البشر على الغيب،الذي استأثر به،فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التي فطرهم عليها للاطلاع على الغيب،وجهازهم البشري الذي أعطاه اللّه لهم ليس «مصمما» على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار.وهو مصمم هكذا بحكمة.مصمم لأداء وظيفة الخلافة في الأرض.

وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب.ولو فتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم.لأنه ليس معدا لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه،ويصل كيانه بكيان هذا الكون.وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها،ألا يحرك يدا ولا رجلا في عمارة الأرض،أو أن يظل قلقا مشغولا بهذه المصائر،بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض! من أجل ذلك لم يكن من شأن اللّه سبحانه،ولا من مقتضى حكمته،ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب.

إذن كيف يميز اللّه الخبيث من الطيب؟ وكيف يحقق شأنه وسنته في تطهير الصف المسلم،وتجريده من الغبش،وتمحيصه من النفاق،وإعداده للدور الكوني العظيم،الذي أخرج الأمة المسلمة لتنهض به؟

«وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ» ..وعن طريق الرسالة،وعن طريق الإيمان بها أو الكفر،وعن طريق جهاد الرسل في تحقيق مقتضى الرسالة،وعن طريق الابتلاء لأصحابها في طريق الجهاد ..عن طريق هذا كله يتم شأن اللّه،وتتحقق سنته،ويميز اللّه الخبيث من الطيب،ويمحص القلوب،ويطهر النفوس ..ويكون من قدر اللّه ما يكون ..

وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة اللّه،وهي تتحقق في الحياة وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة ..

وأمام مشهد الحقيقة متجلية بسيطة مريحة،يتجه إلى الذين آمنوا ليحققـوا في ذواقمـم مدلول الإيمان ومقتضاه،ويلوح لهم بفضل اللّه العظيم،الذي ينتظر المؤمنين.

«فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِه.وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» ..فيكون هذا التوجيه وهـذا الترغيب،بعد ذلك البيان وذلك الاطمئنان،خير خاتمة لاستعراض الأحداث في «أحـد» والتعقيب على هذه الأحداث ..[٩٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٩٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٨٣٢]

قال تعالى:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ،يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا! أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ.وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً.أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً.أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً.فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً» ..

لقد كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب،أولى الناس أن يتبعوا الكتاب وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من اللّه هدى وأن يحكموا كتاب اللّه في حياتهم،فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به اللّه،وكل حكم ليس له من شريعة اللّه سند - ولكن اليهود - الذين كانوا يزكون أنفسهم،ويتباهون بأنهم أحباء اللّه - كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به اللّه.وكانوا يؤمنون بالطاغوت وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة اللّه ..وهو طاغوت لما فيه من طغيان - بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية - وهي الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع اللّه،تلزمه العدل والحق.فهو طغيان،وهو طاغوت والمؤمنون به والمتبعون له،مشركون أو كافرون ..يعجب اللّه من أمرهم،وقد أوتوا نصيبا من الكتاب،فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب!

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت،موقفهم في صف المشركين الكفار،ضد المؤمنين الذين آتاهم اللّه الكتاب أيضا:«وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ..

وعن ابن عباس قال:كان الذين حَزَّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة:حيي بن أخطب،وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع،والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق،وأبو عمار،ووَحْوَح بن عامر،وهوذة بن قيس = فأما وحوح وأبو عمار وهوذة،فمن بني

وائل،وكان سائرهم من بني النضير = فلما قدموا على قريش قالوا:هؤلاء أحبار يهــود وأهل العلم بالكتب الأوَل،فاسألوهم:أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم،فقالوا:بــل دينكم خير من دينه،وأنتم أهدى منه وممن اتبعه! فأنزل الله فيهم:"ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت"،إلى قوله:"وآتيناهم ملكًا عظيمًا"[98] ..

وهذا لعن لهم،وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة.

لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين.وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرهم.وقد أجابوهم،وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي - ﷺ- وأصحابه حول المدينــة الخندق،وكفى اللّه شرهم «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً.وَكَفَى اللَّــهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ،وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً».

وكان عجيبا أن يقول اليهود:إن دين المشركين خير من دين محمــد ومــن معــه،وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب اللّه ورسوله - ﷺ- ولكن هذا لــيس بالعجيب من اليهود ..إنه موقفهم دائما من الحق والباطل،ومن أهل الحق وأهل الباطل ..إنهم ذوو أطماع لا تنتهي،وذوو أهواء لا تعتدل،وذوو أحقاد لا تزول!

وهم لا يجدون عند الحق وأهله عونا لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم.إنما يجدون العون والنصرة - دائما - عند الباطل وأهله.ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق ولأهل الباطل ضد أهل الحق! هذه حال دائمة،سببها كذلك قائم ..وكان طبيعيا منهم ومنطقيا أن يقولوا عن الذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا!

وهم يقولونها اليوم وغدا.إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كــل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها - بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته - لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها.

---

[98] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٨ /٤٦٩](٩٧٩٢) وله شاهد من مرسل عكرمة :؟ عند ابن جرير (٨ / ٤٦٩ شاكر) وإسناده رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم فيحسن به

ولكنهم أحيانا – لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة ولملابسات العصر الحديث – قد لا يثنون ثناء مكشوفا على الباطل وأهله.بل يكتفون بتشويه الحق وأهله.ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه.ذلك أن ثناءهم المكشوف – في هذا الزمان – أصبح متهما،وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين،الذين يعملون لحسابهم،في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان ..بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحيانا،أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم،الذين يسحقون لهم الحق وأهله.ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام.ليبعدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم،الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة! ولكنهم لا يكفون أبدا عن تشويه الإسلام وأهله ..لأن حقدهم على الإسلام،وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي،أضخم من أن يداروه ..ولو للخداع والتمويه!

إنها جبلة واحدة،وخطة واحدة،وغاية واحدة ..هي التي من أجلها يجبههم اللّه باللعنة والطرد،وفقدان النصير.والذي يفقد نصرة اللّه فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين:«أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ.وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً» ..

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيرا لليهود.فنسأل:وأين وعد اللّه بأنه لعنهم،وأن من يلعن اللّه فلن تجد له نصيرا؟

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس.ليس هو الدول.ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ.

إنما الناصر الحق هو اللّه.القاهر فوق عباده:ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ! واللّه ناصر من ينصره ..«وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» واللّه معين من يؤمن به حق الإيمان،ويتبع منهجه حق الاتباع ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم ..

ولقد كان اللّه – سبحانه – يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به،متبعة لمنهجه،محتكمة إلى شريعته.وكان يهوّن من شأن عدوها – اليهود – وناصريهم.وكان يعد المسلمين النصر

عليهم لأنهم – اليهود – لا نصير لهم.وقد حقق اللّه لهم وعده.وعده الذي لا يناله إلا المؤمنون حقا.والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم.

فلا يهولننا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود.فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين ..فليست هذه هي النصرة ..ولكن كذلك لا يخدعننا هذا.فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! يوم يكونون مسلمين! وليحاول المسلمون أن يجربوا – مرة واحدة – أن يكونوا مسلمين.ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير.أو أن ينفعهم هذا النصير! وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم وإعلان اللعنة عليهم والخذلان ..يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول – ﷺ – والمسلمين وغيظهم من أن يمن اللّه عليهم هذه المنة ..منة الدين والنصر والتمكين.وحسدهم لهم على ما أعطاهم اللّه من فضله.وهم لم يعطوهم من عندهم شيئا![99]

لقد جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق،ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته،ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل،التي شاعت في الجاهليات كلها.وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم،وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه!

وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول،وتقديمها للناس مبرأة من كل ما علق بصورة النبوة وصورة النبي من أوهام وأضاليل.يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها،ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها ..فالرسول الذي يقدمها للناس بشر،لا يملك خزائن اللّه،ولا يعلم الغيب،ولا يقول لهم:إني ملك ..وهو لا يتلقى إلا من ربه،ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه.والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند اللّه،وعليه أن يلزمهم،وأن يهش لهم،وأن يبلغهم ما كتبه اللّه لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة.

[99] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٠١٩]

كما أن عليه إنذار الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة ليصلوا إلى مرتبة التقوى،وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته،كما أنه في «البشرية» وفي «تلقي الوحي» تنحصر حقيقته.فتصح في التصورات حقيقته ووظيفته جميعا ..ثم إنه بهذا التصحيح،وبهذا الإنذار،تستبين سبيل المجرمين،عند مفرق الطريق،ويتضح الحق والباطل،وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة،كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال،وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين.وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية،وعلاقة الرسول بها،وعلاقة الناس جميعا - الطائعين منهم والعصاة - ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة.فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى.واللّه كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تابوا منها وأصلحوا بعدها.وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين،فيؤمن من يؤمن عن بينة،ويضل من يضل عن بينة،ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون.[100]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[100] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٥١٥]

إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي – ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان – والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال:

أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق اللّه وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى وكتبها على الرسل،وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة،والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع اللّه،والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال؟ وبتعبير آخر:أتكون الألوهية والربوبية والقوامة للّه في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به اللّه؟

اللّه – سبحانه – يقول:إنه هو اللّه لا إله إلا هو.وإن شرائعه التي سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له،وعاهدهم عليها وعلى القيام بها هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض،وهي التي يجب أن يتحاكم إليها الناس،وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام ..

واللّه – سبحانه – يقول:إنه لا هوادة في هذا الأمر،ولا ترخص في شيء منه،ولا انحراف عن جانب ولو صغير.وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل،أو لما اصطلح عليه قبيل،مما لم يأذن به اللّه في قليل ولا كثير! واللّه – سبحانه – يقول:إن المسألة – في هذا كله – مسألة إيمان أو كفر أو إسلام أو جاهلية وشرع أو هوى.وإنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل اللّه – لا يخرمون منه حرفا ولا يبدلون منه شيئا – والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل اللّه.

وأنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة اللّه كاملة فهم في نطاق الإيمان.وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به اللّه،فهم الكافرون الظالمون الفاسقون.وأن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم اللّه وقضاءه في أمورهم

فهم مؤمنون ..وإلا فما هم بالمؤمنين ..ولا وسط بين هذا الطريق وذاك ولا حجة ولا معذرة،ولا احتجاج بمصلحة.فاللّه رب الناس يعلم ما يصلح للناس ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية.وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة.وليس لأحد من عباده أن يقول:إنني أرفض شريعة اللّه،أو إنني أبصر بمصلحة الخلق من اللّه ..فإن قالها – بلسانه أو بفعله – فقد خرج من نطاق الإيمان ..

هذه هي القضية الخطيرة الكبيرة التي يعالجها هذا الدرس في نصوص تقريرية صريحة ..ذلك إلى جانب ما يصوره من حال اليهود في المدينة،ومناوراتهم ومؤامراتهم مع المنافقين:«مِنَ الَّذِينَ قالُوا:آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ».وما يوجه به رسول اللّه – ﷺ– لمواجهة هذا الكيد الذي لم تكف عنه يهود،منذ أن قامت للإسلام دولة في المدينة ..

والسياق القرآني في هذا الدرس يقرر:

أولا:توافي الديانات التي جاءت من عند اللّه كلها على تحتيم الحكم بما أنزله اللّه وإقامة الحياة كلها على شريعة اللّه وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر وبين الإسلام والجاهلية وبين الشرع والهوى ..فالتوراة أنزلها اللّه فيها هدى ونور:«يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ» ..«وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ» ..«وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ..إلخ» ..والإنجيل آتاه اللّه عيسى بن مريم «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ» ..والقرآن أنزله اللّه على رسوله «بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ» وقال له:«فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» ..«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ» ..«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ..«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» ..«أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟» ..وكذلك تتوافى الديانات كلها على هذا الأمر،ويتعين حد الإيمان وشرط الإسلام،سواء

للمحكومين أو للحكام ..والمناط هو الحكم بما أنزل اللّه من الحكام،وقبول هذا الحكم من المحكومين،وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام ..

والمسألة في هذا الوضع خطيرة والتشدد فيها على هذا النحو يستند إلى أسباب لا بد خطيرة كذلك.فما هي يا ترى هذه الأسباب؟ إننا نحاول أن نتلمسها سواء في هذه النصوص أو في السياق القرآني كله،فنجدها واضحة بارزة ..إن الاعتبار الأول في هذه القضية هو أنها قضية الإقرار بألوهية اللّه وربوبيته وقوامته على البشر – بلا شريك – أو رفض هذا الإقرار ..ومن هنا هي قضية كفر أو إيمان،وجاهلية أو إسلام ....والقرآن كله معرض بيان هذه الحقيقة ..

إن اللّه هو الخالق ..خلق هذا الكون،وخلق هذا الإنسان.وسخر ما في السماوات والأرض لهذا الإنسان ..وهو – سبحانه – متفرد بالخلق،لا شريك له في كثير منه أو قليل.

وإن اللّه هو المالك ..بما أنه هو الخالق ..وللّه ملك السماوات والأرض وما بينهما ..فهو – سبحانه – متفرد بالملك.لا شريك له في كثير منه أو قليل.وإن اللّه هو الرازق ..فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئا.لا من الكثير ولا من القليل ..وإن اللّه هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس ..بما أنه هو الخالق المالك الرازق ..وبما أنه هو صاحب القدرة التي لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر.وهو – سبحانه – المتفرد بالسلطان في هذا الوجود.

والإيمان هو الإقرار للّه – سبحانه – بهذه الخصائص.الألوهية،والملك،والسلطان ..متفردا بها لا يشاركه فيها أحد.والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص ..هو إفراد اللّه – سبحانه – بالألوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله – وحياة الناس ضمنا – والاعتراف بسلطانه الممثل في قدره والممثل كذلك في شريعته.فمعنى الاستسلام لشريعة اللّه هو – قبل كل شيء – الاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته وسلطانه.ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة،واتخاذ شريعة غيرها في أية جزئية من جزئيات الحياة،هو – قبل كل شيء – رفض الاعتراف بألوهية اللّه

وربوبيته وقوامته وسلطانه ..ويستوي أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول ..وهي من ثم قضية كفر أو إيمان وجاهلية أو إسلام.ومن هنا يجيء هذا النص:«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ» ..«الظالمون» ..«الفاسقون».

والاعتبار الثاني هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة اللّه على شرائع الناس ..هذه الأفضلية التي تشير إليها الآية الأخيرة في هذا الدرس:«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟» ..والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة اللّه،في كل طور من أطوار الجماعة،وفي كل حالة من حالاتها ..

هو كذلك داخل في قضية الكفر والإيمان ..فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر،تفضل أو تماثل شريعة اللّه،في أية حالة أو في أي طور من أطوار الجماعة الإنسانية ..ثم يدعي – بعد ذلك – أنه مؤمن باللّه،وأنه من المسلمين ..إنه يدعي أنه أعلم من اللّه بحال الناس وأحكم من اللّه في تدبير أمرهم.أو يدعي أن أحوالا وحاجات جرت في حياة الناس،وكان اللّه – سبحانه – غير عالم بها وهو يشرع شريعته أو كان عالما بها ولكنه لم يشرع لها!

ولا تستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام.مهما قالها باللسان! فأما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها.فإن حكمة شرائع اللّه لا تنكشف كلها للناس في جيل من الأجيال.والبعض الذي ينكشف يصعب التوسع في عرضه هنا ..في الظلال ..فنكتفي منه ببعض اللمسات:

إن شريعة اللّه تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية في جميع حالاتها،وفي كل صورها وأشكالها ..

وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني،والحاجات الإنسانية،وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية ..ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس

الكونية إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق ..الأمر الذي لا يتوافر أبدا لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهرا من الأمر وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض.والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم[١٠١].

وهو منهج قائم على العدل المطلق ..أولا ..لأن اللّه يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق ..وثانيا ..لأنه – سبحانه – رب الجميع فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع وأن يجيء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف – كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط – الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان،ذي الشهوات والميول،والضعف والهوى – فوق ما به من الجهل والقصور – سواء كان المشرع فردا،أو طبقة،أو أمة،أو جيلا من أجيال البشر ..فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد ..

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله.لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله.صانع الكون وصانع الإنسان.فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كوني،له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه بشرط السير على هداه،وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها ..ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعا كونيا،ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب،ولا مع بني جنسه فحسب! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض،الذي يعيش فيه،ولا يملك أن ينفذ منه،ولا بدّ له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم.

---

[١٠١] – يراجع بتوسع كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة» فصل:«تخبط واضطراب».«دار الشروق».

ثم ..إنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان ..ففي كل منهج – غير المنهج الإسلامي – يتعبد الناس الناس.ويعبد الناس الناس.وفي المنهج الإسلامي – وحده – يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده بلا شريك ..

إن أخص خصائص الألوهية – كما أسلفنا – هي الحاكمية ..والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها.فهم عبيده لا عبيد اللّه،وهم في دينه لا في دين اللّه.

والإسلام حين يجعل الشريعة للّه وحده،يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده،ويعلن تحرير الإنسان.بل يعلن «ميلاد الإنسان» ..فالإنسان لا يولد،ولا يوجد،إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله وإلا حين يتساوى في هذا الشأن مع الناس جميعا أمام رب الناس ..

إن هذه القضية التي تعالجها نصوص هذا الدرس هي أخطر وأكبر قضايا العقيدة ..إنها قضية الألوهية والعبودية.قضية العدل والصلاح.قضية الحرية والمساواة.قضية تحرر الإنسان – بل ميلاد الإنسان – وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان،وقضية الجاهلية أو الإسلام ..[١٠٢]

والجاهلية ليست فترة تاريخية إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوّماتها في وضع أو نظام ..وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر،لا إلى منهج اللّه وشريعته للحياة.ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد،أو أهواء طبقة،أو أهواء أمة،أو أهواء جيل كامل من الناس ..فكلها ..ما دامت لا ترجع إلى شريعة اللّه ..أهواء ..

يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية.لأن هواه هو القانون ..أو رأيه هو القانون ..لا فرق إلا في العبارات! وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية.لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون – أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات!

---

[١٠٢] – يراجع بتوسع كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» وكتاب:«هذا الدين» وكتاب:«المستقبل لهذا الدين».«دار الشروق»

ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية ..لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدا من الأهواء،ولأن جهل الناس الذين لا يتجـــردون أبدا من الجهل،هو القانون – أو لأن رأي الشعب هو القـــانون – فـــلا فـــرق إلا في العبارات! وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية.لأن أهدافها القومية هي القانون – أو رأي المجامع الدولية هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات! ويشرع خالق الأفراد،وخالق الجماعات،وخالق الأمم والأجيال،للجميع،فإذا هي شريعة اللّه الـــتي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد.لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولـــة،ولا لجيـــل مـــن الأجيال.لأن اللّه رب الجميع والكل لديه سواء.ولأن اللّه يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع،فلا يفوته – سبحانه – أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط.

ويشرع غير اللّه للناس ..فإذا هم عبيد من يشرع لهم.كائنا من كان.فردا أو طبقـــة أو أمة أو مجموعة من الأمم ..ويشرع اللّه للناس ..فإذا هم كلهم أحـــرار متســـاوون،لا يحنون جباههم إلا للّه،ولا يعبدون إلا اللّه.

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان،وفي نظام الكون كله:«وَلَـــوِ اتَّبَـــعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» ..فالحكم بغير ما أنـــزل اللّـــه معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان ..بنص القرآن[١٠٣] ..

وقال تعالى:« وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ،مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتـــابِ وَمُهَيْمِنـــاً عَلَيْهِ،فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ،وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ.لِكُـــلٍّ جَعَلْنـــا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً.وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً.وَلكِـــنْ لِيَبْلُـــوَكُمْ فِـــي مـــا آتاكُمْ،فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ.إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً،فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ،وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ.وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْـــزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ،وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ.أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ..»

---

[١٠٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٢٧١]

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير،وهذا الحسم في التقرير،وهـــذا الاحتيـــاط البالغ لكل ما قد يهجس في الخاطر من مبررات لترك شيء - ولو قليل - مـــن هـــذه الشريعة في بعض الملابسات والظروف

يقف الإنسان أمام هذا كله،فيعجب كيف ساغ لمسلم - يدعي الإسلام - أن يتـــرك شريعة اللّه كلها،بدعوى الملابسات والظروف! وكيف ساغ له أن يظل يدعي الإسلام بعد هذا الترك الكلي لشريعة اللّه! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم «مسلمين»؟! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم،وهم يخلعون شريعة اللّه كلها ويرفضون الإقرار له بالألوهية،في صورة رفضهم الإقرار بشريعته،وبصلاحية هذه الشريعة في جميع الملابسات والظروف،وبضرورة تطبيقها كلها في جميع الملابسات والظـــروف! «وَأَنْزَلْنـــا إِلَيْـــكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ» ..

يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهيـــة،وهي الجهـــة الـــتي تملـــك حـــق تتريـــل الشرائع،وفرض القوانين ..

ويتمثل الحق في محتوياته،وفي كل ما يعرض له من شئون العقيدة والشريعة،وفي كل مـــا يقصه من خبر،وما يحمله من توجيه:«مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْـــهِ» ..

فهو الصورة الأخيرة لدين اللّه،وهو المرجع الأخير في هذا الشـــأن،والمرجع الأخـــير في منهج الحياة وشرائع الناس،ونظام حياتهم،بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل.

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيـــه.ســـواء كـــان هـــذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية،أو في الشريعة الـــتي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخـــيرة.أو كـــان هـــذا الاخـــتلاف بـــين المســـلمين أنفسهم،فالمرجع الذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياة كله هو هـــذا الكتـــاب،ولا قيمة لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير.

وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة:«فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّـــهُ،وَلا تَتَّبِـــعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» ..

والأمر موجه ابتداء إلى رسول اللّه – ﷺ- فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الـذين يجيئون إليه متحاكمين.ولكنه ليس خاصا بهذا السبب،بل هو عام ..وإلى آخر الزمـان ..طالما أنه ليس هناك رسول جديد،ولا رسالة جديدة،لتعديل شيء ما في هذا المرجـع الأخير! لقد كمل هذا الدين،وتمت به نعمة اللّه على المسلمين.ورضيه اللّه لهم منـهج حياة للناس أجمعين.و لم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله،ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر،ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى.وقد علم اللّه حـين رضيه للناس،أنه يسع الناس جميعا.وعلم اللّه حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقـق الخـير للناس جميعا.وأنه يسع حياة الناس جميعا،إلى يوم الدين.وأي تعديل في هـذا المنـهج – ودعك من العدول عنه – هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة.يخرج صاحبه مـن هذا الدين.ولو قال باللسان ألف مرة:إنه من المسلمين! وقد علم اللّه أن معاذير كـثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل اللّه واتبـاع أهـواء المحكـومين المتحاكمين ..وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل اللّه كله بلا عـدول عن شيء فيه،في بعض الملابسات والظروف.فحذر اللّه نبيه – ﷺ- في هـذه الآيـات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين،ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل اللّه إليه ..

وأولى هذه الهواجس:الرغبة البشرية الخفيـة في تـأليف القلـوب بـين الطوائـف المتعددة،والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد.ومسايرة بعض رغباتهم عنـد مـا تصطدم ببعض أحكام الشريعة،والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة،أو التي يبدو أنهـا ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول اللّه – ﷺ- أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم.وأن هذا التحذير قد نزل بخصـوص هـذا العرض ..ولكن الأمر – كما هو ظاهر – أعم من حالة بعينها وعرض بعينه.فهو أمـر يعرض في مناسبات شتى،ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين ..وقد شـاء اللّه – سبحانه – أن يحسم في هذا الأمر،وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفيـة

في التساهل مراعاة للاعتبار ات والظروف،وتأليفا للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء.

فقال لنبيه:إن اللّه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهاجا وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة،وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا.وأن كلا منهم يسلك طريقه ثم يرجعون كلهم إلى اللّه،فينبئهم بالحقيقة،ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق ..وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج ..فهم لا يتجمعون:«لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً.وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً.وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ.فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ.إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً.فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

بذلك أغلق اللّه – سبحانه – مداخل الشيطان كلها وبخاصة ما يبدو منها خيرا وتأليفا للقلوب وتجميعا للصفوف بالتساهل في شيء من شريعة اللّه في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف!

إن شريعة اللّه أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر اللّه ألا يكون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد،ولكل منهم مشرب،ولكل منهم منهج،ولكل منهم طريق.ولحكمة من حكم اللّه خلقوا هكذا مختلفين.

وقد عرض اللّه عليهم الهدى وتركهم يستبقون.وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه،وهم إليه راجعون وإنها لتعلة باطلة إذن،ومحاولة فاشلة،أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة اللّه،أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها.فالعدول أو التعديل في شريعة اللّه لا يعني شيئا إلا الفساد في الأرض،وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم،وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر،وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض،واتخاذ بعضهم لبعض أربابا من دون اللّه ..وهو شر عظيم وفساد عظيم ..لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون لأنها غير ما قدره اللّه في طبيعة البشر ولأنها مضادة للحكمة التي من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج

والمشارع،والاتجاهات والمشارب ..وهو خالق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير.وإليه المرجع والمصير ..

إن محاولة التساهل في شيء من شريعة الله،لمثل هذا الغرض،تبدو – في ظل هذا النص الصادق الذي يبدو مصداقه في واقع الحياة البشرية في كل ناحية – محاولة سخيفة لا مبرر لها من الواقع ولا سند لها من إرادة الله ولا قبول لها في حس المسلم،الذي لا يحاول إلا تحقيق مشيئة الله.فكيف وبعض من يسمون أنفسهم «مسلمين» يقولون:إنه لا يجوز تطبيق الشريعة حتى لا نخسر «السائحين»؟!!!

أي والله هكذا يقولون! ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة،ويزيدها وضوحا.فالنص الأول:«فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» ..قد يعني النهي عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم! فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه:«وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ،وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ،وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» ..

فالتحذير هنا أشد وأدق وهو تصوير للأمر على حقيقته ..فهي فتنة يجب أن تحذر ..والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكما بما أنزل الله كاملا أو أن يكون اتباعا للهوى وفتنة يحذر الله منها.

ثم يستمر السياق في تتبع الهواجس والخواطر فيهون على رسول الله – ﷺ– أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة،وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام دينا أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله (في ذلك الأوان حيث كان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتما في دار الإسلام):«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ.وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ».فإن تولوا فلا عليك منهم ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته.ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك أو يحولك عن موقفك ..فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم.فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض:لا أنت ولا شريعة الله ودينه ولا الصف المسلم المستمسك بدينه ..ثم إنها طبيعة البشر:«وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ

النَّاسِ لَفاسِقُونَ» فهم يخرجون وينحرفون.لأنهم هكذا ولا حيلة لك في هذا الأمــر،ولا ذنب للشريعة! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق! وبذلك يغلق كل منافذ الشـيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء مــن أحكام هذه الشريعة لغرض من الأغراض في ظرف من الظروف ..

ثم يقفهم على مفرق الطريق ..فإنه إما حكم اللّه،وإما حكم الجاهلية.ولا وسط بــين الطرفين ولا بديل

حكم اللّه يقوم في الأرض،وشريعة اللّه تنفذ في حياة الناس،ومنهج اللّه يقود حياة البشر ..أو أنه حكم الجاهلية،وشريعة الهوى،ومنهج العبودية ..فأيهما يريدون؟

« أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُــونَ؟» ..إن معــنى الجاهلية يتحدد بهذا النص.فالجاهلية - كما يصفها اللّه ويحددها قرآنه - هــي حكــم البشر للبشر،لأنها هي عبودية البشر للبشر،والخروج من عبودية اللّــه،ورفض ألوهيــة اللّه،والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون اللّه.

إن الجاهلية - في ضوء هذا النص - ليست فترة من الزمــان ولكنــها وضــع مــن الأوضاع.هذا الوضع يوجــد بالأمس،ويوجــد اليوم،ويوجــد غدا،فيأخــذ صــفة الجاهلية،المقابلة للإسلام،والمناقضة للإسلام.

والناس - في أي زمان وفي أي مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة اللّه - دون فتنة عــن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليما،فهم إذن في دين اللّه.وإما أنهم يحكمــون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهــم إذن في جاهليــة وهم في دين من يحكمون بشريعته،وليسوا بحال في دين اللّه.

والذي لا يبتغي حكم اللّه يبتغي حكم الجاهلية والذي يرفض شريعة اللّه يقبل شــريعة الجاهلية،ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق،يقف اللّه الناس عليه.وهم بعد ذلك بالخيار! ثم يســألهم ســؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية وسؤال تقرير لأفضلية حكم اللّه.«وَمَنْ أَحْسَنُ مِــنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟» ..

وأجل! فمن أحسن من اللّه حكما؟
ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس،ويحكم فيهم،خيرا مما يشرع اللّه لهم ويحكم فيهم؟
وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟
أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول:إن اللّه – سبحانه – وهو يشرع شريعته الأخيرة،ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين،ويجعل رسالته خاتمة الرسالات،ويجعل شريعته شريعة الأبد ..كان – سبحانه – يجهل أن أحوالا ستطرا،وأن حاجات ستستجد،وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه،حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟! ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة اللّه عن حكم الحياة،ويستبدل بها شريعة الجاهلية،وحكم الجاهلية ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب،أو هوى جيل من أجيال البشر،فوق حكم اللّه،وفوق شريعة اللّه؟
ما الذي يستطيع أن يقوله ..وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ ..ألم يكن هذا كله في علم اللّه وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته،وأن يسيروا على منهجه،وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟
قصور شريعة اللّه عن استيعاب الحاجات الطارئة،والأوضاع المتجددة،والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم اللّه وهو يشدد هذا التشديد،ويحذر هذا التحذير؟
يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء ..ولكن المسلم ..أو من يدعون الإسلام ..ما الذي يقولونه من هذا كله،ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟
إنه مفرق الطريق،الذي لا معدى عنده من الاختيار ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال ..

إما إسلام وإما جاهلية.إما إيمان وإما كفر.إما حكم اللّه وإما حكم الجاهلية .. والذين لا يحكمون بما أنزل اللّه هم الكافرون الظالمون الفاسقون.والــذين لا يقبلــون حكم اللّه من المحكومين ما هم بمؤمنين ..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم وألا يتردد في تطبيقهــا على واقع الناس في زمانه والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هــذا التطبيــق علــى الأعداء والأصدقاء! وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية،فلن يستقيم لــه ميــزان ولن يتضح له منهج،ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح ..وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجمــاهير من الناس فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس مــن يريــدون أن يكونــوا «المسلمين» وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم [١٠٤]..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٠٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٢٨٧]

قال تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْليــاءَ.بَعْضُــهُمْ أَوْليــاءُ بَعْضٍ.وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ.إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظّالمينَ.فَتَرَى الَّــذينَ فــي قُلُوبهِمْ مَرَضٌ يُسارعُونَ فيهِمْ،يَقُولُونَ:نَخْشى أَنْ تُصيبَنا دائرَةٌ.فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتيَ بالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ منْ عنْده فَيُصْبحُوا عَلى ما أَسَرُّوا في أَنْفُسهِمْ نادمينَ:وَيَقُولُ الَّذينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذينَ أَقْسَمُوا باللَّه جَهْدَ أَيْمانهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ،فَأَصْبَحُوا خاسرِينَ» ..

ويحسن أن نبين أولا معنى الولاية التي ينهى اللّه الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى ..

إنها تعني التناصر والتحالف معهم.ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم.فبعيد جدا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين.إنما هو ولاء التحالف والتناصر،الذي كان يلتبس على المسلمين أمره،فيحسبون أنه جائز لهم،بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأواصر،ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام،وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة،حتى نهاهم اللّه عنه وأمر بإبطاله.بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة ..

وهذا المعنى معروف محدد في التعبيرات القرآنية.وقد جاء في صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين في المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام.فقال اللّه سبحانه:«ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا» ..وطبيعي أن المقصود هنا ليس الولاية في الدين.فالمسلم ولي المسلم في الدين على كل حال.إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون.فهي التي لا تقوم بين المسلمين في دار الإسلام والمسلمين الذين لم يهاجروا إليهم ..وهذا اللون من الولاية هو الذي تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال،بعد ما كان قائما بينهم أول العهد في المدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء،واتخاذهم أولياء شيء آخر،ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين،الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته،بوصفه حركة منهجية واقعية،تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض،وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة،كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج اللّه،وتدخل في معركة لا حيلة فيها،ولا بد منها،لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده،وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة ..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة،كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها،فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق،وبين الولاء الذي لا يكون إلا للّه ورسوله وللجماعة المسلمة.ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب ..بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة ..وأن هذا شأن ثابت لهم،وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه،وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة.وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ..إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب،ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم.

وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب،ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه،ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له ..

وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة،أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين،إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعا أهل دين! – ناسين تعليم القرآن كله وناسين تعليم التاريخ كله.فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:«هـؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ..وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة،وكانوا لهم درعا وردءا.وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام،وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس،وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين،وأحلوا اليهود محلهم،متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان ..في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر،ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية،في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند،وفي كل مكان! ثم يظهر بيننا من يظن – في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة – أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر.ندفع به المادية الإلحادية عن الدين! إن هؤلاء لا يقرأون القرآن.وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم،لا بوصفه عقيدة لا يقبل اللّه من الناس غيرها،ولا بوصفه حركة إيجابيه تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم،كما وقفت له بالأمس.الموقف الذي لا يمكن تبديله.لأنه الموقف الطبيعي الوحيد! وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني،لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ ..بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ..وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ.إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» ..هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة – ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة ..موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة:«الَّذِينَ آمَنُوا» ..ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ

ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا،أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف،وعلاقات اقتصاد وتعامل،وعلاقات جيرة وصحبة ..وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام،بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة ..وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله بكل صنوف الكيد التي عددها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص.

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته،لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة.ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة.المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية.فهذه صفة المسلم دائما.ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا للّه ورسوله والذين آمنوا ..الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل.

«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلياءَ ..بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ.وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ.إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ».بعضهم أولياء بعض ..إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن ..لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء ..إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ ..وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة ..لقد ولي بعضهم بعضا في حرب محمد - ﷺ- والجماعة المسلمة في المدينة.وولي بعضهم بعضا في كل فجاج الأرض،على مدار التاريخ ..ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم،في صيغة الوصف الدائم،لا الحادث المفرد ..واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو ..بعضهم أولياء بعض ..ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل! ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها ..فإنه إذا كان اليهود

والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم.والفرد الذي يتـــولاهم من الصف المسلم،يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإســـلام» وينضم إلى الصف الآخر.لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية:«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» ..وكان ظالما لنفسه ولدين اللّه وللجماعة المسلمة ..وبسبب من ظلمـــه هـــذا يدخله اللّه في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه.ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم:«إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» ..لقد كان هذا تحـــذيرا عنيفـــا للجماعة المسلمة في المدينة.ولكنه تحذير ليس مبالغا فيه.فهو عنيف.نعم ولكنـــه يمثـــل الحقيقة الواقعة.فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى – وبعضـــهم أوليـــاء بعض – ثم يبقى له إسلامه وإيمانه،وتبقى له عضويته في الصف المسلم،الذي يتولى اللّـــه ورسوله والذين آمنوا ..فهذا مفرق الطريق ..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف – أول ما تستهدف – إقامة نظام واقعي في الأرض فريد يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم،الذي لا أرجحة فيه ولا تردد،بأن دينـــه هـــو الدين الوحيد الذي يقبله اللّه من الناس – بعد رسالة محمد – ﷺ- وبأن منهجه الـــذي كلفه اللّه أن يقيم الحياة عليه،منهج متفرد لا نظير له بين ســـائر المنـــاهج ولا يمكـــن الاستغناء عنه بمنهج آخر ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ولا يعفيه اللّه ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هـــذا المنـــهج بكـــل جوانبـــه:الاعتقاديـــة والاجتماعية لم يأل في ذلك جهدا،ولم يقبل من منهجه بديلا – ولا في جـــزء منـــه صغير – ولم يخلط بينه وبين أي منـــهج آخـــر في تصـــور اعتقـــادي،ولا في نظـــام

اجتماعي،ولا في أحكام تشريعية،إلا ما استبقاه اللّه في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب ...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو – وحده – الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج اللّه الذي رضيه للناس في وجه العقبات الشاقة،والتكاليف المضنية،والمقاومة العنيدة،والكيد الناصب،والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان ..وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره – مما هو قائم في الأرض من جاهلية ..سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك،أو في انحراف أهل الكتاب،أو في الإلحاد السافر ..بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي،إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة،باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية،يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح.فالدين هو الدين الأخير وحده عند اللّه.والتسامح يكون في المعاملات الشخصية،لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي ..إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن اللّه لا يقبل دينا إلا الإسلام،وبأن عليه أن يحقق منهج اللّه الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ولا يقبل فيه تعديلا – ولو طفيفا – هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» ..«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» ..«وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» ..«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ ..بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» ..وفي القرآن كلمة الفصل ..ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين!

ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة والتي يترل القرآن من أجلها بهذا التحذير:«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ،يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» ..روى ابن جرير عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:جَاءَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ الْخَزْرَجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ لِي مَوَالِيَ مِنْ يَهُودَ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ،وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ .فَقَالَ عَبْدُ

اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ،لَا أَبْرَأُ مِنْ وِلَايَةِ مَوَالِيَ .فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ:" يَا أَبَاالْحُبَابِ مَا بَخِلْتَ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ إِلَيْكَ دُونَهُ " قَالَ:قَدْ قَبِلْتُ .فَأَنْزَلَ اللَّهُ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى قَوْلِهِ:فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ "[١٠٥] ...

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ بَدْرٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ يَهُودَ:آمِنُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمِ بَدْرٍ .فَقَالَ مَالِكُ بْنُ صَيْفٍ:غَرَّكُمْ أَنْ أَصَبْتُمْ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ،أَمَا لَوْ أَسْرَرْنَا الْعَزِيمَةَ أَنْ نَسْتَجْمِعَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ أَنْ تُقَاتِلُونَا،فَقَالَ عُبَادَةُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنَ الْيَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً أَنْفُسُهُمْ كَثِيرًا سِلَاحُهُمْ شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ،وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ وَلَايَتِهِمْ،وَلَا مَوْلَى لِي إِلَّا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:لَكِنِّي لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ،إِنِّي رَجُلٌ لَا بُدَّ لِي مِنْهُمْ .فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يَا أَبَا حُبَابٍ،أَرَأَيْتُ الَّذِي نَفِسْتَ بِهِ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ،فَهُوَ لَكَ دُونَهُ " قَالَ:إِذَنْ أَقْبَلُ .فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ:وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ "[١٠٦]..

وقال محمد بن إسحاق:فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺبنو قينقاع.فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال:فحاصرهم رسول الله ﷺحتى نزلوا على حكمه،فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول،حين أمكنه الله منهم،فقال:يا محمد،أحسن في مَوَالي.وكانوا حلفاء الخزرج،قال:فأبطأ عليه رسول الله ﷺ،فقال:يا محمد،أحسن في موالي.قال:فأعرض عنه.فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ.فقال له رسول الله ﷺ."أرسلني".وغضب رسول الله ﷺحتى رُئي لوجهه ظللا ثم قال:"ويحك أرسلني".قال:لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مَوَالي،أربعمائة حاسر،وثلاثمائة دارع،قد

---

[١٠٥] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٠٥١) وفيه انقطاع

[١٠٦] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٠٥٢) ضعيف جدا

منعوني من الأحمر والأسود،تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر،قال:فقال رسول الله ﷺ:"هُم لك." [١٠٧]..

وقال محمد بن إسحاق:فحدثني أبي إسحاق بن يَسار،عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال:لما حاربت بنو قَيْنُقَاع رسول الله ﷺ،تشبث بأمرهم عبد الله بن أبيّ،وقام دونهم،ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ،وكان أحد بني عَوْف بن الخزرج،له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي،فجعلهم إلى رسول الله ﷺوتبرأ إلى الله ورسوله ﷺمن حلفهم،وقال:يا رسول الله،أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم،وأتولى الله ورسوله والمؤمنين،وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم.ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) [المائدة:٥١ - ٥٦]} [١٠٨]..

[١٠٧] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٨) ط، المغرب.صحيح مرسل

[١٠٨] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٩) ط، المغرب.وانظر:السيرة النبوية لابن هشام (٤٩/٢) وتفسير الطبري (٣٩٦/١٠، ٣٩٧) صحيح مرسل

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺعَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فِي مَرَضِهِ نَعُودُهُ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:قَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:فَقَدْ أَبْغَضَهُمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ،فَمَاتَ."[١٠٩]

فهذه الأخبار في مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم ..غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود،ولم يجئ ذكر في الوقائع للنصارى ..ولكن النص يجمل اليهود والنصارى ..ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى،سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيجيء في سياق هذا الدرس) ..ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في جملتها في العهد النبوي،ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى:«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا،وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى ..إلخ» ..مع هذا الاختلاف الذي كان يومذاك،فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى – كما يسوي النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار ..فيما يختص بقضية المحالفة والولاء.ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة.هي:أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم وليس للمسلم ولاء إلا للّه ولرسوله وللجماعة المسلمة ..ويستوي بعد ذلك كل الفرق في هذا الأمر ..مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف ..

على أن اللّه – سبحانه – وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة،كان علمه يتناول الزمان كله،لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول اللّه – ﷺ– وملابساتها الموقوتة ..وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداء النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود ..وإذا نحن

[١٠٩] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٢٨٠)(٢١٧٥٨) ٢٢١٠١-صحيح

استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام،فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب،قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضغن،وشنت عليه من الحرب والكيد،ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أي زمان! حتى الحبشة التي أحسن عاهلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام،عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد لا يجاريها في هذا إلا اليهود ..

وكان اللّه - سبحانه - يعلم الأمر كله.فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة.بغض النظر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتنزل فيها وملابساتها الموقوتة! وبغض النظر عما يقع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان.

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به - ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء - يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكان على سطح الأرض،ما يصدق قول اللّه تعالى:«بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» ..وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم.بل بأمره الجازم،ونهيه القاطع وقضائه الحاسم في المفاصلة الكاملة بين أولياء اللّه ورسوله،وكل معسكر آخر لا يرفع راية اللّه ورسوله ..[110]

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة.فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة ..ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء - وهو التناصر - بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة ..ولا حتى أمام الإلحاد مثلا - كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! - وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

[110] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٢٩٦]

إن بعض من لا يقرأون القرآن،ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخــدوعين أيضــا ..يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكــن إذن أن يقــف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد.

لأن الإلحاد ينكر الدين كله،ويحارب التدين على الإطلاق ..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المســلم الــذي يتــذوق الإسلام.ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة،وحركة بهذه العقيدة،لإقامة النظــام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد ..الــدين هــو الإســلام ..وليس هناك دين غيره يعتــرف بــه الإســلام ..لأن اللّــه – ســبحانه – يقــول هذا.يقول:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» ..ويقول:«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» ..وبعد رسالة محمد – ﷺ- لم يعد هناك دين يرضاه اللّه ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام» ..في صورته التي جاء بها محمد – ﷺ- وما كان يقبل قبل بعثة محمد مــن النصارى لم يعد الآن يقبل.كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثــة عيســى عليــه السّلام، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته ..

ووجود يهود ونصارى – من أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ- ليس معناه أن اللّه يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي ..لقد كان ذلك قبــل بعثــة الرسول الأخير ..أما بعد بعثته فلا دين – في التصور الإسلامي وفي حس المسلم – إلا الإسلام ..وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل ..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإســلام ..لأنــه «لا إكــراه في الدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين» ..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «دين» هــو الإسلام ..وهناك «لا دين» هو غير الإسلام ..ثم يكون هذا اللادين ..عقيدة أصــلها سماوي ولكنها محرفة،أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيتها.أو إلحادا ينكــر الأديــان

..تختلف فيما بينها كلها.ولكنها تختلف كلها مع الإسلام.ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء ...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم - كما سبق - ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن - على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته،وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشركة تحرم - وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة ..فإن حسن المعاملة وجواز النكاح،ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ- هو دين يقبله اللّه ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد! إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعا،لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل اللّه غيره من الناس جميعا.ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام،وكبر عليهم أن يدعوا إليه،جابههم القرآن الكريم بأن اللّه يدعوهم إلى الإسلام،فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام،كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء.وهو غير مأذون في أن يكره أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام.لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه.فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه،هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ- هو دين يقبله اللّه ..ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام! ..إنه لا يكون مكلفا بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين.وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقررت هذه البديهية،فإنه لا يكون منطقيا مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض،مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية.كما أنها قضية تنظيمية حركية! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحا بهذا البيان الذي

أسلفناه،وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك ..فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج الله في الحياة – وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام كما جاء به محمد – ﷺ– بكل تفصيلات وجوانب هذا المنهج،وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة ..فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام دينا ومنهجا ونظاما وشريعة ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخرى – إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام – إذ الإسلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحا – «والَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ» ..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام ..ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام ..لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي ..ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام،أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه،كما نص الله في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه! ..إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء ..

ولقد كان اعتذار عبد الله بن أبي بن سلول،وهو من الذين في قلوبهم مرض،عن مسارعته واجتهاده في الولاء ليهود،والاستمساك بحلفه معها،هي قوله:إنني رجل أخشى الدوائر! إني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة،وأن تنزل بنا الضائقة ..وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان

فالولي هو الله والناصر هو الله والاستنصار بغيره ضلالة،كما أنه عبث لا ثمرة له ..ولكن حجة ابن سلول،هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب،لا يدرك حقيقة الإيمان ..وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت

من ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا.لأنه قلب مؤمن فخلـع ولاء اليهـود وقـذف به،حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد اللّه بن أبي بن سلول!

إنهما نهجان مختلفان،ناشئان عن تصورين مختلفين،وعن شعورين متباينين،ومثـل هـذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان!

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم،المتألبين عليهم،المنافقين الذين لا يخلصون للّـه اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم ..يهددهم برجاء الفتح أو أمر اللّه الذي يفصل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق:«فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَـأْتِيَ بِـالْفَتْحِ أَوْ أَمْـرٍ مِـنْ عِنْدِهِ،فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ».وعندئذ – عند الفتح – سواء كان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجيء أمر اللّه – يندم أولئك الـذين في قلوبهم مرض،على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى وعلى النفاق الـذي انكشف أمره،وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين،ويستنكرون ما كانوا فيـه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران!

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا:أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَـتْ أَعْمالُهُمْ،فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ!» ..

ولقد جاء اللّه بالفتح يوما،وتكشفت نوايا،وحبطت أعمال،وخسرت فئات.ونحن على وعد من اللّه قائم بأن يجيء الفتح،كلما استمسكنا بعروة اللّه وحده وكلما أخلصـنا الولاء للّه وحده.وكلما وعينا منهج اللّه،وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا.وكلما تحركنا في المعركة على هدى اللّه وتوجيهه.فلم نتخذ لنا وليا إلا اللّه ورسوله والـذين آمنـوا [١١١].

..إن هذه القضية التي عرضها السياق القرآني في هذه الآيات ..قضية الولاء والتوحيـد والمفاصلة ..هي قضية هذه العقيدة وهي الحقيقة الكبرى فيها.وإن العصبة المؤمنة اليـوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني فيها وقفة طويلة ..

[١١١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٣٠٣]

إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض،نفس ما كانت تواجهه العصبة التي تترلت عليها هذه الآيات،لتحدد على ضوئها موقفها،ولتسير على هذا الضوء في طريقها وتحتاج - من ثم - أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات،لترسم طريقها على هداها.

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تترل هذا القرآن على رسول اللّه - ﷺ- ويوم جاءها الإسلام مبنيا على قاعدته الكبرى:«شهادة أن لا إله إلا اللّه» ..شهادة أن لا إله إلا اللّه .بمعناها الذي كما قال ربعي بن عامر،وحذيفة بن محصن،والمغيرة بن شعبة،جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية،وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية،قبل المعركة:ما الذي جاء بكم؟ فيكون الجواب:اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ..فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه،فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه،وتركناه وأرضه.ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر».[١١٢] ..

وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلها خالقا للكون ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع،فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه فأخبره أن اللّه ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد،ويقرون لهم بخصائص الألوهية - وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع - (وهي الأديان) ..إلى عبادة اللّه وحده وإلى عدل الإسلام.

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا اللّه.فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد،وإلى جور الأديان ونكصت عن لا إله إلا اللّه،وإن ظل فريق منها يردد على المآذن:«لا إله إلا اللّه» دون أن يدرك مدلولها،ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها،ودون أن يرفض شرعية «الحاكمية» التي يدعيها العباد لأنفسهم -

---

[١١٢] - البداية والنهاية لابن كثير محقق - موافق للمطبوع - (٧ / ٤٦)

وهي مرادف الألوهية – سواء ادعوها كأفراد،أو كتشكيلات تشريعية،أو كشعوب.فالأفراد،كالتشكيلات،كالشعوب،ليست آلهة،فليس لها إذن حق الحاكمية ..إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية،وارتدت عن لا إله إلا اللّه.فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية.و لم تعد توحد اللّه،وتخلص له الولاء ..

البشرية بجملتها،بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات:«لا إله إلا اللّه» بلا مدلول ولا واقع ..وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة،لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد – من بعد ما تبين لهم الهدى – ومن بعد أن كانوا في دين اللّه! فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات! ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء:«قُلْ:أَغَيْرَ اللَّه أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ،وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ؟ قُلْ:إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ،وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ..ذلك لتعلم أن اتخاذ غير اللّه وليا – بكل معاني «الولي» ..وهي الخضوع والطاعة،والاستنصار والاستعانة ..يتعارض مع الإسلام،لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس ..ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير اللّه هو تقبل حاكمية غير اللّه في الضمير أو في الحياة ..الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء.ولتعلم أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده وأنها تواجه جاهلية كالتي واجهها رسول اللّه – ﷺ– والجماعة المسلمة حين تلقي هذه الآيات ..

وما أحوجها أن تستصحب في مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التي تسكبها في القلب المؤمن الآيات التالية:«قُلْ:إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ،وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ.وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ،وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» ..

فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها،وبإعراضها وعنادها،وبالتوائها وكيدها،وبفسادها وانحلالها ..ما أحوج من يواجه هذا الشر كله،أن يستصحب في قلبه

هذه الحقائق وهذه المشاعر ..مخافة المعصية والولاء لغير اللّه.ومخافة العذاب الرعيب الذي يترقب العصاة ..واليقين بأن الضار والنافع هو اللّه.

وأن اللّه هو القاهر فوق عباده فلا معقب على حكمه ولا راد لما قضاه.إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف «إنشاء» الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية ..وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال! ثم ما أحوج العصبة المؤمنة – بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ومقتضياتها من إفراد اللّه سبحانه بالولاء بكل مدلولاته وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر ..ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى.وأن تقول ما أمر رسول اللّه – ﷺ– أن يقوله وأن تقذف في وجه الجاهلية،بما قذف به في وجهها الرسول الكريم،تنفيذا لأمر ربه العظيم:«قُلْ:أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟ قُلِ:اللَّهُ،شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ،وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ.أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى ؟ قُلْ:لا أَشْهَدُ.قُلْ:إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ،وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» ..

إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض،من الجاهلية التي تغمر الأرض،هذا الموقف.لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية،قاطعة فاصلة،مزلزلة رهيبة ..ثم تتجه إلى اللّه تعلم أنه على كل شيء قدير،وأنه هو القاهر فوق عباده.وأن هؤلاء العباد – بما فيهم الطواغيت المتجبرون – أضعف من الذباب،وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن اللّه وليسوا بنافعين أحدا إلا بإذن اللّه،وأن اللّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولا بد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد اللّه بالتمكين في الأرض،قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق.وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت،وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد،وتنذرها هذه النذارة،وتعلنها هذا الإعلان،وتفاصلها هذه المفاصلة،وتتبرأ منها هذه البراءة ..

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان.

منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن.وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماما وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشىء الإسلام في الأرض إنشاء ..فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين.والشعور الواضح بحقيقة قدرة اللّه وقهره.والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله ..لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة ..واللّه خير حافظا وهو أرحم الراحمين [١١٣] ..

وقال تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلياءَ - إِن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ - - وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَأُولئكَ هُمُ الظّالمُونَ.قُلْ:إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ،وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها،وَتجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها،وَمَساكنُ تَرْضَوْنَها ..أَحَبَّ إِلَيْكُمْ منَ اللَّه وَرَسُوله وَجهادٍ في سَبيله،فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتيَ اللَّهُ بِأَمْرِه.وَاللَّهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الْفاسقينَ» ..

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكا فإما تجرد لها،وإما انسلاخ منها.وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة ..كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب،ويخلص لها الحب،وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة،وهي المحركة والدافعة.فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة،على أن يكون مستعدا لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض.فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزينة اللّه والطيبات من الرزق - في غير سرف

---

[١١٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٤٧٠]

ولا مخيلة – بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب،باعتبار ه لونا من ألوان الشكر للّه الـــذي أنعم بها ليتمتع بها عباده،وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ – إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْـــرَ عَلَـــى الْإِيمانِ – » ..

وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب،إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة.وتبطل ولايـــة القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في اللّه.فلله الولاية الأولى،وفيها ترتبط البشرية جميعا،فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك،والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ..و«الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين.فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ،بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخـــرى:الآبـــاء والأبنـــاء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابـــة والـــزواج) والأمـــوال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) ..وفي الكفـــة الأخرى:حب اللّه ورسوله وحب الجهاد في سبيله.الجهاد بكـــل مقتضـــياته وبكـــل مشقاته.الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب،وما يتبعه من تضييق وحرمان،وما يتبعه مـــن ألم وتضحية،وما يتبعه من جراح واستشهاد ..وهو – بعد هذا كله – «الجهاد في سبيل اللّه» مجردا من الصيت والذكر والظهور.مجردا من المباهاة،والفخر والخيلاء.مجردا مـــن إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه.وإلا فلا أجر عليه ولا ثـــواب ..

«قُلْ:إِنْ كانَ آبـــاؤُكُمْ وَأَبْنـــاؤُكُمْ وَإِخْـــوانُكُمْ وَأَزْواجُكُـــمْ وَعَشِـــيرَتُكُمْ وَأَمْـــوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها،وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها،وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها،أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ ..فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ...»

ألا إنها لشاقة.ألا وإنها لكبيرة.ولكنها هي ذاك ..وإلا:«فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين:«وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» ..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده،إنما تطالـــب بـــه الجماعـــة المســـلمة،والدولة المسلمة.فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفـــع علـــى مقتضـــيات العقيدة في اللّه ومقتضيات الجهاد في سبيل اللّه.

وما يكلف اللّه الفئة المؤمنة هذا التكليف،إلا وهو يعلم أن فطرها تطيقـــه – فاللّـــه لا يكلف نفسا إلا وسعها – وإنه لمن رحمة اللّه بعباده أن أودع فطرهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعـــدلها لذائـــذ الأرض كلها ..لذة الشعور بالاتصال باللّه،ولذة الرجاء في رضوان اللّه،ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط،والخلاص من ثقلة اللحم والدم،والارتفاع إلى الأفـــق المشـــرق الوضيء.فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجـــدد الرغبـــة الطامعـــة في الخلاص والفكاك.[١١٤]

وقال تعالى:«وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ،فَلا تَبْتَـئِسْ بِمـا كانُوا يَفْعَلُونَ.وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا،وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ...»

«حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا:احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ – إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ – وَمَنْ آمَنَ،وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ...»

«وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ -:يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا،وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ.قالَ:سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ،قالَ:لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ،وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ..»

«وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ،فَقالَ:رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِـي،وَإِنَّ وَعْـدَكَ الْحَقُّ،وَأَنْـتَ أَحْكَـمُ الْحاكِمِينَ.قالَ:يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ،إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ،فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ،إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ.قالَ:رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِـي بِهِ عِلْمٌ،وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ» ..

[١١٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٨٣]

إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هـذا الدين،وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن،وليست وشيجة القوم والعشيرة،وليست وشيجة اللـون واللغة،وليسـت وشـيجة الجـنس والعنصر،وليست وشيجة الحرفة والطبقة ..

إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما قـال اللّـه سبحانه وتعالى لعبده نوح – عليه السلام – وهو يقول:«رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» ..«يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ثم بين له لماذا يكون ابنه ..ليس من أهله ..«إنه عمـل غـير صالح» ..إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح:« فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » فأنت تحسب أنه مـن أهلـك،ولكن هـذا الحسبان خاطئ.أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك،ولو كان هو ابنـك مـن صلبك!

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الـدين إلى الوشـائج والروابط،وبين نظرات الجاهلية المتفرقة ..إن الجاهليات تجعل الرابطة آنـا هـي الـدم والنسب وآنا هي الأرض والوطن،وآنا هي القوم والعشيرة،وآنا هي اللون واللغـة،وآنا هي الجنس والعنصر،وآنا هي الحرفة والطبقة! تجعلها آنا هي المصالح المشتركة،أو التاريخ المشترك.أو المصير المشترك ..وكلها تصورات جاهلية – على تفرقهـا أو تجمعهـا – تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي! والمنهج الرباني القويم – ممثلا في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول – ﷺ- وهي من هـذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه – قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكـبير ..والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق ..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنـه فيمـا يكـون بـين الوالـد والولد،ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى،ليقرر مـن وراء هـذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ..

ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم – عليه السلام – وأبيه وقومه كذلك:«وَاذْكُرْ فِي الْكتابِ إِبْراهِيمَ،إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.إِذْ قالَ لِأَبِيهِ:يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً؟ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ،فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا.يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ،إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا.يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ..قالَ:أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ! وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا.قالَ:سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي،إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا،وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي،عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا.فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا،وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» ...(مريم:٤١ – ٥٠).

وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه،وهو يعطيه عهده وميثاقه.

ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه:«وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ،فَأَتَمَّهُنَّ،قالَ:إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً،قالَ:وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قالَ:لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ..»

« وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ:رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ – مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.قالَ:وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ..(البقرة:١٢٤ – ١٢٦) وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه،وذلك فيما كان بين نوح وامرأته،ولوط وامرأته.

وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون:«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ،كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ،فَخانَتاهُما،فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً،وَقِيلَ:ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ» ...

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ،إِذْ قالَتْ:رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ،وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ،وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ...(التحريم:١٠ – ١١)

وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم،ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم.وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم.وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم ...
«قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ،إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ:إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ،كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...» ..(الممتحنة:٤).
« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً؟ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا:رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً،فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً.ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً.نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ،إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً،وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا:رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً.هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً.لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً؟ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ - إِلَّا اللَّهَ - فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ،وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً» ...(الكهف:٩ - ١٦).
وبهذه الأمثلة التي ضربها اللّه للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين.الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان،وضحت معالم الطريق لهذه الأمة وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم،ولا يقوم على سواها.وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة،وفي توجيهات من القرآن كثيرة ..
هذه نماذج منها ..
« لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ - أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ،وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ،أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ،أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ...(المجادلة:٢٢) «يا

أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة،وَقَدْ كَفَرُوا بما جاءَكُمْ منَ الْحَقِّ،يُخرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمنُوا باللَّه رَبِّكُمْ،إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جهاداً في سَبيلي وَابْتغاءَ مَرْضاتي،تُسرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة وَأَنَا أَعْلَمُ بما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ،وَمَنْ يَفْعَلْهُ منْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيلِ» ...(الممتحنة:١) «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ،يَوْمَ الْقيامَة يَفْصلُ بَيْنَكُمْ،وَاللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ.قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهيمَ وَالَّذينَ مَعَهُ ...إلخ» ..(الممتحنة:٣ - ٤) «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمان،وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَأُولئكَ هُمُ الظَّالمُونَ» ...(التوبة:٢٣).« يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلياءَ،بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ،وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ،إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ» ...(المائدة:٥١).

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان.و لم يعد هناك مجال للجمع بين «الإسلام» وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها اللّه للأمة المختارة.والذين يدعون صفة الإسلام،ثم يقيمون مجتمعاهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة،إما أهم لا يعرفون الإسلام وإما أهم يرفضونه.والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعوها لأنفسهم وهم لا يطبقوها،بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا! وندع هذه القاعدة - وقد صارت واضحة تماما - لننظر في جوانب من حكمة اللّه في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص «الإنسان» التي تفرقه من عالم البهيمة لأها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها - وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنسانا في هذه الصورة - وحتى أشد الملحدين

إلحادا وأكثر الماديين مادية،قد انتبهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان[١١٥].

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة – في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية – هي آصرة التجمع.لأنها العنصر الذي يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم.ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة،وسياج الحظيرة! ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة ..فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة.وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة!

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم ..هو عنصر الاختيار والإرادة،فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد وبذلك يقرر نوع المجتمع الذي يريد أن يعيش فيه مختارا ونوع المنهج الاعتقادي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والخلقي الذي يريد – بكامل حريته – أن يتمذهب به ويعيش.

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه.كما لا يملك أن يقرر الأرض التي يحب أن يولد فيها،ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها ..إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية! ..إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض،ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأي إنما هي تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره! فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معا – أو حتى في الدنيا وحدها – بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضا لم يكن مختارا ولا مريدا وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص مقوماتها وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له من سائر الخلائق! ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية،والمحافظة على الكرامة التي وهبها اللّه له متمشية مع تلك الخصائص يجعل الإسلام العقيدة – التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ

---

[١١٥] – من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة!

سن الرشد – هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية.وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية،التي لا يدله فيها،ولا يملك كذلك تغييرها باختياره،هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته.ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة – وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى – أن ينشيء مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي لا يصدهم عنه صاد،ولا يقوم في وجوههم حاجز،ولا تقف دونه حدود مصطنعة،خارجة عن خصائص الإنسان العليا.وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية،وتجتمع في صعيد واحد،لتنشئ «حضارة إنسانية» تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ولا تغلق دون كفاية واحدة،بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض ..

«ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها،دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة،والحدود الإقليمية السخيفة!

ولإبراز «خصائص الإنسان» في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها،دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان ..كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات،بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها،وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت،وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة.وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة،تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة،على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان.«لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق:العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي ...إلى آخر الأقوام والأجناس ..وتجمعت خصائصهم كلها

لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية.و لم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائما «إسلامية» و لم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائما «عقدية ».

«ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة،وبآصرة الحب.وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة.فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم،وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم،وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة،وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد،وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق.وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ! «لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا.فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة،ولغات متعددة،وألوانا متعددة،وأمزجة متعددة.ولكن هذا كله لم يقم على «آصرة إنسانية» و لم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة ..لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني – بصفة عامة – وعبودية سائر الأجناس الأخرى.ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي و لم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي.

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ..تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا ..ولكنه كان كالتجمع الروماني،الذي هو وريثه! تجمعا قوميا استغلاليا،يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية،واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية ..ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها ..الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما،والإمبراطورية الفرنسية ..كلها في ذلك المستوي الهابط البشع المقيت! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر،يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون.ولكنها لم تقمه على قاعدة «إنسانية» عامة،إنما أقامته على القاعدة «الطبقية».فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم ..هذا تجمع على قاعدة طبقة «الأشراف» وذلك تجمع على قاعدة طبقة «الصعاليك» (البروليتريا)

والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى! وما كـــان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني ..فهو ابتـــداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها.باعتبار أن «المطالب الأساسية» للإنسان هي «الطعام والمسكن والجنس» – وهي مطالب الحيوان الأولية – وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!!

«لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني ..وما يزال متفردا ..والـــذين يعـــدلون عنـــه إلى أي منـــهج آخر،يقوم على أية قاعدة أخرى،من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة ..إلى آخـــر هذا النتن السخيف،هم أعداء «الإنسان» حقا! هم الذين لا يريدون لهذا الإنســـان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره اللّه ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق »[116] ..

ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين،الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركتـــه وهم الذين يقول اللّه تعالى فيهم:«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ» ..لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر مـــن أســـرار قـــوة هـــذا الدين،وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس ..

ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقـــدراتهم وديارهم وأموالهم ..لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد،أصناما تعبد من دون اللّه،اسمها تارة «الوطن» واسمها تارة «القوم» واسمها تارة «الجنس».وظهـــرت هـــذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم «الشعوبية» وتارة باسم «الجنسية الطورانيـــة» وتارة باسم «القومية العربية» وتارة بأسماء شتى،تحملها جبهات شتى،تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة،المنظم بأحكام الشـــريعة

---

[116] – مقتطفات من فصل:«نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» من كتاب:«معالم في الطريق». «دار الشروق».

...إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية،وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة وإلى أن أصبحت تلك «الأصنام» مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه! أو خائنا لمصالح بلده!!! وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ ..كان هو المعسكر اليهودي الخبيث،الذي جرب سلاح «القومية» في تحطيم التجمع المسيحي،وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية ..وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود! وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي – بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي ..ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله.كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي.وما يزالون.

حتى يأذن اللّه بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ليقوم التجمع الإسلامي من جديد،على أساسه المتين الفريد ..

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم.ذلك أن الدينونة للّه وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم.يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد،وألا تتعدد «المقدسات»! ويجب أن يكون هناك شعار واحد،وألا تتعدد «الشعارات» ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات ..

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية! إن الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صورا متعددة وآلهة الأساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون اللّه أيا كانت أسماؤها.وأيا كانت مراسمها.

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية،ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان ..وما إليها ..يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها.وهو يدعوهم إلى اللّه وحده،وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه!

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري ..أمة المسلمين من أتباع الرسل - كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون ..

وعند ما أراد اللّه أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون،عرفها لهم في صورة أتباع الرسل - كل في زمانه - وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة:«إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» ..ولم يقل للعرب:إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء! ولا قال لليهود:إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء! ولا قال لسلمان الفارسي:إن أمتك هي فارس! ولا لصهيب الرومي:إن أمتك هي الرومان! ولا لبلال الحبشي:إن أمتك هي الحبشة! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش:إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون،وإبراهيم،ولوط،ونوح،وداود وسليمان،وأيوب،وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون،وزكريا ويحيى،ومريم ..كما جاء في سورة الأنبياء:(آيات:٤٨ - ٩١).هذه هي أمة «المسلمين» في تعريف اللّه سبحانه ..فمن شاء له طريقا غير طريق اللّه فليسلكه.ولكن ليقل:إنه ليس من المسلمين!

أما نحن الذين أسلمنا للّه،فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا اللّه.واللّه يقص الحق وهو خير الفاصلين ..وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح في هذه القضية الأساسية في هذا الدين.[١١٧]

إن أصحاب الدعوة إلى اللّه في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا المشهد الباهر ..رجل واحد،لم يؤمن معه إلا قليل،يواجه أعتى أهل الأرض

---

[١١٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥١٢]

وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم،كما جاء عنهم في قول اللّه تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى:« كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ.إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ:أَلا تَتَّقُونَ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ.أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ؟ وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ.وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ.فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ.أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ.وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.قالُوا:سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ.إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ.وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ»! ..(الشعراء:١٢٣ - ١٣٨)

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة والذين أبطرهم النعمة والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود! ..هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة.في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال.وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال! لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة،بعد ما بذل لقومه من النصح ما يملك وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد ..ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة اللّه وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على اللّه ..

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه،فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربه آخذ بناصيتها ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب؟! وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض،وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين! للابتلاء لا لمطلق العطاء.وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء،ولا يضرونه شيئا،ولا يردون له قضاء ..ففيم إذن يهوله شيء مما هم فيه،وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء؟ ..

إن أصحاب الدعوة إلى اللّه لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هـــذا النحـــو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم ..أمـــام القوة المادية.وقوة الصناعة.وقوة المال.

وقوة العلم البشري.وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات ..وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الـــدواب! وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان ..أمة تدين للّه وحده وترفض الدينونة لسواه.وأمة تتخذ من دون اللّه أربابا،وتحاد اللّه! ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد اللّه بالنصر لأوليائه،والتـــدمير على أعدائه - في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففي تاريخ الدعوة إلى اللّه على مدار التاريخ! لم يفصل اللّه بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصـــل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا اللّه وحده ..وكانوا هم حزب اللّه الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرا سواه.[١١٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١١٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٢٩]

قال تعالى:«قُلْ:يا أَهْلَ الْكتاب،هَلْ تَنْقمُونَ منَّا إلَّا أَنْ آمَنَّا باللَّه،وَما أُنْزلَ إلَيْنا،وَما أُنْزلَ منْ قَبْلُ،وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسقُونَ؟ قُلْ:هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بشَرٍّ منْ ذلكَ مَثُوبَةً عنْدَ اللَّه؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ،وَغَضبَ عَلَيْه،وَجَعَلَ منْهُمُ الْقرَدَةَ وَالْخَنازيرَ،وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ..أُولئكَ شَرٌّ مَكاناً،وَأَضَلُّ عَنْ سَواء السَّبيل» ..

إن هذا السؤال الذي وجه اللّه رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب،هو من ناحية سؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها.وهو من ناحية سؤال استنكاري،لاستنكار هذا الواقع منهم،واستنكار البواعث الدافعة عليه ..وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين،وتنفير لهم من موالاة القوم،وتقرير لما سبق في النداءات الثلاثة من نهي عن هذه الموالاة وتحذير.

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول - ﷺ- وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي - إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون باللّه وما أنزله اللّه إليهم من قرآن وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله اللّه من قبل من كتب أهل الكتاب ..

إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى.ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله اللّه إليهم وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم - لا ما ابتدعوه وحرفوه - ولا يؤمنون بالرسول الأخير،وهو مصدق لما بين يديه معظم لرسل اللّه أجمعين.

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء التي لم تضع أوزارها قط،ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة وتميزت لهم شخصية وأصبح لهم وجود مستقل ناشئ من دينهم المستقل،وتصورهم المستقل،ونظامهم المستقل،في ظل منهج اللّه الفريد.

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم - قبل كل شيء - مسلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم فيصبحوا غير مسلمين ..ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين! واللّه - سبحانه - يقرر هذه الحقيقة في صورة قاطعة،وهو يقول لرسوله - ﷺ- في السورة الأخرى:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..ويقول له في هذه السورة أن يواجه أهل الكتاب بحقيقة بواعثهم وركيزة موقفهم:« قُلْ:يا أَهْلَ الْكتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ؟» ..

وهذه الحقيقة التي يقررها اللّه سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين،هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب،وكثيرون ممن يسمون أنفسهم «مسلمين» ..باسم تعاون «المتدينين» في وجه المادية والإلحاد كما يقولون! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها،لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي - أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح - وتخدير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الرباني القويم.ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليما لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف للمد الإسلامي،فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامي ..ولم يكن بد لهؤلاء - بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة،وفي حرب التبشير السافرة كذلك - أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير،فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين،أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت! وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا! ثم تنور العالم و«تقدم» فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة ..وإنما الصراع اليوم على المادة! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب! وإذن فما يجوز للمسلمين - أو ورثة المسلمين - أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين! وحين يطمئن أهل الكتاب - وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين - إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير وحين تتميع القضية في ضمائرهم فإن المستعمرين يأمنون

غضبة المسلمين للّه وللعقيدة ..الغضبة التي لم يقفوا لها يوما ..ويصبح الأمر سهلا بعـــد التنويم والتخدير ..ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها.بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ويغلبون في معركة «المادة» بعد ما يغلبـــون في معركة «العقيدة» ..فهما قريب من قريب ..وعملاء أهـــل الكتـــاب في الـــوطن الإسلامي،ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو في خفية،يقولون القـــول نفســـه ..لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود ..وهؤلاء يقولـــون عـــن «الحـــروب الصليبية» ذاتها:إنها لم تكن «صليبية»!!! ويقولون عن «المسلمين» الذين خاضوها تحت راية العقيدة:إنهم لم يكونوا «مسلمين» وإنما هم كانوا «قوميين»! وفريق ثالث مستغفل مخدوع يناديه أحفاد «الصليبيين» في الغرب المستعمر:أن تعالوا إلينا.تعـــالوا نجتمـــع في ولاء لندفع عن «الدين» غائلة «الملحدين»! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخـــدوع ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين صـــفا واحـــدا،حينما كانت المواجهة للمسلمين! على مدار القرون! وما يزالون! وأنهم لا يعنـــيهم حـــرب المادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام.ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارئ وعدو موقوت وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم! وإنما هذه الـــدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي وللانتفاع بجهد المســـتغفلين المخدوعين – في الوقت ذاته – ليكونوا وقود المعركة مـــع الملحـــدين لأنهـــم أعـــداء الاستعمار السياسيون! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين ..حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم ..

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق،فيحسبون أهل الكتاب جـــادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن «الدين» إنما ينسون واقع التـــاريخ في أربعة عشر قرنا – لا استثناء فيها – كما ينسون تعليم ربهـــم لهـــم في هـــذا الأمـــر بالذات،وهو تعليم لا مواربة فيه،ولا مجال للحيدة عنه،وفي النفس ثقة باللّه ويقين بجدية ما يقول! إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبـــون بالآيـــات القرآنيـــة،والأحاديث النبوية،التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب وأن يتسامحوا معهم في المعيشة

والسلوك.ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم والتقريرات الواعية عن بواعثهم،والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية،وخطة التنظيم،التي تحرم التناصر والموالاة،لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا في شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية،وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مع أهل الكتاب في شأن دينه - مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها - إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين،ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين ..كما يقول رب العالمين ..

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين يجزئونه ويمزقونه،فيأخذون منه ما يشاءون - مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها - ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب! ونحن نؤثر أن نسمع كلام اللّه،في هذه القضية،على أن نسمع كلام المخدوعين أو الخادعين! وكلام اللّه - سبحانه - في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين ..

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى - بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل - أن بقية السبب:« وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ» فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم ..وهي قاعدة نفسية واقعية تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة ..إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم ..إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه.إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه ..ومن ثم يكرهه وينقم عليه.يكره استقامته وينقم منه التزام ه ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده! إنها قاعدة مطردة،تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة،إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة.إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة ..والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار،وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين،وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين ..

هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب ..

ولقد علم اللّه – سبحانه – أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر،وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل،وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق،وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين.

وعلم اللّه – سبحانه – أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف.وأنها معركة لا خيار فيها،ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل.لأن الباطل سيهاجمه،ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه ..

وغفلة – أي غفلة – أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف وأنهم يملكون تجنب المعركة وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة من أن يستسلموا للوهم والخديعة ..وهم يومئذ مأكولون مأكولون!

ثم نمضي مع السياق القرآني في توجيه اللّه – سبحانه – لرسوله – ﷺ- لمواجهة أهل الكتاب،بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين ..فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم،وشأن لهم مع ربهم،وعقاب أليم:«قُلْ:هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ،وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ،وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ.أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً،وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ!» وهنا تطالعنا سحنة يهود،وتاريخ يهود! إنهم هم الذين لعنهم اللّه وغضب عليهم،وجعل منهم القردة والخنازير.إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت ..

وقصة لعنة اللّه لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير ..فأما قضية عبادتهم للطاغوت،فتحتاج إلى بيان هنا،لأنها لفتة ذات دلالة خاصة في سياق هذه السورة ..

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان اللّه،وكل حكم لا يقوم على شريعة اللّه،وكل عدوان يتجاوز الحق ..والعدوان على سلطان اللّه وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا،وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى ..

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة اللّه.فسماهم اللّه عبادا لهم وسماهم مشركين ..وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق.فهم عبدوا الطاغوت ..أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها ..وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع،ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة.وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة اللّه ومن دين اللّه[119].

واللّه – سبحانه – يوجه رسوله – ﷺ- لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ،وبذلك الجزاء الذي استحقوه من اللّه على هذا التاريخ ..كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة ..يوجهه ليقول لهم:إن هذا شر عاقبة:«قُلْ:هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ». أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين،وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم.وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة اللّه وعذابه،وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل:«أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً،وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» [120]..

---

[119] – يراجع كتاب:«المصطلحات الأربعة» للسيد أبي الأعلى المودودي،أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ..فصل:«العبادة» ..ويراجع كتاب:«هذا الدين» فصل:«منهج متفرد» ويراجع كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» فصل:«التوحيد».«دار الشروق»

[120] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٣١٣]

لقد جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق،ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته،ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل،التي شاعت في الجاهليات كلها.وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم،وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه!

وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول،وتقديمها للناس مبرأة من كل ما علق بصورة النبوة وصورة النبي من أوهام وأضاليل.يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها،ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها ..فالرسول الذي يقدمها للناس بشر،لا يملك خزائن اللّه،ولا يعلم الغيب،ولا يقول لهم:إني ملك ..وهو لا يتلقى إلا من ربه،ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه.والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند اللّه،وعليه أن يلزمهم،وأن يهش لهم،وأن يبلغهم ما كتبه اللّه لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة.

كما أن عليه إنذار الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة ليصلوا إلى مرتبة التقوى،وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته،كما أنه في «البشرية» وفي «تلقي الوحي» تنحصر حقيقته.فتصح في التصورات حقيقته ووظيفته جميعا ..ثم إنه بهذا التصحيح،وبهذا الإنذار،تستبين سبيل المجرمين،عند مفرق الطريق،ويتضح الحق والباطل،وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة،كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال،وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين.وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية،وعلاقة الرسول بها،وعلاقة الناس جميعا - الطائعين منهم والعصاة - ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة.فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى.واللّه كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما

يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تابوا منها وأصلحوا بعدها.وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين،فيؤمن من يؤمن عن بينة،ويضل من يضل عن بينة،ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون [١٢١]..

أما ختام هذه الآية القصيرة:«وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..

فهو شأن عجيب! ..إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب.إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا ..إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين.وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق! إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره اللّه – سبحانه – ليتعامل مع النفوس البشرية ..ذلك أن اللّه سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص وأن ذلك حق ممحض وخير خالص ..كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل ..

وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر اللّه في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدوا منهم «وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» ..ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين،أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون عن ثقة،وفي وضوح،وعن يقين.

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح.واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات.ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم.فهما صفحتان متقابلتان،وطريقان مفترقتان ..ولا بد من وضوح الألوان والخطوط ..

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ووضع العنوان المميز

---

[١٢١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٥١٥]

للمؤمنين.والعنوان المميز للمجرمين،في عالم الواقع لا في عالم النظريات.فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون.بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم،وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم.بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان،ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين ..

وهذا التحديد كان قائما،وهذا الوضوح كان كاملا،يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية.فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول - ﷺ- ومن معه.وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين ..ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان اللّه - سبحانه - يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة - ومنها ذلك النموذج الأخير - لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية ..حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة،وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك ..لا يجدي معها التلبيس! ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا ..إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين،في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام،يسيطر عليها دين اللّه،وتحكم بشريعته ..ثم إذا هذه الأرض،وإذا هذه الأقوام،تهجر الإسلام حقيقة،وتعلنه اسما.

وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا.وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا اللّه ..وشهادة أن لا إله إلا اللّه تتمثل في الاعتقاد بأن اللّه - وحده - هو خالق هذا الكون المتصرف فيه.وأن اللّه - وحده - هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله.وأن اللّه - وحده - هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ..وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا اللّه - بهذا المدلول - فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد.كائنا ما كان اسمه ولقبه

ونسبه.وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا اللّه – بهذا المدلول – فهـي أرض لم تدن بدين اللّه،ولم تدخل في الإسلام بعد ..

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين.وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام ..ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا اللّه – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين للّه بمقتضى هذا المدلول ..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا اللّه،ومدلول الإسلام في جانب وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر ..

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين،وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق! ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة.فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا.حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! ..تهمة تكفير «المسلمين»!!!

ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم،لا إلى قول اللّه ولا إلى قول رسول اللّه! هذه هي المشقة الكبرى ..وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى اللّه في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى اللّه باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ..ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى اللّه في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة.وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم،ولا صيحة صائح:انظروا! إنهم يكفرون المسلمين! إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن ..الإسلام شهادة أن لا إله إلا اللّه – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو،فحكم اللّه ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين ..المجرمين ..

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ،وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى اللّه هذه العقبة وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل اللّه لا تصدها شبهة،ولا يعوّقها غبش،ولا يميعها لبس.فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل اللّه هم «المجرمون» ..كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان.وأنهم وقومهم على مفرق الطريق،وأنهم على ملة وقومهم على ملة.وأنهم في دين وقومهم في دين:«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ....وصدق اللّه العظيم [١٢٢]..

[١٢٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٥٣٠]

لا يجوز أن يثقل الواقع الجاهلي على حس مسلم،حتى يتلقى من الجاهلية في منهج حياته وهو يعلم أن ما جاءه به محمد - ﷺ- هو الحق وأن الذي لا يعلم أن هذا هو الحق «أعمى».ثم يتبع هذا الأعمى،ويتلقى عنه،بعد شهادة اللّه سبحانه وتعالى ..وأخيرا نقف أمام المعلم الأخير من المعالم التي تقيمها هذه السورة لهذا الدين ..

إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند اللّه لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير.فالذين لا يستجيبون لعهد اللّه على الفطرة،ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق ..هم الذين يفسدون في الأرض كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض،وتزكو بهم الحياة:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) } [الرعد:١٩ - ٢٥]..

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد - ﷺ- هو الحق.ومن ثم يوفون بعهد اللّه على الفطرة،وبعهد اللّه على آدم وذريته،أن يعبدوه وحده،فيدينوا له وحده،ولا يتلقوا عن غيره،ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه.ومن ثم يصلون ما أمر اللّه به أن يوصل،ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ويخافون سوء الحساب،فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل

خالجة وكل حركة ويصبرون على الاستقامة على عهد اللّه ذاك بكل تكاليف الاستقامة ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم اللّه سرا وعلانية ويدفعون الســوء والفســاد في الأرض بالصلاح والإحسان ..

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة التي تسير على هدى اللّه وحده والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه ..إنها لا تصلح بالقيادات الضــالة العمياء،التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد – ﷺ- هو الحق وحده والتي تتبع – مــن ثم – مناهج أخرى غير منهج اللّه الذي ارتضاه للصالحين من عبــاده ..إنهــا لا تصــلح بالإقطاع والرأسمالية،كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية! ..

إنها كلها من مناهج العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد – ﷺ- هو وحــده الحق،الذي لا يجوز العدول عنه،ولا التعديل فيه ..إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من منــاهج العمي،الــذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون اللّه،تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة،وتشرع للناس ما لم يأذن به اللّه وتعبدهم لما تشرع،فتجعل دينونتهم لغير اللّه ..

وآية هذا الذي نقوله – استمداد من النص القرآني – هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين.وهو هذه الشقوة النكدة الــتي تعانيهــا البشــرية في مشــارق الأرض ومغاربهــا ..ســواء في ذلــك أوضــاع الإقطــاع والرأسمالية،وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلميــة! ..وســواء في ذلــك أشــكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية! ..

إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق ..لأنها كلها سواء من صنع العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هــو الحق وحده ولا تلتزم – من ثم – بعهد اللّه وشرعه ولا تستقيم في حياتها على منهجــه وهديه.

إن المسلم يرفض – بحكم إيمانه باللّه وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحــق – كــل منهج للحياة غير منهج اللّه وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي وكل وضــع كــذلك

سياسي،غير المنهج الوحيد،والمذهب الوحيد،والشرع الوحيد الذي سنه اللّه وارتضاه للصالحين من عباده.

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير اللّه،هو بذاته خروج من دائرة الإسلام للّه فالإسلام للّه هو توحيد الدينونة له دون سواه.

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي،فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه،ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض ..فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي! ..

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي،الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون.فلم تسعد قط ولم ترتفع «إنسانيتها» قط،ولم تكن في مستوى الخلافة عن اللّه في الأرض قط،إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم[١٢٣].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٢٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧١٨] ويراجع بتوسع فصل:«تخبط واضطراب» في كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة». «دار الشروق».

قال تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:٩]..

فخير لهم أن يقبلوا عليه.فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل.ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية اللّه وحفظه،إن كانوا يريدون الحق،وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبت ..إن اللّه لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة،لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ،لا ملائكة الهلاك والتدمير.

وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد اللّه الحق بحفظ هذا الذكر فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب - إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة - ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا لا تتبدل فيه كلمة،ولا تحرف فيه جملة،لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر،أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل،تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل،وتصونه من العبث والتحريف.

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق،وكثر فيه النزاع،وطمت فيه الفتن،وتماوجت فيه الأحداث.وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول اللّه - ﷺ- ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود - خاصة - ثم من «القوميين» دعاة «القومية» الذين تسمّوا بالشعوبيين! ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول اللّه - ﷺ- ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول اللّه - ﷺ- وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين.

كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية،وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات ..

ولكنها عجزت جميعا – وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا – أن تحدث حدثا واحدا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ وبقيت نصوصه كما أنزلها اللّه حجة باقية على كل محرف وكل مؤول وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

ثم جاء على المسلمين زمان – ما نزال نعانيه – ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم،وعن حماية عقيدتهم،وعن حماية نظامهم،وعن حماية أرضهم،وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم.وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغيّر عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم،وأحلوا مكانه كل منكر فيهم ..كل منكر من العقائد والتصورات،ومن القيم والموازين،ومن الأخلاق والعادات.ومن الأنظمة والقوانين ..وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص «الإنسان» وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان ..وأحيانا إلى حياة يشمئز منها الحيوان ..ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقة من «التقدم» و«التطور» و«العلمانية» و«العلمية» و«الانطلاق» و«التحرر» و«تحطيم الأغلال» و«الثورية» و«التجديد» ...إلى آخر تلك الشعارات والعناوين ..وأصبح «المسلمون» بالأسماء وحدها مسلمين.ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير.وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع،ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقودا للنار ..وهو وقود هزيل! ..

ولكن أعداء هذا الدين – بعد هذا كله – لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها.ولم يكونوا في هذا من الزاهدين.فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ،وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال!

ولقد بذل أعداء هذا الدين – وفي مقدمتهم اليهود – رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين اللّه.وقدروا على أشياء كثيرة ..قدروا على الدس في سنة رسول اللّه – ﷺ- وعلى تاريخ الأمة المسلمة.وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون.وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين.وقدروا على تقديم

عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون،وبخاصة في العصر الحديث ..

ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد - والظروف الظاهرية كلها مهيأة له - .. لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ،الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب،وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقا تتريل من عزيز حكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول اللّه - ﷺ- مجرد وعد.أما هو اليوم - من وراء كل تلك الأحداث الضخام ومن وراء كل تلك القرون الطوال.فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب،والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول:«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ،وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» ..وصدق اللّه العظيم ..[١٢٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٢٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٦٨]

قال تعالى:«وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ». والزبور إما أن يكون كتابا بعينه هو الذي أوتيه داود عليه السلام.ويكون الذكر إذن هو التوراة التي سبقت الزبور.وإما أن يكون وصفا لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ،الذي يمثل المنهج الكلي،والمرجع الكامل،لكل نواميس اللّه في الوجود.

وعلى أية حال فالمقصود بقوله:«وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ...» هو بيان سنة اللّه المقررة في وراثة الأرض:«أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» ..

فما هي هذه الوراثة؟ ومن هم عباد اللّه الصالحون؟

لقد استخلف اللّه آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها،وتنميتها وتحويرها،واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها،واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة،والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم اللّه.

ولقد وضع اللّه للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه في هذه الأرض.منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح.وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج،وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته.في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود.ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان،ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة.فلا ينتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة.وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة.وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة.وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا ..ولكن هذه ليست

سوى تجارب الطريق.والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين،الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح.فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ.ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح.وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان،وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح،وإلى عمارة الأرض،والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها اللّه إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم،وهو العمل الصالح،والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد اللّه،وتجري سنته:«أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» ..فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون[125] ..

وقال الشعراوي رحمه الله:

"إنَّ الله يُمكِّن الصالح من الأرض،الصالح الذي يَعْمُرها ولو كان كافراً؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله،حتى وإنْ كان كافراً،يقول تعالى:{ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ }[الشورى:٢٠].

لكن عمارة الكفار للأرض وتمكينهم للحضارة سَرْعان ما تترل بهم النكبات،وتنقلب عليهم حضارتهم،وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية،فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً. ففي السويد – مثلاً – وهي من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار،وأعلى نسبة شذوذ،وهذه هي المعيشة الضَّنْك التي تحدَّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى:{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىا }[طه:١٢٤] فالضَّنْك لا يعني فقط الفقر والحاجة،إنما له صور أخرى كثيرة.

---

[125] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٣٠٩٥]

إذن:لا تَقسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب،إنما خُذْ في حُسبانك كُلَّ النواحي الأخرى،فمَنْ أتقن النواحي المادية الدنيوية أخذها وترف بها في الدينا،أمّا الصلاح الديني والخُلقي والقِيَمي فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة.

وهكذا تشمل الآية:{ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:١٠٥] الصلاح المادي الدنيوي،والصلاح المعنوي الأخروي،فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان،فإنك ستجد ثمرته إلى حين،ثم ينقلب عليك،فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام،فزالتْ وبادتْ.يقول تعالى:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ }[الفجر:٦ - ١٠].

إنها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب،لا نعرف حتى أماكنها. أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوي،الصلاح المنهجي من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها:افعل كذا ولا تفعل كذا. وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذي يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم.

إن منهج الله وحده هو الذي يأمرنا وينهانا،ويخبرنا بالحلال والحرام،وعلينا نحن التنفيذ،وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه،فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة،ويقوم بها على أكمل وجه،وإلا فسد حال المجتمع،الحاكم يُشرف ويُراقِب،يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل،ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب.

فعناصر الصلاح في المجتمع:علماء يُخططون،وحكام يُنفِّذون،ويديرون الأمور،وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهي:اللجام الذي يكبح الفَرس ويُوجِّهها.

لذلك جاء في الحديث الشريف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-:« مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ »[١٢٦].

وعن الْحَسَنِ،قَالَ:عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،فَقَالَ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ بِهِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً،يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ[١٢٧].

لماذا؟ لأن ذلك يُشيع الفساد في الأرض،ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر،وتُستبعد أنت.

أما حين تعتد كِفَة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ منّا ليصل إلى مكانه المناسب.

إذن:مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع،فلا نقول لحاكم مثلاً يُعِدُّ لنا طعاماً،أو يصنع لنا آلة،فليستْ هذه مهمته،ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها،يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولي) ومهمة الخولي الإشراف والمراقبة.

وفي يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها في صُحْبة الخولي،وفي أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولي قناة ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه.

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله؛ لأنه عمل بيده في حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل.

لكن لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال؟ قالوا:لإنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد،لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرِف على آلاف من العمال. ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص في الأعمال.

وعلى الحاكم ووليّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله،ويتابع تطبيق الناس له،فيقف أمام أي فساد،ويأخذ على يد صاحبه،ويثيب المجتهد العامل،كما جاءَ في قوله تعالى في قصة

---

[١٢٦] - السنن الكبرى للبيهقي - حيدر آباد [١٠ /١١٨](٢٠٨٦١) حسن لغيره – والحديث عنده بغير هذا اللفظ

[١٢٧] - صحيح مسلم- المكتر [١ /٤٥٦](٣٨٠) وصحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٠ /٣٤٦](٤٤٩٥) زيادة مني

القرنين:{ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىا رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَىا وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً }[الكهف:٨٧ - ٨٨].

ذلك،لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن،ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع،لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع،وتضرب على أيدي المفسدين،لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي.

لذلك يقول تعالى:{ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }[الأنفال:٦٠] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذي يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع.

لذلك،فالنبي ﷺ يقول في الحديث إن السهم الذي يُرمى في سبيل الله،لكل مَنْ شارك في إعداده ورمية جزء من الثواب،فالذي قطعه من الشجرة والذي براه،والذي وضعه في القوس ورمى به؛ لأن في ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم،ولا يفسده أحد. فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ الْأَزْرَقِ،قَالَ:كَانَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ،يَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَسْتَتْبِعُهُ،فَكَأَنَّهُ كَادَ أَنْ يَمَلَّ،فَقَالَ:أَلَمْ أُخْبِرْكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،يَقُولُ . قَالَ:بَلَى . قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ:صَانِعَهُ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ،وَالَّذِي يُجَهِّزُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَالَّذِي يَرْمِي بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ "[١٢٨]

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر،إنما هي مسئولية كل فرد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين،كما جاء في عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- يَقُولُ « كُلُّكُمْ رَاعٍ،وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا،وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - قَالَ وَحَسِبْتُ

[١٢٨] - شعب الإيمان [٦ /١٤٨](٣٩٩٢) صحيح - زيادة مني

أَنْ قَدْ قَالَ - وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُم رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَــنْ رَعِيَّته »[١٢٩] ..

وعلى العامل ألاّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل،وليكُنْ هو رقيباً على نفسه،والله عــز وجل يراقب الجميع.قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِــنْ نَفْــسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١]

والمتأمل في حركة الحياة يجــدها متداخلــة،فمثلاً لــو أردتَ بنــاء بيت،فالهندســة حركة،والبناء حركة،والكهرباء حركة،والنجارة حركة،وهكذا..،فلو قلنــا:إن هــذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً،فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هــي عملــك الذي تتقنه،والباقي حركات لغيرك،فإنْ أخلصتَ فيما للنــاس عنــدك ألهمهــم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد،فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة،وأخلص النــاس لك في تسع وتسعين حركة.

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه،فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم،وكفاك مُؤْنة المراقبة،فقد يصنع لك الصانع شيئاً،ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين هذا؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحي أن يغش أمامه،أو لا يجد الشيء الذي يغشك به،أو غير ذلك من الأسباب التي يُسخِّرها الله لك،فيتقن لــك الصانع صَنْعته،ولو رَغْماً عن إرادته.

إذن:إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين.

ومن الأساسيات التي نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعــاً علــى أنهــم سواسية،لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح،فليس فينا مَنْ هو ابــن لله عز وجل،وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة،قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِــنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣].

---

[١٢٩] - صحيح البخارى- المكنز [٣ /٤٩٧](٨٩٣)

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا في إتقان العمل،فقيمة كل امرئ ما يُحسِنه،وقد ضربنا لذلك مثلاً،وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم،إنه رجل فرنسي كان نقيباً للعمال،وكان يدافع عن حقوقهم،ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة،فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به،فضجَّ العمال،وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له:اذكر يا معالي الوزير أنك كنت في يوم من الأيام ماسح أحذية،فما كان من الرجل إلا أن قال:نعم.. لكني كنت أجيدها.

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه،فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك في شيء فلا تغتر به،وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك؛ لأننا جميعاً عند الله سواء،لا يحابي أحداً على أحد،فأنت مُميز بعلمك أو قوتك،وغيرك أيضاً مُميز في سعادته مع أهله أو في أمانته وثقة الناس به،أو في رضاه بما قسم له أو في مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل،وقد يُميَّز الواحد مِنَّا بالولد الصالح الذي يكون مِطْواعاً لأبيه،وقُرة عَيْن له.

إذن:هذه مسألة مُقدّرة محسوبة؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك،لا تخفى عليه منك خافية،وحين يُميّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء،وينزع من قلوبنا الحِقْد والغلّ،وهكذا يتوازن المجتمع،ولا يكون التميز مثار حقدٍ؛ لأن تميزَ غيرك لصالحك،وسيعود عليك.

والحق – سبحانه وتعالى – يُحدِّثنا عن يوم القيامة،وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس،ويشتدّ بالناس الكرب،إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله يوم لا ظل إلا ظله،ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان في الدنيا،فأظلهم الله في الآخرة.

كما جاء في الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِى ظِلِّه يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ،وَشَابٌّ نَشَأَ فِى عِبَادَةِ رَبِّه،وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى الْمَسَاجِدِ،وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِى اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ،وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ

مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ،وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ[130].

نعم،لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ في الكون،فاستحقوا مظلَّة الله في الآخرة. وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة،هذا المجتمع الذي نريده هو مجتمع غنيّه متواضع،وفقيره كريم شريف،وشابُّه طائع. وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى[131].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[130] - أخرجه الجماعة المسند الجامع لمعروف وآخرين - موافق للمطبوع [١٨ /٧٨٨](١٥٢٧٠)

[131] - تفسير الشعراوي [ص ٢٥٧٠]

قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)} [مريم:٧٣،٧٤]..

إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد.وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمنتديات الفقيرة إلا من الإيمان.لا أبهة ولا زينة،ولا زخرف،ولا فخامة ..هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان!

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة:تقف بمالها وجمالها.بسلطانها وجاهها.بالمصالح تحققها،والمغانم توفرها،وباللذائذ والمتاع.وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع،تهزأ بالمال والمتاع،وتسخر من الجاه والسلطان وتدعو الناس إليها،لا باسم لذة تحققها،ولا مصلحة توفرها،ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذي سلطان.ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة من كل زخرف،عاطلة من كل زينة،معتزة بعزة اللّه دون سواه ..لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد والاستهتار،لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئا في هذه الأرض،إنما هو القرب من اللّه،وجزاؤه الأوفى يوم الحساب.

وهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات اللّه - على عهد الرسول ﷺ- فيقولون للمؤمنين الفقراء:«أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا؟» الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد،أم الفقراء الذين يلتفون حوله.أيهم خير مقاما وأحسن ناديا؟ النضير بن الحارث وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة وإخوانهم من السادة،أم بلال وعمار وخباب وإخوانهم من المعدمين؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيرا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا قيمة لهم في مجتمع قريش ولا خطر؟ وهم يجتمعون في بيت فقير عاطل كبيت خباب؟ ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب النوادي الفخمة الضخمة والمكانة الاجتماعية البارزة؟.

إنه منطق الأرض.منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان.وإنها لحكمة اللّه أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء،عاطلة من عوامل الإغراء.ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة للّه من دون الناس،ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات وينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع،ومن يشتهي الزينة والزخرف،ومن يطلب المال والمتاع.

ويعقب السياق على قولة الكفار التياهين،المتباهين بما هم فيه من مقام وزينة بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين،على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين:«وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً » ..

فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم.ولم يعصمهم شيء من اللّه حين كتب عليهم الهلاك.ألا إن هذا الإنسان لينسى.ولو تذكر وتفكر ما أخذه الغرور بمظهر ومصارع الغابرين من حوله تلفته بعنف وتنذره وتحذره،وهو سادر فيما هو فيه،غافل عما ينتظره مما لقيه من كانوا قبله وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا.[١٣٢]

وقال الشعراوي رحمه الله:

" هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين،المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم،وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها،وجاء منهج الله في صالحهم يُسوِّي بين الناس جميعاً:السادة والعبيد،والقوي والضعيف.

فطبيعي أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة،أهل الجاه والسيادة،وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم،أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله في وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم،فعندما نزل قَوْل الحق ـــ تبارك وتعالى ـــ:{ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ }[القمر:٤٥].

قال عمر ـــ رضي الله عنه ـــ وما أدراك مَنْ هو عمر؟ قال:أيّ جمع هذا؟ وأيُّ هزيمة،ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا؟

[١٣٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٣٠٠٨]

وفي هذه الآونة،يأمر رسول الله ﷺ المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة.
فلما جاء نصر الله للمؤمنين،وتأييده لهم في بدر. قال عمر:صدق الله:{ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ }[القمر:٤٥].

وفي هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله:ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلَّة وضيق العيش؟ أيرضي رَبٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحال،وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعة الرزق؟

وهكذا فتَن الله بعضهم ببعض،كما قال سبحانه:{ وَكَذالِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ }[الأنعام:٥٣].

فالمؤمن والكافر،والغني والفقير،والصحيح والمريض،كُلٌّ منهم فتنة للآخر لِيُمحِّص الله الإيمان،ويختبر اليقين في قلوب المؤمنين؛ لأن الله تعالى يعدهم لحمل رسالته ﷺ إلى الدنيا كلها في جميع أزمنتها وأماكنها،فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون في الإسلام،ليس لمغنم دنيوي،بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه،فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله.

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل في الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه،أمّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه.

فكيف يكون الغني فتنة للفقير،والفقير فتنة للغني؟ الغني مفتون بالفقير حيث هو في سَعَة من العيش والفقير في ضيق،الغني يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع،ويرتدي الغني الفاخر من الثياب والفقير عريان. فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدي حقها؟

والفقير مفتون بالغني حين يراه على هذه الحال،فهل سيصبر على هذه الشدة؟ أم سيعترض على ما قدَّره الله له،ويحقد على الغنيّ.

ولو علم الفقير أن الفقر درس تدريبي أُجْرِي لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله في كل زمان ومكان،وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَمَا اعترض على قسمة الله،ولَمَا حقد على صاحب الغنى.

وكذلك يُفتَن الصحيح بالمريض والمريض بالصحيح،فالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية،أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه،كما جاء في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ–،قَالَ:يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلاَ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:يَا ابْنَ آدَمَ،مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي،فَيَقُولُ:يَا رَبِّ،كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ:أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ وَيَقُولُ:يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ؟ فَيَقُولُ:يَا رَبِّ،كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ:أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا اسْتَسْقَاكَ فَلَمْ تَسْقِهِ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي،فَيَقُولُ:يَا رَبِّ،وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ:أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا اسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطْعِمْهُ،أَمَا لَوْ أَنَّكَ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي."[133].

لذلك ترى أهل الأمراض من المؤمنين يتألم زُوَّارهم من أمراضهم،في حين أهم في أُنْس بالله يشغلهم عن أمراضهم وعن آلامهم،ومَن الذي يزهد في معية الله؟ إذن:لو حقد المريض على السليم فهو مفتون به،وكان يجب عليه أن يعلم:إنْ كان الصحيح في معية النعمة فهو في معية المنعِم سبحانه وتعالى.

وسيدنا نوح ــ عليه السلام ــ بعد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب قومه:{ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ }[هود:٢٧] فكان أتباع نوح في نظرهم حثالة القوم،ثم حاولوا أنْ يُغروه بهم ليطردهم،فهم ضعاف لا جاهَ له ولا سلطان،فما كان منه إلا أنْ قال:{ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ }[هود:٢٩].

وقال في آية أخرى:{ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ }[هود:٣١].

فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدري أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين،ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم،ألم يقل الحق ــ تبارك وتعالى ــ

[133] – صحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [٣ /٢٢٤](٩٤٤) صحيح

لرسوله ﷺ:{ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ }[الأنعام:٥٢].

وهكذا جاء اللقطة التي معنا:{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم:٧٣].

قوله:}{ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } [مريم:٧٣] الآيات:جمع آية وهي الشيء العجيب الذي يتحدث به،وتُطلق ـ كما قلنا ـ على الآيات الكونية التي تثبت قدرة الله تعالى،وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر،وتُطلق على المعجزات التي تُثبت صدْق الرسول،كما جاء في قوله تعالى:{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىا تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىا فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً }[الإسراء:٩٠ـ٩٣].

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التي تحمل الأحكام،وهذه هي المرادة هنا؛ لأن آيات القرآن تنطوي فيها كل الآيات.

وقوله:{ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ } [مريم:٧٣] أي:لقد ارتضينا حكمكم في هذه المسألة:نحن الكفار في سَعَة،وأنتم يا أهلَ الإيمان في ضيق،فأيّ الفريقين خير مقاماً؟ والله بمقاييسكم أنتم. فأنتم خير،أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن.

والمقام ـ بفتح الميم:اسم لمكان قيامك من الفعل:قام.أما " مُقام " بضم الميم،فمِنْ أقام. والمراد هنا { خَيْرٌ مَّقَاماً } [مريم:٧٣] أي:مكاناً يقوم فيه على الآخر أي:بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره.

{ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم:٧٣] الإنسان عادةً له بيت يَأويه،وله مجلس يَأوي إليه،ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه " حجرة الجلوس " أو " المندرة "،وفيها يجلس كبير

القوم ومن حوله أهله وأتباعه،كما نقول في العامية:(عامل قعر مجلس)؛ لذلك إذا قام انفضَّ المجلس كله؛ لأنهم تابعون له،كما قال الشاعر:وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلسُ

وهناك النادي،وهو المكان الذي يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان،بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص،كما نرى الآن:نادى الرياضيين ونادى القضاة.. إلخ إذن:فالنادي دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق.

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى:{ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ }[العلق:١٧] ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام " دار الندوة "،وكانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله ﷺ.

ومن النادي ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله،فيجتمعون فيه لكُلِّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش،كما في قَوْل الحق ـ تبارك وتعالى ـ:{ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ }[العنكبوت:٢٩].

وفي هذا دليل على شيوع الفاحشة والقِحَة بين القادرين والمجاهرة بها،فلم يكونوا يقترفوها سِرّاً،بل في جَمْع من رُوَّاد هذه الأماكن.

والنادي أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أي:الكرم،ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت:رَفيع العِماد،كثير الرماد،قريب البيت من الناد.

والمعنى:أن بيته أقرب البيوت إلى النادي،فهو مَقْصد الناس في قضاء حاجياتهم.

إذن:كان قول الكفار للمؤمنين:{ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم:٧٣] موضع فتنة للفريقين،فقال المؤمنون:{ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ }[الأحقاف:١١] وقال الكفار:ما دام أن الله حبانا في الدنيا وهو الرزاق،فلا بد أنْ يَحْبُوَنَا في الآخرة،لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين،إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر،فقال تعالى:{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) }

كم:خبرية تدل على الكثرة التي لا تُحصَى،وأن المقول بعدها وقع كثيراً،كأن يقول لك صاحبك:أنت ما عملتَ معي معروفاً أبداً،فتُعدِّد له صنائع المعروف التي أسديتها إليه،فتقول:كم فعلتُ معك كذا،وكم فعلتُ كذا.

والقرن:هم الجماعة المتعايشون زماناً. بحيث تتداخل بينهم الأجيال،فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً،وقد قدَّروا القرن بمائة عام. كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مُلك واحد،أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً.

والأثاث:هو فراش البيت،وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه.

والرِّئْي:على وزن فِعْل،ويراد به المفعول أي:المرئي،كما جاء في قوله تعالى:{ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ }[الصافات:١٠٧] فذِبْح بمعنى:مذبوح.

وورد في قراءة أخرى:(أَحْسَنُ أَثَاثاً وزِيّاً) وهي غير بعيدة عن المعنى الأول:لأن الزيّ أيضاً من المرئي،إلا أنه يتكوّن من الزي والذي يرتديه،والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه،وقد افتخر الكفار بذلك،في حين كان المؤمنين شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقَّع والبالي من الثياب.

وقد جاء الاختلاف في بعض ألفاظ القرآن من قراءة الأخرى؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على مَلَكَة العربي وفصاحته التي تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق،وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف في العصر الأموي. فمثلاً النَّبْرة في كلمةٍ دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى:نون أو تاء أو ثاء. ومن أسفل تقرأ:باء أو ياء.

والعربي لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد،فكلمة (رِئْيا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد.

ومن ذلك كلمة{ فَتَبَيَّنُواْ }[النساء:٩٤] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة{ صِبْغَةَ }[البقرة:١٣٨] قرأها بعضهم (صنعة)،ودليل فصاحتهم أن الاختلاف في مثل هذه الحروف لا يؤدي إلى اختلاف المعنى.

لذلك،كان العربي قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشَكل،لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة. ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب؛ لأن العربي في هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد،فهي

بالنسبة له مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم. أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها.

والحق تبارك وتعالى يقول هنا:{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً } [مريم:٧٤] لأنهم قالوا:{ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً }[مريم:٧٣] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حَمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة،وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق ــ تبارك وتعالى ــ يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين،فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم،بل هي عطاء من الله وفِتْنة،حتى إذا أخذكم أخذكم عن عِزَّة وجاه؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغَيظ،أما إنْ أخذهم على حال ذِلَّة وَهَوان لم يكن لأخذه هذا الأثر فيهم.

فالحق سبحانه يُملي لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم،على حَدِّ قول الشاعر:

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةً   فَلمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ

فأطمعهم في البداية،ثم أخذهم وخيَّب آمالهم في النهاية.

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذي بلغ به العطش مَبْلغاً،فطلب الماء،فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فِيه،واستشرف الريِّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد،وألمُهُ أعظم،ولو لم يأتِه بالماء لكان أهونَ عليه.

إذن:حينما تُجرون مُقارنة بينكم وبين المؤمنين وتُعيِّروهم بما معكم من زينة الدنيا،فقد قارنتم الوسائل وطرحتُم الغايات،ومن الغباء أنْ نهتم بالوسائل وننسى الغايات،فلكي تكون المقارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين،بداية ونهاية.

ومثال ذلك:فلاح مجتهد في زراعته يعتني بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضه كل يوم،وآخر ينعَم بالثياب النظيفة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك،وينظر إلى صاحبه الذي أجهده العمل،ويرى نفسه أفضل منه،فإذا ما جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده،وجلس الآخر حزيناً محروماً. فلا بُدَّ أن تأخذ في الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات.لذلك وُفِّق الشاعر حين قال:

ألاَ مَنْ يُرِينِي غَايتِي قَبْل مذْهَبِي   ومنْ أينْ والغَايَاتُ بَعْد المذَاهِبِ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة في الدنيا عن الغاية في الآخرة،فتباهوا وعَيَّروا المؤمنين:{ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً }[مريم:٧٣].

وفي قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ:{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ }[العنكبوت:٢٤].وهكذا اتفقوا على الإحراق،ونجّى الله نبيه وخيَّب سَعْيهم،ثم كانت الغاية في الآخرة:{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ }[العنكبوت:٢٥].فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها.وهنا يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله:{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً } [مريم:٧٤] وكما قال في آيات أخرى:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ }[الفجر:٦ـ١٠].

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تَهُبَّ عليهم عواصف الرمال،فتطمس حضارتهم،وتجعلهم أثراً بعد عَيْن.

فدعاهم إلى النظر في التاريخ،والتأمّل في عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين،وما عساه أنْ يُغني عنهم من المقام والندىّ الذي يتباهون به،وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التي تنتظرهم في الآخرة؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يردّ عليهم بكلام نظري يقول:إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب،بل يعطيهم مثالاً من الواقع.ويخاطب نبيه ﷺ بقوله:{ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ }[غافر:٧٧] أي:من القهر والهزيمة والانكسار{ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }[غافر:٧٧] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا،فلن يفلت من عذاب الآخرة.

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر في عاقبة من قبلهم { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ } [مريم:٧٤] فإنما يحثُّهم على أخْذ العِبْرة والعِظَة ممَّنْ سبقوهم،ويستدل بواقع شيء حاضر على صِدْق غيْبٍ آت،فالحضارات التي سبقتهم والتي لم يوجد مثلها في

البلاد،وكان من صفاقما كذا وكذا،ماذا حدث لهم؟ فهل أنتم أشدّ منهم قـوة؟ وهـل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذِّبين؟

هذا من ناحية الواقع،أما الغيب فيعرض له القرآن في مشهد آخر،حيث يقول تعـالى:{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَـامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَـؤُلاَءِ لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ }[المطففين:٢٩ــ٣٣].هذا المشهد في الدنيا،فما بالهم في الآخـرة؟:{ فَـالْيَوْمَ الَّـذِينَ آمَنُـواْ مِـنَ الْكُفَّـارِ يَضْـحَكُونَ * عَلَـى الأَرَآئِـكِ يَنظُـرُونَ }[المطففين:٣٤ــ٣٥].ثم يخاطب الحق ــ سبحانه وتعالى ــ المؤمنين فيقول:{ هَـلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }[المطففين:٣٦].يعني:بعد ما رأيتموه من عـذابهم،هل قدرنا أنْ نُجازيهم عَمَّا فعلوه بكم من استهزاء في الدنيا؟ وعلى كُلٍّ فإن اسـتهزاءهم بكم في الدنيا موقوت الأجل،أما ضِحْككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ لـه. فـأيُّ الفريقين خَيْر إذن؟

فإياكم أنْ تغرّكم ظواهر الأشياء،أو تخدعكم بَرقات النعـيم وانظـروا إلى الغايـات والنهايات؛ لذلك يقول سبحانه:{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَـةُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَالْبَاقِيَـاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً }[الكهف:٤٦].

وفي سورة الأعراف لقطة أخرى من مواقف القيامة،حيث يقول أصـحاب الأعـراف لأهل النار:{ مَآ أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْـتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ }[الأعـراف:٤٨] ثم يلتفتون إلى المؤمنين في الجنة:{ أَهَـؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَـمْتُمْ لاَ يَنَـالُهُمُ اللَّـهُ بِرَحْمَـةٍ }[الأعراف:٤٩] فأين أنتم منهم الآن؟[١٣٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٣٤] - تفسير الشعراوي [ص ٢٣٠٧]

قال تعالى:«قُلْ:هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ،أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ،أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً،وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» ..

وتصور العذاب الغامر من فوق،أو النابع من تحت،أشد وقعا في النفس من تصوره آتيا عن يمين أو شمال. فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق،أو يأخذه من تحت،فهو عذاب غامر قاهر مزلزل،لا مقاومة له ولا ثبات معه! والتعبير الموحي يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه،وهو يقرر حقيقة قدرة اللّه على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء.

ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة اللّه والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء لونا آخر بطيئا طويلا لا ينهي أمرهم كله في لحظة ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار:«أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً،وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» ..وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد الذي يذوقونه بأيديهم،ويجرعونه لأنفسهم إذ يجعلهم شيعا وأحزابا،متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض،ولا يفاصل بعضها بعضا،فهي أبدا في جدال وصراع،وفي خصومة ونزاع،وفي بلاء يصبه هذا الفريق. على ذاك ..

ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب،كلما انحرفت عن منهج اللّه وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم .. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور. وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعا وشرائع وقوانين وقيما وموازين من عند أنفسهم يتعبد بها الناس بعضهم بعضا ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر،والبعض الآخر يأبى ويعارض،وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض. وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم.

فيذوق بعضهم بأس بعض،ويحقد بعضهم على بعض،وينكر بعضهم بعضا،لأنهم لا يفيئون جميعا إلى ميزان واحد يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد،حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكبارا عن الخضوع له،ولا يحس في نفسه صغارا حين يخضع له.

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم،ثم يزاول هذا الحق فعلا! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعا ملتبسة لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا،ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيدا لبعض ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها - لأنها غير مقيدة بشريعة من اللّه - ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص .. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض! وهم شيع ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة! والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد! وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض. وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها - والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة اللّه وحدها،ولا يفرد اللّه سبحانه بالألوهية والحاكمية - وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية،والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب:«أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» .. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديا وشعوريا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها - حتى يأذن اللّه لها بقيام «دار إسلام» تعتصم بها - وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها،ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه،جاهلية وأهل جاهلية. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج وأن تطلب بعد ذلك من اللّه أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة،ولم تتميز هذا التميز،حق عليها وعيد اللّه هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع،شيعة تتلبس بغيرها من الشيع،ولا تتبين نفسها،ولا

يتبينها الناس مما حولها. وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد دون أن يدركها فتح اللّه الموعود! إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات .. غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه،ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها ..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى اللّه على أيدي جميع رسل اللّه،يعطينا اليقين الجازم بأن فتح اللّه ونصره،وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم .. لم يقع في مرة واحدة،قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة - أي الدين - وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها - أي نظام حياتها - وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعا.

وطريق هذه الدعوة واحد. ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل اللّه جميعا،صلوات اللّه عليهم وسلامه:«انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» ..

واللّه نسأل أن يجعلنا ممن يصرف اللّه لهم الآيات فيفقهون ..[١٣٥]

وقال تعالى:« أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ؟ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ. أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ،وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» ..

أفأمن أهل القرى - وتلك سنة اللّه في الابتلاء بالضراء والسراء،والبأساء والنعماء،وتلك مصارع المكذبين السادرين،الذين كانوا قبلهم يعمرون هذه القرى ثم تركوها فخلفوهم فيها - أفأمنوا أن يأتيهم بأس اللّه في غفلة من غفلاتهم،وغرة من غراتهم؟ أفأمنوا أن يأتيهم بأس اللّه بالهلاك والدمار .. بياتا وهم نائمون ..

---

[١٣٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٥٥٢]

والإنسان في نومه مسلوب الإرادة،مسلوب القوة،لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة .. فكيف ببأس اللّه الجبار؟ الذي لا يقف له الإنسان في أشد ساعات صحوه واحتياطه وقوته؟

أفأمنوا أن يأتيهم بأس اللّه .. ضحى وهم يلعبون .. واللعب يستغرق اليقظة والتحفز،ويلهي عن الأهبة والاحتياط. فلا يملك الإنسان،وهو غارّ في لعبه،أن يدفع عن نفسه مغيرا. فكيف بغارة اللّه التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع؟

وإن بأس اللّه لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين. لاعبين أم جادين. ولكن السياق القرآني يعرض لحظات الضعف الإنساني،ليلمس الوجدان البشري بقوة،ويثير حذره وانتباهه،حين يترقب الغارة الطامة الغامرة،في لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة. وما هو بناج في يقظة أو غرة. فهذه كتلك أمام بأس اللّه سواء! «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟».

وتدبيره الخفي المغيب على البشر .. ليتقوه ويحذروه .. « فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ» ..

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار. وما يغفل عن مكر اللّه هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار! أفأمنوا مكر اللّه وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين،الذين هلكوا بذنوبهم،وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم؟

«أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ،وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» ..إن سنة اللّه لا تتخلف ومشيئة اللّه لا تتوقف. فما الذي يؤمنهم أن يأخذهم اللّه بذنوبهم كما أخذ من قبلهم؟

وأن يطبع على قلوبهم فلا يهتدوا بعد ذلك،بل لا يستمعوا إلى دلائل الهدى،ثم ينالهم جزاء الضلال في الدنيا والآخرة .. ألا إن مصارع الخالين قبلهم،ووراثتهم لهم،وسنة اللّه الجارية .. كل أولئك كان نذيرا لهم أن يتقوا ويحذروا وأن يطرحوا عنهم الأمن

الكاذب،والاستهتار السادر،والغفلة المردية وأن يعتبروا بما كان في الذين خلــوا مــن قبلهم. عسى ألا يكون فيهم. لو كانوا يسمعون! وما يريد اللّه للناس بهذا التحــذير في القرآن أن يعيشوا مفزعين قلقين يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة مــن ليل أو نهار. فالفزع الدائم من المجهول،والقلق الدائم من المستقبل،وتوقع الدمار في كل لحظة .. قد تشل طاقة البشر وتشتتها وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمــل والنتــاج وتنمية الحياة وعمارة الأرض .. إنما يريد اللّه منهم اليقظة والحساسية والتقوى،ومراقبة النفس،والعظة بتجارب البشر،ورؤية محركات التــاريخ الإنســاني،وإدامة الاتصــال باللّه،وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة.

واللّه يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة،إذا هم أرهفــوا حساسيتهم به،وإذا هم أخلصوا العبودية له وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحيــاة. فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار اللّه لا في جوار النعيم المادي المغري. وإلى الثقة بقــوة اللّه لا بقوتهم المادية الزائلة. وإلى الركون إلى ما عند اللّه لا إلى ما يملكون من عــرض الحياة.

ولقد سلف من المؤمنين باللّه المتقين للّه سلف ما كان يأمن مكر اللّه. وما كان يــركن إلى سواه. وكان بهذا وذاك عامر القلب بالإيمان،مطمئنا بذكر اللّه،قويا على الشــيطان وعلى هواه،مصلحا في الأرض بهدى اللّه،لا يخشى الناس واللّه أحق أن يخشاه.

وهكذا ينبغي أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس اللّه الذي لا يدفع،ومن مكر اللّه الذي لا يدرك. لندرك أنه لا يدعو إلى القلق إنما يدعو إلى اليقظة،ولا يؤدي إلى الفــزع إنما يؤدي إلى الحساسية،ولا يعطل الحياة إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان.

والمنهج القرآني - مع ذلك - إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة،وأطوار الأمــم والجماعات المتنوعة،ويطب لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم. فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار اللّه،حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحيــاة.

ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس اللّه،حين تـــركن إلى قـــوى الأرض ومغريات الحياة. وربك أعلم بمن خلق،وهو اللطيف الخبير[١٣٦]..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٣٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٧٩٥] وراجع بتوسع فصل:«خطـــوط متقابلة في النفس الإنسانية» في كتاب:«منهج التربية الإسلامية» وكتاب:«دراسات في النفس الإنسانية» لمحمد قطب «دار الشروق».

إنَّ المد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية:

« فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ. وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً. وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ:رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها،وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً؟ الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ،فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ،إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» ... (النساء:٧٤ – ٧٦).

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ،وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ. وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ،نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» ... (الأنفال:٣٨ – ٤٠) ..

« قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ. وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ،وَقالَتِ النَّصارى:الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ،قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ! اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ،وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً،لا إِلهَ إِلَّا هُوَ،سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ،وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» .. (التوبة:٢٩ – ٣٢).

إنها مبررات تقرير ألوهية اللّه في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس. ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس،والناس عبيد اللّه وحده،لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه

ورأيه! وهذا يكفي .. مع تقرير مبدأ:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» ..أي لا إكراه على اعتناق العقيدة،بعد الخروج من سلطان العبيد والإقرار بمبدأ أن السلطان كله للّه. أو أن الدين كله للّه. بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض. بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده بلا شريك .. وهذه وحدها تكفي .. ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول:خرجنا ندافع عن وطننا المهدد! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة! لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر،وحذيفة بن محصن،والمغيرة بن شعبة،جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية،وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية،قبل المعركة:ثم بعث إليه سعد رضي الله عنه رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر،فدخل عليه وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة،والزَّرابي الحرير،وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة،وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة،وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة،ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط،ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد،وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له:ضع سلاحك فقال:إني لم آتِكم وإنّما جئتكم حين دعوتموني،فإنما تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم:إئذنوا له،فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها،فقالوا له:ما جاء بكم؟ فقال:الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله،ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها،ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإِسلام،فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه،ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله،قالوا:وما موعودُ الله؟ قال:الجنة لمن مات على قتال من أبى،والظفر لمن بقي. فقال رستم:لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال:نعم،كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين،قال:لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال:ما سنَّ لنا رسول الله

ﷺأن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث،فانظر في أمرك وأمرهم،واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال:

أسيِّدهم أنت؟ قال:لا،ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال:هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا:معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال:ويلَكم لا تنظروا إلى الثياب،وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة،إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب...[١٣٧]

إن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته وفي إعلانه العام،وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه،في مراحل محددة،بوسائل متجددة .. وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء - ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها - إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته،وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية .. لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة،وموقوتة!

وإنه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله .. «فِي سَبِيلِ اللَّهِ». في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ولا يخرجه لها مغنم ذاتي ..

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان .. مع هواه وشهواته[١٣٨] .. مع مطامعه ورغباته .. مع مصالحه

---

[١٣٧] - البداية والنهاية لابن كثير - موافقة للمطبوع [٧ /٤٦]

[١٣٨] - عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْمٌ غُزَاةٌ ، فَقَالَ ﷺ " قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ . قَالُوا : وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ ؟ قَالَ : مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ " .

وعَنْ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ عَمْرَو بْنَ مَالِكٍ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لِلَّهِ "الْجِهَادُ لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ(١١) صحيح

المجاهدة : الاجتهاد في طاعة الله وزيادة النوافل تقربا إليه سبحانه

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :" ولما كان جهاد أعداءِ الله فى الخارج فرعاً على جهادِ العبد نفسه فى ذاتِ الله، كما عَنْ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ ،قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللهِ.صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١١ /٥](٤٧٠٦) صحيح.

كان جهادُ النفس مُقَدَّماً على جِهَادِ العدوِّ فى الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلاً لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا فى الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه فى الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف

ومصالح عشيرته وقومه .. مع كل شارة غير شارة الإسلام .. ومـــع كـــل دافـــع إلا العبودية للّه،وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان اللّه.

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية «الوطن الإسلامي» يغضون من شأن «المنهج» ويعتبرونه أقل من «الموطن»! وهذه ليست نظـــرة الإســـلام إلى هـــذه الاعتبار ات .. إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي،فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبـــار ات الوحيـــدة في الحـــس الإسلامي. أما الأرض – بذاتها – فلا اعتبار لها ولا وزن! وكـــل قيمـــة لـــلأرض في

منه، وعدوُّه الذى بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه فى الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوِّه، حتى يُجاهِدَ نفسَه على الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَـــبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما فى جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظـــوظ، وفـــوتِ اللذاتِ، والمشهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدويْنِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصلَ لجهادهمـــا، وهـــو الشيطان، قال تعالى: {إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً} [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوُسع فى مُحاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلى بمحاربتها فى هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحاناً من الله له وابتلاءً، فأعطى اللهُ العبدَ مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً لهذا الجِهَادِ، وأعطى أعداءه مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً، وبَلاَ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضَهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يَتولاَّه، ويتولَّى رسُلَهُ ممن يتولَّى الشيطانَ وحزبه، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً} [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: {ذَلِكَ، وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد: ٤]، وقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَـــمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُـــوَى، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: {أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُـــواْ} [الأنفـــال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم بـــه، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعضَ ما أُمروا بـــه، ولمعصـــيتهم لـــه، ثم لم يُؤْيسهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يستَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جِرَاحَهُم، ويَعُودوا إلى مُناهضةِ عـــدوهم فينصَـــرهم عليهم، ويُظفرَهم بهم، فأخبرهم أنه معَ المتقين مِنهم، ومعَ المحسنينَ، ومعَ الصابرين، ومعَ المؤمنين، وأنه يُدافع عـــن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنـــهم، لـــتخطّفهم عدوُّهم، واجتاحهم.وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلى قَدْرِهِ، فإن قَوِىَ الإيمانُ، قويتِ الْمُدافعة، فمَن وجـــد خيراً، فليحمَدِ الله، ومَن وجد غيرَ ذلِكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه.زاد المعاد في هدي خير العباد–مؤسسة الرسالة، بيروت [٣ /٦]

التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج اللّه وسلطانه فيها. وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و«دار الإسلام» ونقطة الانطلاق لتحرير «الإنسان» ..

وحقيقة أن حماية «دار الإسلام» حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج. ولكنها هي ليست الهدف النهائي. وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي. إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة اللّه فيها. ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها،وإلى النوع الإنساني بجملته. فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين،والأرض هي مجاله الكبير! وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة،ونظام المجتمع،وأوضاع البيئة ..وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة.كي يخلو له وجه الأفراد من الناس،يخاطب ضمائرهم وأفكارهم،بعد أن يحررها من الأغلال المادية ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار .

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ «الجهاد»،وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية،فنروح نبحث للجهاد الإسلامي عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين،في ملابسات دفاعية وقتية،كان الجهاد سينطلق في طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد! ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبار ات الذاتية في طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي .. وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له. لأن مجرد وجوده،في صورة إعلان عام لربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الإنسان من العبودية لغير اللّه،وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية،وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية،لأن الحاكمية فيه للّه وحده .. إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله،القائمة على قاعدة العبودية للعباد،أن تحاول سحقه،دفاعا عن وجودها ذاته. ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه ..

هذه ملابسة لا بد منها. تولد مع ميلاد الإسلام ذاته. وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا،ولا خيار له في خوضها. وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا ..

هذا كله حق .. ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده. ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضا ..

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة .. إن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء لإنقاذ «الإنسان» في «الأرض» من العبودية لغير اللّه. ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية تاركا «الإنسان» .. نوع الإنسان .. في «الأرض» ..كل الأرض .. للشر والفساد والعبودية لغير اللّه.

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام،إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ورضي أن يدعها وشأنها و لم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام! .. ولكن الإسلام لا يهادنها،إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية،ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها.

هذه طبيعة هذا الدين،وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية اللّه للعالمين وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير اللّه في الناس أجمعين! وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة،وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية،لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه في هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق! إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج اللّه للحياة البشرية،وليس منهج إنسان،ولا مذهب شيعة من الناس،ولا نظام جنس من الأجناس! .. ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة .. حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية اللّه وعبودية العباد .. إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي! والمسافة قد لا

تبدو كبيرة عند مفرق الطريق،بين تصور أن الإسلام كان مضطرا لخـوض معركـة لا اختيار له فيها،بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بـد أن تهاجمه. وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء،فيدخل في هذه المعركة ..

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة. فهو في كلتا الحالتين سـيدخل المعركـة حتما. ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة،تغير المشاعر والمفهومات الإسـلامية تغييرا كبيرا .. خطيرا ..

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجا إلهيا،جـاء ليقـرر ألوهيـة اللّـه في الأرض،وعبودية البشر جميعا لإله واحد،ويصب هذا التقرير في قالب واقعي،هو المجتمع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد،فلا تحكمهم إلا شريعة اللّه،التي يتمثل فيها سلطان اللّه،أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته .. فمن حقـه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه،ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حـواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي،أو أوضاع الناس الاجتماعية .. إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو،واعتبار ه نظاما محليا في وطن بعينـه. فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية! هذا تصـور .. وذاك تصور .. ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد .. ولكن التصور الكلي لبواعـث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه،يختلف اختلافا بعيدا،يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه.

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء. فالإسلام ليس نحلة قوم،ولا نظام وطن،ولكنـه منهج إله،ونظام عالم .. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضـاع التي تغل من حرية «الإنسان» في الاختيار.

وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته. إنمـا يهـاجم الأنظمـة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة،المفسدة للفطرة،المقيدة لحرية الاختيار.

من حق الإسلام أن يخرج «الناس» من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحـده .. ليحقـق إعلانه العام بربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الناس أجمعين .. وعبادة اللّه وحده لا تتحقق –

في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي – إلا في ظل النظام الإسلامي. فهـــو وحـــده النظام الذي يشرع اللّه فيه للعباد كلهم. حاكمهم ومحكومهم.أســـودهم وأبيضـــهم. قاصيهم ودانيهم. فقيرهم وغنيهم تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء .. أما في سائر الأنظمة،فيعبد الناس العباد،لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد. وهـــو مـــن خصائص الألوهية.

فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفســـه فقـــد ادعـــى الألوهيـــة اختصاصا وعملا،سواء ادعاها قولا أم لم يعلن هذا الادعاء! وأيما بشر آخـــر اعتـــرف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية،سواء سماها باسمها أم لم يســـمها! والإسلام ليس مجرد عقيدة. حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان. إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس. والتجمعـــات الأخـــرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو.

ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام. وهذا – كما قلنا من قبل – معنى أن يكون الدين كله للّه. فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته،كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبوديـــة العبـــاد للعباد! إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضـــر،وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر،يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة. لأن المستشرقين صـــوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيـــدا أن هذه ليست هي الحقيقة. ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة .. ومن ثم يقوم المنافحون – المهزومون – عن سمعة الإسلام،بنفي هذا الاتهام! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإســـلام ووظيفته،وحقـــه في «تحريـــر الإنسان» ابتداء.

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين – المهزومين – ذلك التصور الغربي لطبيعـــة «الدين» .. وأنه مجرد «عقيدة» في الضمير لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة .. ومن ثم يكون الجهاد للدين،جهادا لفرض العقيدة على الضمير! ولكن الأمر ليس كذلك في

الإسلام. فالإسلام منهج اللّه للحياة البشرية. وهو منهج يقوم على إفراد اللّــه وحــده بالألوهية – متمثلة في الحاكمية – وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتنــاع،في ظل النظام العام،بعد رفع جميع المؤثرات .. ومن ثم يختلف الأمر من أساسه،وتصبح لــه صورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي،الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي،فإن اللّــه يمنحــه حــق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام. مع ترك مسألة العقيــدة الوجدانيــة لحرية الوجدان .. فإذا كف اللّه أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد،فهــذه مســألة خطة لا مسألة مبدأ. مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة. وعلــى هــذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة،في المراحل التاريخية المتجددة. ولا نخلط بين دلالالتها المرحلية،والدلالة العامة لخــط الحركــة الإســلامية الثابــت الطويل..[١٣٩]

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

[١٣٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٩٣٨]

قال تعالى:«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ. لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ،فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً،فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ،أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» ..

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ،وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ،وَالْحُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ،وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَائِنَا،كُلٌّ قَدْ حَدَّثَ بَعْضَ الْحَدِيثِ،عَنْ يَوْمِ أُحُدٍ،وَقَدِ اجْتَمَعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا سُقْتُ،قَالُوا:لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ،وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّةَ،وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بِعِيرِهِ،مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ،وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ،وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ،فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ،فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ،فَقَالُوا:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ،فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ،لَعَلَّنَا أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُ ثَأْرًا مِمَّنْ أَصَابَ مِنَّا،فَفَعَلُوا،فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ:إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺبِأَحَابِيشِهَا وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ،خَرَجُوا مَعَهُمْ بِالظَّعِينِ الْتِمَاسَ الْحَفِيظَةِ وَأَنْ لَا يَفِرُّوا،فَخَرَجُوا حَتَّى نَزَلُوا يَعْنِينَ بِبَطْنِ السَّبَخَةِ عَلَى شَفِيرِ وَادٍ مِمَّا يَلِي الْمَدِينَةَ . فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَالْمُسْلِمُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِلْمُسْلِمِينَ:" إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ بَقَرًا تُذْبَحُ،وَأَوَّلْتُهَا خَيْرًا،وَرَأَيْتُ فِي ذُؤَابَةِ سَيْفِي ثَلْمًا،وَرَأَيْتُ أَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ،فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ . فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدَعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا،فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مُقَامٍ،وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْتُمُوهُمْ فِيهَا " . قَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ يَوْمَ أُحُدٍ،وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ كَانَ فَاتَهُ يَوْمُ بَدْرٍ مِمَّنْ حَضَرَهُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اخْرُجْ بِنَا إِلَى أَعْدَائِنَا،لَا يَرَوْنَ أَنَّا جَبُنَّا عَنْهُمْ،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:أَقِمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَا

تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ،فَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺالَّذِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حُبُّ لِقَاءِ الْقَوْمِ،حَتَّى دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَلَبِسَ لَأْمَتَهُ،وَذَلِكَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ حِينَ فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ،وَقَدْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ:مَالِكُ بْنُ عَمْرٍو،أَحَدُ بَنِي النَّجَّارِ،فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ،وَقَدْ نَدِمَ النَّاسُ فَقَالُوا:اسْتَكْرَهْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا،فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَا يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ،فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي أَلْفِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّوْطِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ انْخَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ الْمُنَافِقُ بِثُلُثِ النَّاسِ،وَقَالَ:أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي،قَالَ:وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَذَكَرَ كَيْفِيَّةَ مَسِيرِهِ،قَالَ:فَصَفَّهُمْ وَلِوَاؤُهُ يَوْمَئِذٍ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ غَدَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَعَ مَنْ لِوَاءُ الْقَوْمِ ؟ " قَالُوا:مَعَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ،فَقَالَ ﷺ:" نَحْنُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ "،فَدَعَا مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ،فَأَعْطَاهُ اللِّوَاءَ،ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ خَرَجَ يَوْمَ أُحُدٍ فَدَعَا إِلَى الْبِرَازِ،فَأَحْجَمَ النَّاسُ عَنْهُ حَتَّى دَعَا ثَلَاثًا،وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ،فَقَامَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فَوَثَبَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ فَاسْتَوَى مَعَهُ عَلَى رَحْلِهِ،ثُمَّ عَانَقَهُ فَأَقْبَلَا فَوْقَ الْبَعِيرِ جَمِيعًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" الَّذِي يَلِي حَضِيضَ الْأَرْضِ مَقْتُولٌ "،فَوَقَعَ الْمُشْرِكُ وَوَقَعَ الزُّبَيْرُ عَلَيْهِ فَذَبَحَهُ بِسَيْفِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" ادْنُ يَا ابْنَ صَفِيَّةَ،فَلَقَدْ قُمْتَ وَإِنِّي لَأَهُمُّ بِالْقِيَامِ إِلَيْهِ "،وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ إِحْجَامِ الْقَوْمِ عَنْهُ،ثُمَّ قَرَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺالزُّبَيْرَ فَأَجْلَسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَقَالَ:" إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَالزُّبَيْرُ حَوَارِيَّ " . قَالَ:وَأَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَلَى الرُّمَاةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،وَالرُّمَاةُ خَمْسُونَ رَجُلًا،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ،لَا يَأْتُونَنَا مِنْ خَلْفِنَا،إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَكَ لَا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ "،وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَوْمَئِذٍ بَيْنَ دِرْعَيْنِ . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:فَالْتَقَوْا يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ،وَاقْتَتَلَ النَّاسُ حَتَّى حَمِيَتِ الْحَرْبُ،وَقَاتَلَ أَبُو دُجَانَةَ حَتَّى أَمْعَنَ فِي النَّاسِ،وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي رِجَالٍ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَصْرَهُ،وَصَدَقَهُمْ وَعْدَهُ،فَحَسُّوهُمْ بِالسُّيوفِ حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنِ الْعَسْكَرِ،وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ لَا شَكَّ فِيهَا "[140].

وليس هذا الذي حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجا من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا الدين .. إنهم ينفقون أموالهم،ويبذلون جهودهم،ويستنفدون كيدهم،في الصد عن سبيل اللّه،وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين. وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين ..

إن المعركة لن تكف. وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة. ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن. وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية،وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ثم لإعلاء راية اللّه حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت.

واللّه - سبحانه - ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل اللّه بأنها ستعود عليهم بالحسرة ..

إنهم سينفقونها لتضيع في النهاية،وليغلبوا هم وينتصر الحق في هذه الدنيا. وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم،فتتم الحسرة الكبرى .. ذلك ..

«لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ،وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ،فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» ..فكيف؟

إن هذا المال الذي ينفق يؤلب الباطل ويملي له في العدوان فيقابله الحق بالكفاح والجهاد وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة .. وفي هذا الاحتكاك المرير،تنكشف الطباع،ويتميز الحق من الباطل،كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل - حتى بين الصفوف التي تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ! - ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر اللّه،لأنهم أهل لحمل أماناته،والقيام عليها،وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة .. عند ذلك يجمع اللّه الخبيث على الخبيث،فيلقي به في جهنم ..وتلك غاية الخسران ..والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى

---

[140] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٠٧٥) صحيح مرسل - أورده مختصرا

لكأنه جرم ذو حجم،وكأنما هو كومة من الأقذار،يقذف بها في النار،دون اهتمـــام ولا اعتبار ! «فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ» ..

وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعا أعمق في الحس .. وتلك طريقة القـــرآن الكـــريم في التعبير والتأثير .. [١٤١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٤١] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٣٨]

مفرق الطريق بين من يبيع نفسه لله وبين من يبيعها لغيره

قال تعالى:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ،وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ،وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ،الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ،الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ،وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» ..

هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عده من المرات،في أثناء حفظي للقرآن،وفي أثناء تلاوته،وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان ..هذا النص - حين واجهته في «الظلال» أحسست أنني أدرك منه ما لم أدركه من قبل في المرات التي لا أملك عدها على مدى ذلك الزمان! إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين باللّه وعن حقيقة البيعة التي أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة.فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان.وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق! حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها اللّه كرما منه وفضلا وسماحة - أن اللّه - سبحانه - قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيء ..لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله.

لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا ..كلا ..إنها صفقة مشتراة،لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء،وفق ما يفرض ووفق ما يحدد،وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم،لا يتلفت ولا يتخير،ولا يناقش ولا يجادل،ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام ..والثمن:هو الجنة ..والطريق:هو الجهاد والقتل والقتال ..والنهاية:هي النصر أو الاستشهاد:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

من بايع على هذا.من أمضى عقد الصفقة.من ارتضى الثمن ووفى.فهو المؤمن ..فالمؤمنون هم الذين اشترى اللّه منهم فباعوا ..ومن رحمة اللّه أن جعل للصفقة ثمنا،وإلا فهو واهب الأنفس والأموال،وهو مالك الأنفس والأموال.ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع اللّه - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة:..شر البهيمة ..«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ» ..كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

عونك اللهم! فإن العقد رهيب ..وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها،قاعدون،لا يجاهدون لتقرير ألوهية اللّه في الأرض،وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد.ولا يقتلون.ولا يقتلون.ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول اللّه - ﷺ- فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم،أو يحسونها مجردة في مشاعرهم.كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.لتحويلها إلى حركة منظورة،لا إلى صورة متأملة ..هكذا أدركها عبد اللّه بن رواحة - رضي اللّه عنه - في بيعة العقبة الثانية.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت ! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟

قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل !فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية[١٤٢]..

هكذا ..«ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل» ..لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها،وأمضي عقدها،ولم يعد إلى مرد من سبيل:«لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة:ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من اللّه؟ أليس اللّه هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» ..

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟».أجل! ومن أوفى بعهده من اللّه؟

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن ..كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه ..إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» ..«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» ..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه.ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق! ..بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق ..إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده.ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق ..بل لا بد أن يقطع عليه الطريق ..ولا بد لدين اللّه أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله.ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا! ..وما دام في «الأرض» كفر.وما دام في «الأرض» باطل.وما دامت في «الأرض» عبودية لغير اللّه تذل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل اللّه ماض،والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء.وإلا فليس بالإيمان،فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[١٤٣].

---

[١٤٢] - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٤ /٢١٨] وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤ /٤٩٩](١٧٢٧٠)
ونحن نستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك.السيد رحمه الله

[١٤٣] - صحيح مسلم- المكنز [١٢ /٤٦٣](٥٠٤٠)

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال.وهذه آية مدنية قطعا.ولكنها تنفق مع مضمون تلك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه،وأخذ الجنة عوضا وثمنا،كما وعد اللّه ..وما الذي فات؟

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ واللّه ما فاته شيء.فالنفس إلى موت،والمال إلى فوت.سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللّه أم في سبيل سواه! والجنة كسب.كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه.ينتصر – إذا انتصر – لإعلاء كلمته،وتقرير دينه،وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله،ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض،والإيمان ينتصر فيه على الألم،والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم،وانتصار العقيدة فيه على الحياة ..فإذا أضيفت إلى ذلك كله ..الجنة ..فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» ..

فوعد اللّه للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور ..وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل اللّه في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتبار ه الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي،يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامي على أساسه

بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحده للعباد،وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد.كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته للّه وحده دون العباد ..ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها – في حتمية لا فكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري،لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد اللّه للمجاهدين في التوراة والإنجيل.فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان ..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما اللّه على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة ..وهو قليل ..أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد،والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين،لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للّه – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله.فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد ..ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها – بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! – وقبل ذلك بشهادة اللّه سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.واللّه سبحانه يقول في كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن ..فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.كل مؤمن على الإطلاق.منذ كانت الرسل،ومنذ كان دين اللّه ..ولكن الجهاد في سبيل اللّه ليس مجرد اندفاعة إلى

القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشـاعر وشـعائر وأخـلاق وأعمال:والمؤمنون الذين عقد اللّه معهم البيعة،والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة:« التَّائِبُونَ.الْعابِدُونَ.الْحامِدُونَ.السَّائِحُونَ.الرَّاكِعُـونَ السَّاجِدُونَ.الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ.وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ»

«التَّائِبُونَ» ..مما أسلفوا،العائدون إلى اللّه مستغفرين.والتوبة شعور بالنـدم علـى مـا مضى،وتوجه إلى اللّه فيما بقي،وكف عن الذنب،وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك.فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح.

«الْعابِدُونَ» ..المتوجهون إلى اللّه وحده بالعبادة وبالعبودية،إقرارا بالربوبية ..صفة هذه ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر،كما يترجمها التوجه إلى اللّه وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع.فهي إقرار بالألوهية والربوبية للّه في صورة عملية واقعية.

«الْحامِدُونَ» ..الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة وتلـهج ألسـنتهم بحمد اللّه في السراء والضراء.في السراء للشكر على ظاهر النعمة،وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة.وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها،ولكنـه الحمـد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن اللّه الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخـير يعلمه،مهما خفي على العباد إدراكه.

« السَّائِحُونَ» ..وتختلف الروايات فيهم.فمنها ما يقول:إنهم المهـاجرون.ومنـها مـا يقول:إنهم المجاهدون.ومنها ما يقول:إنهم المتنقلون في طلب العلم.ومنهم من يقول:إنهم الصائمون ..ونحن نميل إلى اعتبار هم المتفكرين في خلق اللّه وسننه،ممن قيل في أمثـالهم في موضع آخر:«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ،الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ،وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ:رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ! ...» ..فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعـد التوبة والعبادة والحمد.فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت اللّه علـى هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى اللّه،وإدراك حكمته في خلقه،وإدراك الحـق الـذي

يقوم عليه الخلق.لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار .ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ..

«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» ..الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاقم وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.

« الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» ..وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة اللّه،فيدين للّه وحده ولا يدين لسواه،يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج اللّه وشرعه ..ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه للّه وحده،وشريعة اللّه وحدها هي الحاكمة فيه،فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر،وهو تقرير ألوهية اللّه وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم.والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر.وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير اللّه عن طريق حكمهم بغير شريعة اللّه ..والذين آمنوا بمحمد - ﷺ- هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة اللّه،وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة.فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي.ولم ينفقوا قط جهدهم،قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع.فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر،كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

«وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» ..وهو القيام على حدود اللّه لتنفيذها في النفس وفي الناس.ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها ..ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،لا يقام عليها إلا في مجتمع مسلم.ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة اللّه وحدها في أمره كله وإلا الذي يفرد اللّه سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ويرفض حكم الطاغوت المتمثل في كل شرع لم يأذن به اللّه ..والجهد كله

يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع.ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود اللّه فيه ..كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد اللّه معها بيعته.وهذه هي صفاتها ومميزاتها:توبة ترد العبد إلى اللّه،وتكفه عن الذنب،وتدفعه إلى العمل الصالح.وعبادة تصله باللّه وتجعل اللّه معبوده وغايته ووجهته.وحمد للّه على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل للّه والثقة المطلقة برحمته وعدله.وسياحة في ملكوت اللّه مع آيات اللّه الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق.وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة.وحفظ لحدود اللّه يرد عنها العادين والمضيعين،ويصونها من التهجم والانتهاك ..

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها اللّه على الجنة،واشترى منها الأنفس والأموال،لتمضي مع سنة اللّه الجارية منذ كان دين اللّه ورسله ورسالاته.قتال في سبيل اللّه لإعلاء كلمة اللّه وقتل لأعداء اللّه الذين يحادّون اللّه أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل،وبين الإسلام والجاهلية،وبين الشريعة والطاغوت،وبين الهدى والضلال. وليست الحياة لهوا ولعبا.وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا.وليست الحياة سلامة ذليلة،وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة ..إنما الحياة هي هذه:كفاح في سبيل الحق،وجهاد في سبيل الخير،وانتصار لإعلاء كلمة اللّه،أو استشهاد كذلك في سبيل اللّه ..ثم الجنة والرضوان ..هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون باللّه:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ» ...وصدق اللّه.وصدق رسول اللّه ..[١٤٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٤٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٢٨]

مفرق الطريق بين من يصدق بالوحي وبين من لا يصدِّقه

قال تعالى:«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ» ..الحكيم الذي يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر،ويعرض في هذه السورة جوانب منها صادقة باقية،نجد مصداقها في كل جيل.

والحكيم الذي ينبه الغافلين إلى تدبر آيات اللّه في صفحة الكون وتضاعيفه.في السماء والأرض.وفي الشمس والقمر.وفي الليل والنهار ..وفي مصارع القرون الأولى.وفي قصص الرسل فيهم ..وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود ..«أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ،وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قالَ الْكافِرُونَ.إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ»:

سؤال استنكاري.يستنكر هذا العجب الذي تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل.

لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول:أبعث اللّه بشرا رسولا؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة «الإنسان».عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة «الإنسان» الذي يتمثل فيهم.فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول اللّه،وأن يتصل اللّه به – عن طريق الوحي – فيكلفه هداية الناس.إنهم ينتظرون أن يرسل اللّه ملكا أو خلقا آخر أعلى رتبة من الإنسان عند اللّه.غير ناظرين إلى تكريم اللّه لهذا المخلوق ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته وأن يختار من بين أفراده من يتصل باللّه هذا الاتصال الخاص.

هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول – ﷺ– وشبهة أمثالهم في القرون الأولى.

فأما في هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتا عن تلك! إنهم يسألون:كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين اللّه المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق.والذي ليس كمثله شيء؟

وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علما بحقيقة اللّه سبحانه وطبيعة ذاته الإلهية،كما أحاط علما بكل خصائص الإنسان التي أودعها اللّه إياه.وهو مالا يدعيه أحد يحترم عقله،ويعرف حدود هذا العقل.بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد،و لم يقف العلم بعد حتى يقال:إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك.فضلا على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائما آفاق من المجهول بعد آفاق! ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا اللّه.واللّه أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة.وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس،ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة.ولكن اللّه الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كل خلية،وكل بنية،وكل مخلوق وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها.

ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب.ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه.فللعلم ميدان.هو الميدان الذي يملك أدواته.وللعلم آفاق هي الآفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها.والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقيا عن الروح.فهي ليست داخلة في نطاق عمله،لأنها ليست شيئا قابلا للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله.لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل في ميدان الروح.أما ما يسمى «بالعلوم الروحانية» فهي محاولات وراءها الريب والشكوك في حقيقتها وفي أهدافها كذلك! [١٤٥]

ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان إلا ما جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس.إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية.والعقل هنا في غير ميدانه،وليس معه أدواته.لأنه لم يزود بأدوات العمل في هذا الميدان.

---

[١٤٥] - راجع الكراسة التي كتبها الدكتور محمد محمد حسين بعنوان:«الروحية الحديثة:حقيقتها وأهدافها» ..

« أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟».

فهذه خلاصة الوحي:إنذار الناس بعاقبة المخالفة،وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة.وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهي الواجبة الاجتناب.فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال.

والإنذار للناس جميعا.فكل الناس في حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير:والبشرى للذين آمنوا وحدهم.

وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار ..تلك المعاني التي توحي بها كلمة (صدق) مضافة إلى القدم.في جو الإنذار والتخويف ..«قدم صدق» ..قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد،في جو الإنذار وفي ظلال الخوف،وفي ساعات الحرج ..«قدم صدق عند ربهم» ..في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة.حينما تتزلزل القلوب والأقدام.

وحكمة اللّه واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم.رجل يعرفهم ويعرفونه،يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه،بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج.أما حكمته في إرسال الرسل فهي أوضح،والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر،وعقله هو أداته للتمييز.ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر،وأحاطت به الشبهات،وجذبته التيارات والشهوات،وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج،فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض.هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه،ويترل على إرشاده،ويرجع إلى الصواب على هداه.

وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى اللّه وشريعة اللّه.

وهذا يقتضي أن تكون لدين اللّه حقيقة ثابتة يرجع إليها العقل البشري بمفهوماته كلها فيعرضها على هذا الميزان الثابت،وهناك يعرف صحيحها من خاطئها ..والقول بأن دين اللّه هو دائما «مفهوم البشر لدين اللّه» وأنه من ثم «متطور في أصوله» يعرّض

هذه القاعدة الأساسية في دين اللّه - وهي ثبات حقيقته وميزانه - لخطر التميع والتأرجح والدوران المستمر مع المفهومات البشرية.بحيث لا يبقى هنالك ميزان ثابت تعرض عليه المفهومات البشرية ..

والمسافة قصيرة بين هذا القول،والقول بأن الدين من صنع البشر ..فالنتيجة النهائية واحدة،والمزلق خطر وخطير للغاية،والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد ..منه ومن نتائجه القريبة والبعيدة ..

ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو،فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمرا عجيبا:«قالَ الْكافِرُونَ:إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ» ..

ساحر لأن ما ينطق به معجز.وأولى لهم - لو كانوا يتدبرون - أن يقولوا:نبي يوحى إليه لأن ما ينطق به معجز.فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة،ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راق،وما يرتكز عليه نظام متفرد ..

ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسحر،لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات كلها ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين اللّه فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها.[١٤٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٤٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٨٤]

قال تعالى:« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا،وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنات،وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» ..

لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم - وهو الشرك - إلى الهلاك.وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط ..

وتلك القرون.جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم:«وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» ..لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان،وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها،فلم يعودوا مهيئين للإيمان.فلقوا جزاء المجرمين ..«كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» ..

وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين،الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا،فحق عليهم العذاب،يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين،وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه:«ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» ..

وهي لمسة قوية للقلب البشري إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أديل من مالكيه الأوائل،وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه،وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك،وإنما هي أيام يقضيها فيه،ممتحنا بما يكون منه،مبتلى بهذا الملك،محاسبا على ما يكسب،بعد بقاء فيه قليل! إن هذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري ..فوق أنه يريه الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع ..

يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى،هي صمام الأمن له،وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه.

إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض،وبكل شيء يملكه،وبكل متاع يتاح له،يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ويعطيه وقاية من

الاستغراق في متاع الحياة الدنيا،ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه.

وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به،والتي يصورها قول اللّه سبحانه:«لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» ..ليجعله شديد التوقي،شديد الحذر،شديد الرغبة في الإحسان،وفي النجاة أيضا من هذا الامتحان! وهذا مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري بمثل هذه اللمسات القوية والتصورات التي تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها! ..فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الإسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة ..لا يمكن أن يلتقيا في تصور للحياة،ولا في خلق،ولا في حركة كما لا يمكن أن يلتقي نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان! والحياة في الإسلام حياة متكاملة القواعد والأركان.ويكفي أن نذكر فقط مثل هذه الحقيقة الأساسية في التصور الإسلامي وما ينشأ عنها من آثار في حركة الفرد والجماعة.وهي من ثم لا يمكن خلطها بحياة تقوم على غير هذه الحقيقة،ولا بمنتجات هذه الحياة أيضا! والذين يتصورون أنه من الممكن تطعيم الحياة الإسلامية،والنظام الإسلامي،بمنتجات حياة أخرى ونظام آخر،لا يدركون طبيعة الفوارق الجذرية العميقة بين الأسس التي تقوم عليها الحياة في الإسلام والتي تقوم عليها الحياة في كل نظام بشري من صنع الإنسان![147]

وقال تعالى:«وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً.قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ...».

إنها الدينونة للّه وحده قاعدة العقيدة الأولى.وقاعدة الحياة الأولى.وقاعدة الشريعة الأولى.وقاعدة المعاملات الأولى ..القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة ..

[147] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٩٨]

«وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ،إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ،وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ،وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ،وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ،وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» ..

والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة – بعد قضية العقيدة والدينونة – أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة ..فقد كان أهل مدين – وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام – ينقصون المكيال والميزان،ويبخسون الناس أشياءهم،أي ينقصونهم قيمة أشيائهم في المعاملات.وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد،كما تمس المروءة والشرف.كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآئبة بين شمال الجزيرة وجنوبها.ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها اللّه في هذه السورة.

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة للّه وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء،ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول.فهي بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل،وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين الناس.وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من اللّه وطلب رضاه،فتستند إلى أصل ثابت،لا يتأرجح مع المصالح والأهواء ..

إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة ..هذه هي نظرة الإسلام.

وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم! وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها.

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة ..إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية،حين

يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة اللّه وحين تصبح قاعدة الأخــلاق هــي إرضاء اللّه وانتظار ثوابه وتوقي عقابه،وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغوا في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية! [١٤٨]

«وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ.إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» .فقد رزقكم اللّه رزقا حسنا،فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى،ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيــال والميزان ..بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش في المعاملة،أو غصب في الأخذ والعطاء.

«وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» ..إما في الآخرة عند اللّه.وإما في هذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغصب ثمارهما المرة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة.وحــين يذوق الناس بعضهم بأس بعض،في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفي كل احتكاك.

ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية:«وَيا قَــوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ» ..وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما،لأنه أقرب إلى جانب الزيادة.

وللعبارات ظل في الحس.وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص،فهو أكثر سماحة ووفاء.

«وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ» ..وهذه أعم من المكيلات والموزونات.فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع.تقويمها كيلا أو وزنا أو سعرا أو تقديرا.وتقويمها ماديا أو معنويا.وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات.لأن كلمة «شيء» تطلق أحيانا ويراد بها غير المحسوسات.

---

[١٤٨] - يراجع بتوسع كتاب:«نظرية الإسلام الخلقية» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الإسلامية بباكستان. كمــا يراجع فصل:«نظام أخلاقي» في كتاب:«نحو مجتمع إسلامي» للمؤلف. نشر «دار الشروق».

وبخس الناس أشياءهم – فوق أنه ظلم – يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد،أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير ..وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر،ولا تبقي على شيء صالح في الحياة.
«وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» ..والعثو هو الإفساد،فلا تفسدوا متعمدين الإفساد،قاصدين إلى تحقيقه.ثم يوقظ وجداهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير:«بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ..
فما عند اللّه أبقى وأفضل ..وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة اللّه وحده – أي الدينونة له بلا شريك –فهو يذكرهم بها هنا،مع ذكر الخير الباقي لهم عند اللّه إن آمنوا كما دعاهم،واتبعوا نصيحته في المعاملات.وهي فرع عن ذلك الإيمان.
«بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ..إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ..ثم يخلي بينهم وبين اللّه الذي دعاهم إليه،ويبين لهم أنه هو لا يملك لهم شيئا،كما أنه ليس موكلا بحفظهم من الشر والعذاب.وليس موكلا كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولا عنهم إن هم ضلوا،إنما عليه البلاغ وقد أداه:«وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» ..ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر،وبثقل التبعة،ويقفهم وجها لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ.
ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد،وسوء الاستغلال:{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)} [هود:٨٧]..
وهو رد واضح التهكم،بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه.وإن كانت سخرية الجاهل المطموس،والمعاند بلا معرفة ولا فقه.
«أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا؟» ..فهم لا يدركون – أولا يريدون أن يدركوا – أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة،ومن صور العبودية والدينونة.وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد اللّه،ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم،كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع اللّه في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل

شأن من شئون الحياة والتعامل.فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة.

وقبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة.وارتباطهما معا بالمعاملات ..

قبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين،يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب.وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها - بما فيها أولئك الذين يقولون:إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون - فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر.والشريعة والتعامل.فيجعل العقيدة والشعائر للّه ووفق أمره،ويجعل الشريعة والتعامل لغير اللّه،ووفق أمر غيره ..وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله ..

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم - وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف - فلقد قامت أزمة في «الكنيست» مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها - من غير اليهود - أطعمة غير شرعية.وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده - مهما تعرضت للخسارة - فأين من يدعون أنفسهم «مسلمين!» من هذا الاستمساك بالدين؟!!

إن بيننا اليوم - ممن يقولون:إنهم مسلمون! - من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق،وبخاصة أخلاق المعاملات المادية.وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم.يتساءلون أولا في استنكار:وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح

المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله «المتحضرون»؟! ..فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين:«أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟» ..

وهم يتساءلون ثانيا.بل ينكرون بشدة وعنف.أن يتدخل الدين في الاقتصاد،وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد،أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد ..فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده.وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية – النظرية الأخلاقية مثلا – ويعدونها تخليطا من أيام زمان! فلا يذهبن بنا الترفع كثيرا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى.ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة،ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة،وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في اللّه،والسلوك الشخصي في الحياة،والمعاملات المادية في السوق ..تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!

وما تستقيم عقيدة توحيد اللّه في القلب،ثم تترك شريعة اللّه المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض.فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد.والشرك ألوان.منه هذا اللون الذي نعيش به الآن.وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان! ويسخر أهل مدين من شعيب – كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق – فيقولون:«إنك لأنت الحليم الرشيد!» ..

وهم يعنون عكس معناها.فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير،وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!! ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم ..يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا،وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات فهو لا يبغي كسبا شخصيا

من وراء دعوته لهم فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هي دعـــوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس.وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون:{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَـــا أُرِيـــدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) } [هود:٨٨]..

«يا قوم ...» ..في تودد وتقرب،وتذكير بالأواصر القريبة.

«أرأيتم إن كنت على بينة من ربي؟» ..أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يـــوحي إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه.وعن هذه البينة الواضحة في نفسي،أصدر واثقا مستيقنا.

«وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً» ..ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها.

«وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» ..فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل مـــا نهيتكم عنه لأحقق لنفسي نفعا به!

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت» ..الإصلاح العام للحياة والمجتمع الـــذي يعـــود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه وإن خيل إلى بعضهم أن اتبـــاع العقيـــدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي،ويضيع بعض الفرص.فإنما يفـــوت الكســـب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا،ومجتمعا متضامنا متعاونا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام! «وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» ..فهو القـــادر علـــى إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي،وبما يجزي على جهدي.

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» ..عليه وحده لا أعتمد على غيره.

«وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» ..إليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأمور،وإليه وحـــده أتوجـــه بنـــيتي وعملي ومسعاي.

ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير،فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط:

فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩)} [هود:٨٩]..

لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة،خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم.وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان.وقريب كذلك في الزمان.فمدين كانت بين الحجاز والشام.

ثم يفتح لهم - وهم في مواجهة العذاب والهلاك - باب المغفرة والتوبة،ويطمعهم في رحمة اللّه والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها:«وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ،إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» ..

وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع،لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين.

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب،ومن سوء تقدير القيم في الحياة،وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك،ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب:« قالُوا:يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ،وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً،وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ،وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» ..

فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح،لا يريدون أن يدركوه:«قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ» ..

وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة:«وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» ..

فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها.

«وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ» ..ففي حسابهم عصبية العشيرة،لا عصبية الاعتقاد،وصلة الدم لا صلة القلب.ثم هم يغفلون عن غيرة اللّه على أوليائه فلا يضعونها في الحساب.

«وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» ..لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر.ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة!

وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة،ولا لحقيقة كبيرة ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه.أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية.

وعندئذ تأخذ شعيبا الغيرة على جلال ربه ووقاره فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة في هذا الوجود،وبسوء الأدب مع اللّه المحيط بما يعملون.ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة.ويفاصل قومه على أساس العقيدة،ويخلي بينهم وبين اللّه،وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم،ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون:« قالَ:يا قَوْمِ:أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا؟ إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ،سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ..

«أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ؟» ..أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس،وهم ضعاف،وهم عباد من عباد اللّه ..أهؤلاء أعز عليكم من اللّه؟ ..أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من اللّه؟

«وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا» ..وهي صورة حسية للترك والإعراض،تزيد في شناعة فعلتهم،وهم يتركون اللّه ويعرضون عنه،وهم من خلقه،وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه.فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير.

«إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله - سبحانه - ووقاره.الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه ..إن شعيبا لم ينتفخ و لم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه،فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه! و لم

يسترح و لم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه - الذين افترق طريقهم عن طريقه - وهذا هو الإيمان في حقيقته ..أن المؤمن لا يعتز إلا بربه ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يخشى ربه! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه،إنما هي لربه ودينه.وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته! ومن هذه الغضبة للّه.والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه،ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم - بعد أن كان واحدا منهم - ويفترق الطريقان فلا يلتقيان:«وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ» ..

وامضوا في طريقكم وخطتكم،فقد نفضت يديّ منكم.

«إِنِّي عامِلٌ» ..على طريقتي ومنهجي.

«سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ» ..أنا أم أنتم؟

«وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ..للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم ..وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير.كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق ..

ويسدل الستار هنا.على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة،ليرفع هناك على مصرع القوم،وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم،أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح،فكان مصيرهم كمصيرهم،خلت منهم الدور،كأن لم يكن لهم فيها دور،وكأن لم يعمروها حينا من الدهر.مضوا مثلهم مشيعين باللعنة،طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب:« وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا،وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ،كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها.أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ،كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ ...».وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود،حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد[١٤٩].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٤٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٤٧]

إن توحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف،أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم،وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية – وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية – فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة .

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي،يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة،لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة،إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة .

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقة التي أكرمهم بها الله،إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية،ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور .

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت،على ألوهية الله – سبحانه – للكون ؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية:إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس،الذي يحكمهم بشرعه،ويصرفهم بأمره،ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس،ويذلوهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله،ويجعلوهم عبيدا لهم من دون الله .وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي ..الله سبحانه ..

والله – سبحانه – غني عن العالمين .لا ينقص في ملكه شيئا عصيان العصاة وطغيان الطغاة .ولايزيد في ملكه شيئا طاعة الطائعين وعبادة العابدين ..ولكن البشر – هم أنفسهم – الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم

الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده،ويتحررون من العبودية للعبيد ..ولما كان اللّه – سبحانه – يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسـله ليردوا الناس إلى عبادة اللّه وحده.وليخرجوهم من عبادة العبيد ..لخيرهم هم أنفسـهم ..واللّه غني عن العالمين.

إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده اللّه للإنسان إلا بأن يعزم البشـر أن يدينوا للّه وحده،وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير اللّه.ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان! والدينونة للّـه وحـده تتمثـل في ربوبيتـه للنـاس وحده.والربوبية تعني القوامة على البشر،وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند اللّـه،لا من عند أحد سواه.

وهذا ما يقرر مطلع هذه السورة الكريمة أنه موضوع كتاب اللّـه وفحـواه:«كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ:أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» ..

وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب في لغتهم التي نزل بها كتاب اللّه الكريم.

والإقرار بالرسالة أساس للتصديق بهذه القضايا التي جاءت الرسالة لتقريرها.وكل شك في أن هذا من عند اللّه،كفيل بتحطيم احترامها الملزم في عالم الضمير.والذين يظنون أنها من عند محمد – مهما أقروا بعظمة محمد – لا يمكن أن تنال من نفوسـهم الاحتـرام الملزم،الذي يتحرجون معه أن يتفلتوا منها في الكبير أو الصغير ..إن الشعور بأن هـذه العقيدة من عند اللّه هو الذي يطارد ضمائر العصاة حتى يثوبوا في النهاية إلى اللّـه،وهو الذي يمسك بضمائر الطائعين،فلا تتلجلج ولا تتردد ولا تحيد.

كما أن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطا لما يريده اللّه من البشر.كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة للّه من مصدر واحد،هو هذا المصدر.وكي لا يقوم كل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولا،ويشرع للناس شرعا،ثم يزعم أنه شرع اللّه وأمره! بينما هو يفتريه من عند نفسه! وفي كل جاهلية كان يقوم من يشـرع الشـرائع،ومن يقرر القيم والتقاليد والعادات ..ثم يقول:هذا من عند اللّه!!!

وما يحسم هذه الفوضى وهذا الاحتيال على الناس باسم اللّه،إلا أن يكون هناك مصدر واحد – هو الرسول – لقول اللّه.

والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه،وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة.

والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب،والأخذ في مقابله في أعمال الطاعة.ولا توبة بغير هذين الدليلين،فهما الترجمة العملية للتوبة،وبهما يتحقق وجودها الفعلي،الذي ترجى معه المغفرة والقبول ..فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل في الإسلام،بينما هو لا يدين للّه وحده،ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكذبه واقع الدينونة لغير اللّه ..

والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة،وقوام التبليغ.وهما عنصرا الترغيب والترهيب،اللذان علم اللّه من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق! والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة،وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر،الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها.أما الذين يزيغون عن نهج اللّه وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب ..وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف.فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة،ولم تلج في العصيان.ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر.

وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير.فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقا للثواب في الآخرة فحسب – كما يعتقد بعض الناس – إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا.والحافز على إصلاحها وإنمائها.على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفا في ذاته،إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ اللّه فيه من روحه،وكرمه على كثير من خلقه،ورفعه عن درك الحيوان لتكون أهداف حياته أعلى من ضرورات الحيوان ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته.

ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة،بعد توحيد الدينونة للّه،وإثبات الرسالة من عنده ..الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة ..وهما بدء الطريق للعمل الصالح.والعمل الصالح ليس مجرد طيبة في النفس وشعائر مفروضة تقام.إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح،من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج.والجزاء المشروط:«يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» ..

والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا.أما في الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر.فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة.

إننا نشاهد كثيرا من الطيبين الصالحين،المستغفرين التائبين،العاملين في الحياة ..مضيقا عليهم في الرزق.فأين إذن هو المتاع الحسن؟

وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على ألسنة الكثيرين! ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع،وننظر إليها في محيطها الشامل العام،ولا نقتصر منها على مظهر عابر.

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح،قائم على الإيمان باللّه،والدينونة له وحده،وإفراده بالربوبية والقوامة،وقائم على العمل الطيب المنتج في الحياة ..إلا كان لها التقدم والرخاء والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة وإلا ساد فيها العدل بين الجهد والجزاء والرضى والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة.فإذا شاهدنا في جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم في الرزق والمتاع الطيب،فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان باللّه،القائم على العدل بين الجهد والجزاء.

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين في هذه الجماعة يمتعون متاعا حسنا،حتى لو ضيق عليهم في الرزق،وحتى لو كانت الجماعة تطاردهم وتؤذيهم،كما كان المشركون يؤذون القلة المؤمنة،وكما تؤذي الجاهليات القلة الداعية إلى اللّه.وليس هذا خيالا وليس

ادعاء.فطمأنينة القلب إلى العاقبة،والاتصال باللّه،والرجاء في نصره وفي إحسانه وفضله ..عوض عن كثير ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحس المادي الغليظ.

ولا نقول هذا لندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاء عادلا على جهدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة.فالإسلام لا يرضى بهذا،والإيمان لا يسكت على مثل تلك الأوضاع.والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد،ليتحقق المتاع الحسن للطيبين العاملين المنتجين.إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون باللّه،المضيق عليهم في الرزق،وهم مع هذا يعملون ويجاهدون لتحقيق الأوضاع التي تكفل المتاع الحسن لعباد اللّه المستغفرين التائبين العاملين بهدى اللّه.

«وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» ..خصصها بعض المفسرين بجزاء الآخرة.وأرى أنها عامة في الدنيا والآخرة،على النحو الذي فسرنا به المتاع الحسن في الدنيا وهو متحقق في جميع الأحوال.وذو الفضل يلقى جزاءه في اللحظة التي يبذل فيها الفضل.يجده رضى نفسيا وارتياحا شعوريا،واتصالا باللّه وهو يبذل الفضل عملا أو مالا متجها به إلى اللّه. أما جزاء اللّه له بعد ذلك فهو فضل من اللّه وسماحة فوق الجزاء.

«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» ..هو عذاب يوم القيامة.لا عذاب يوم بدر كما يقول بعض المفسرين.فاليوم الكبير حين يطلق هكذا ينصرف إلى اليوم الموعود.ويقوي هذا ما بعده:«إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ».

وإن كان المرجع إلى اللّه في الدنيا والآخرة وفي كل لحظة وفي كل حالة.ولكن جرى التعبير القرآني على أن المرجع هو الرجعة بعد الحياة الدنيا ..

«وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..وهذه كذلك تقوّي هذا المعنى،لأن التلويح بالقدرة على كل شيء،مناسب للبعث الذي كانوا يستبعدونه ويستصعبونه![150]

إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار،هي أن يعلم الناس «أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ» ..فهذه هي قاعدة دين اللّه التي يقوم عليها منهجه في الحياة.وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم،إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم ..المقصود

---

[150] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٧٦]

هو الدينونة للّه وحده،ما دام أنه لا إله غيره.فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربا – أي حاكما وسيدا ومتصرفا ومشرعا وموجها – وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد – أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد – وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور،ويتناول الشعائر والمناسك كما يتناول الأخلاق والسلوك،والقيم والموازين وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية،وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر.وحدود العقيدة أبعد كثيرا من مجرد الاعتقاد الساكن ..إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة ..وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة.كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة.فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء ..

ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين،وقبل أن ندرك مدلولات:« شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه» على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد.وقبل أن نفهم مدلول:العبادة للّه وحده ونحدده بأنه الدينونة للّه وحده لا في لحظات الصلاة،ولكن في كل شأن من شؤون الحياة!

إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم – عليه السلام – ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها،لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم،أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى،مجسمة في أحجار أو أشجار،أو حيوان أو طير،أو نجم أو نار،أو أرواح أو أشباح .

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك باللّه،ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون اللّه.والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما

يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة! ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام،وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة! إن الشرك باللّه – المخالف لشهادة أن لا إله إلا اللّه – يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة للّه وحده.ويكفي أن يدين العبد للّه في جوانب من حياته،بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير اللّه،حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته ..وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ..والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ..إن العبد الذي يتوجه للّه بالاعتقاد في ألوهيته وحده ثم يدين للّه في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر.بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير اللّه.ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير اللّه.

ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء – مخالفة لشرع اللّه وأمره – إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه في أخص حقيقتها ..وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع،وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان! والأصنام ..ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة ..فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت،يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها،وضمان دينونتهم له من خلالها ..

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر ..إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى ..ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها! فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان،ويقررون باسمها ما لم يأذن به اللّه من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ...فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها!

إذا رفعت «القومية» شعارا،أو رفع «الوطن» شعارا،أو رفع «الشعب» شعارا،أو رفعت «الطبقة» شعارا ...ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون اللّه وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض.بحيث كلما تعارضت شريعة اللّه وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها،نحيت شريعة اللّه وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه،ونفذت إرادة تلك الشعارات - أو بالتعبير الصحيح الدقيق:

إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات - كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون اللّه ..فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعارا! إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية! و لم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة،من موكب الرسل الموصول و لم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام،لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة للّه وحده في كل أمر وفي كل شأن وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة ..ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة،وتقرير ما إذا كانت توحيدا أم شركا؟ دينونة للّه وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!

والذين يظنون أنفسهم في «دين اللّه» لأنهم يقولون بأفواههم «نشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه»،ويدينون للّه فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث ..بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير اللّه ويخضعون لشرائع لم يأذن بها اللّه - وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة اللّه - ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم - أرادوا أم لم يريدوا - ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة.فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام،نبذت أوامر اللّه فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ...الذين يظنون أنفسهم «مسلمين» وفي «دين اللّه» وهذا حالهم ..عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!

إن دين اللّه ليس بهذا الهزل الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها!

إن دين اللّه منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها.والدينونة للّه وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها – فضلا على أصولها وكلياتها – هي دين اللّه،وهي الإسلام الذي لا يقبل اللّه من أحد دينا سواه.وإن الشرك باللّه لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه ..

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات! ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم؟ ولمن الدينونة الكاملة؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال؟

..فإن كان هذا كله للّه فهم في دين اللّه.وإن كان لغير اللّه – معه أو من دونه – فهم في دين الطواغيت والأصنام ..والعياذ باللّه ..!

«هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ،وَلِيُنْذَرُوا بِهِ.وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ،وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ» [151]..

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[151] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٥٩]

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة ..دعوة توحيد العبادة والعبودية للّه،المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول:«قالَ:يـا قَـوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

ولقد كنا دائما نفسر «العبادة» للّه وحده بأنها «الدينونة الشاملة» للّه وحده.في كـل شأن من شؤون الدنيا والآخرة.ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصـلها اللغوي ..فإن «عبد» معناها:دان وخضع وذلل.وطريق معبد طريق مذلل ممهد.وعبّـده جعله عبدا أي خاضعا مذللا ..و لم يكن العربي الذي خوطب بهذا القـرآن أول مـرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية.بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عند مـا يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة للّه وحده في أمره كله وخلع الدينونة لغير اللّـه من عنقه في كل أمره ..ولقد فسر رسول اللّه – ﷺ- «العبـادة» نصـا بأنهـا هـي «الاتباع» وليست هي الشعائر التعبدية.فعَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْـتُ النَّبِـىَّ –ﷺ- وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ « يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُـمْ لَـمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَـيْئًا حَرَّمُوهُ »[١٥٢] . ..

إنما أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبار ها صورة من صور الدينونة للّه في شأن من الشؤون ..صورة لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنها تجيء بالتبعيـة لا بالأصالة! فلما بهت مدلول «الدين» ومدلول «العبادة» في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير اللّه التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشـعائر التعبدية لغير اللّه،كتقديمها للأصنام والأوثان مثلا! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة

[١٥٢] - سنن الترمذى- المكنز [١١ /٣٥٤](٣٣٧٨) صحيح لغيره

فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح «مسلما» لا يجوز تكفيره! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ...إلى آخر حقوق المسلم على المسلم! وهذا وهم باطل،وانحسار وانكماش،بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ «العبادة» التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه – وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة للّه في كل شأن ورفض الدينونة لغير اللّه في كل شأن.وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة والذي نص عليه رسول اللّه – ﷺ– نصا وهو يفسر قول اللّه تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ..وليس بعد تفسير رسول اللّه – ﷺ– لمصطلح من المصطلحات قول لقائل[١٥٣].

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيرا في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا اللّه لكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي[١٥٤]..فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

إنه لم يكن يعني:يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير اللّه! كما يتصور الذين انحسر مدلول «العبادة» في مفهوماتهم،وانزوى داخل اطار الشعائر التعبدية! إنما كان يعني الدينونة للّه وحده في منهج الحياة كلها ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها ..والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير اللّه ..فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة اللّه وحده – أي الدينونة له وحده – إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي:جحودهم

---

١٥٣ – يراجع البحث القيم الذي كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان:«المصطلحات الأربعة في القرآن» .. «الإله. الرب. الدين. العبادة».

١٥٤ – كتاب:«معالم في الطريق» وكتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» وكتاب:«هذا الدين» وكتاب:«المستقبل لهذا الدين» وكتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة» وكتاب:«العدالة الاجتماعية» وكتاب:«السلام العالمي والإسلام». نشر «دار الشروق».

بآيات ربهم،وعصيان رسله.واتباع أمر الجبارين من عبيده:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ،وَعَصَوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».كما يقول عنهم أصدق القائلين اللّه رب العالمين .

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل،واتباع الجبارين ..فهو أمر واحد لا أمور متعددة ..

ومتى عصى قوم أوامر اللّه المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير اللّه.ودانوا للطواغيت بدلا من الدينونة للّه فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك – وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض.إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية،حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام ..وهكذا إلى يومنا هذا ..

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد.وردهم إلى الدينونة للّه وحده في كل أمر وفي كل شأن وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

إن توحيد الألوهية،وتوحيد الربوبية،وتوحيد القوامة،وتوحيد الحاكمية،وتوحيد مصدر الشريعة،وتوحيد منهج الحياة،وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة ...إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل،وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان ..لا لأن اللّه سبحانه في حاجة إليه،فاللّه سبحانه غني عن العالمين.

ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها. [155]

إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة .. ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة – بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته،وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها .. وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك. فيهلك من يهلك،ويحيا من يحيا. والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة. هم الذين علموا أن لهم إلها واحدا،واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد. هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم:«يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره» .. فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين اللّه كله،ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ .. فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها،فنسوها وضلوا عنها،وأشركوا مع اللّه آلهة أخرى – على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة – وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل .. وعلى أساسها يأخذ اللّه المكذبين بها وينجي المؤمنين .. والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل – صلوات اللّه عليهم – مع اختلاف لغاتهم .. يوحد حكاية ما قالوه،ويوحد ترجمته في نص واحد:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» .. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية – على مدار التاريخ – حتى في صورتها اللفظية! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة،ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويرا حسيا .. ولهذا كله دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة ..

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج «الأديان المقارنة» مع المنهج القرآني .. يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا «تطور» في مفهوم العقيدة الأساسي،الذي جاءت به الرسل كلها من عند اللّه،وأن الذين يتحدثون عن «تطور» المعتقدات وتدرجها ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج «والتطور» يقولون غير ما يقوله اللّه سبحانه!

---

[155] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٤٧]

فهذه العقيدة – كما نرى في القرآن الكريم – جاءت دائما بحقيقة واحدة. وحكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم إليه هو «رب العالمين» .. الذي يحاسب الناس في يوم عظيم .. فلم يكن هنا لك رسول من عند اللّه دعا إلى رب قبيلة،أو رب أمة،أو رب جنس .. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند اللّه دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة .. وكذلك لم يكن هناك رسول من عند اللّه دعا إلى عبادة طوطمية،أو نجمية،أو «أرواحية!» أو صنمية! و لم يكن هناك دين من عند اللّه ليس فيه عالم آخر .. كما يزعم من يسمونهم «علماء الأديان» وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة،ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان،دون غيرها! لقد جاءت الرسل – رسولا بعد رسول – بالتوحيد الخالص،وبربوبية رب العالمين! وبالحساب في يوم الدين .. ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد،مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة،بفعل العوامل المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوالم التي يتعامل معها .. هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية .. هي هذه التي يدرسها «علماء الأديان!» ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات وتطورها! وعلى أية حال فهذا هو قول اللّه – سبحانه – وهو أحق أن يتبع،وبخاصة ممن يكتبون عن هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلامية،أو صدد الدفاع عنها! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن،فهم وما هم فيه ..

واللّه يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

إن كل رسول من الرسل – صلوات اللّه عليهم جميعا – قد جاء إلى قومه،بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه .. فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين – كما كانت عقيدة آدم وزوجه – ثم انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا – حتى إذا جاء نوح – عليه السلام – دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى. ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون. وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين – كما علمهم نوح – وبذراريهم. حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما

انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك المكــذبون بــالريح العقــيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا ..

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه. فقال:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلـهٍ غَيْرُهُ» .. وقال كل رسول لقومه:«إني لكم ناصح أمين»،معبرا عن ثقل التبعة وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ورغبته في هداية قومه،وهو منهم وهم منه .. وفي كل مرة وقف «الملأ» من عليه القوم وكبرائهم في وجه كلمـة الحق هذه ورفضوا الاستسلام للّه رب العالمين. وأبوا أن تكون العبودية والدينونة للّـه وحده - وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين اللّـه كلـه - وهنا يصدع كل رسول بالحق في وجه الطاغوت .. ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة. وتنبتّ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية لتقـوم وشـيجة العقيدة وحدها. وإذا «القوم» الواحد،أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقـة! .. وعندئذ يجيء الفتح .. ويفصل اللّه بين الأمة المهتدية والأمة الضـالة،ويأخذ المكـذبين المستكبرين،وينجي الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة اللّه قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة،وقبل أن يجهر أصحاب العقيـدة بعبوديتهم للّه وحده. وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمـانهم. وقبـل أن يعلنـوا مفاصلتهم لقومهم .. وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة اللّه على مدار التاريخ.

إن التركيز في كل رسالة كان على أمر واحد:هو تعبيد الناس كلهم لـربهم وحـده - رب العالمين - ذلك أن هذه العبودية للّه الواحد،ونزع السلطان كله مـن الطواغيـت التي تدعيه،هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر. ولم يذكر القرآن إلا قليلا من التفصيلات بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعا. ذلك أن كل تفصيل - بعد قاعدة العقيدة - في الدين،إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخـرج عنها. وأهمية هذه القاعدة في ميزان اللّه هي التي جعلـت المنـهج القـرآني يبرزهـا هكذا،ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان بل في القرآن كله .. ولنـذكر -

كما قلنا في التعريف بسورة الأنعام [156] أن هذا كان هو موضوع القرآن المكي كله كما كان هو موضوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه.

إن لهذا الدين «حقيقة» و«منهجا» لعرض هذه الحقيقة. «والمنهج» في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن «الحقيقة» فيه .. وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين. كما أن علينا أن نلتزم المنهج الذي عرض به هذه الحقيقة .. وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية .. ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة ..

إن هذا القصص يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر ويعرض نموذجا مكررا للقلوب المستعدة للإيمان،ونموذجا مكررا للقلوب المستعدة للكفر أيضا .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام للّه والطاعة لرسوله و لم يعجبوا أن يختار اللّه واحدا منهم ليبلغهم وينذرهم.

فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم،فاستكبروا أن يتزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم للّه صاحب الخلق والأمر،وأن يسمعوا لواحد منهم .. كانوا هم «الملأ» من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم .. ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين .. إنها عقدة الحاكمية والسلطان .. فالملأ كانوا يحسون دائما ما في قول رسولهم لهم:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ...« وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» .. كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعني – أول ما تعني – نزع السلطان المغتصب من أيديهم ورده إلى صاحبه الشرعي .. إلى اللّه رب العالمين .. وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين! وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر،وأن يسلك طريقه إلى الهلاك،كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! .. إن مصارع المكذبين – كما يعرضها هذا القصص – تجري على سنة لا تتبدل:نسيان لآيات اللّه وانحراف عن طريقه. إنذار من اللّه للغافلين على يد رسول. استكبار عن العبودية للّه وحده

[156] – الجزء السابع:ص ١٠٠٤ – ١٠١٥

والخضوع لرب العالمين. اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب. طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين. ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة .. ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة اللّه على مدار التاريخ! وأخيرا فإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق .. وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل - تاركا مصيرهما لفتح اللّه وقضائه - فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف. بل يتابع الحق وينازله ويطارده .. ولقد قال شعيب لقومه:«وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا،فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا،وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» .. ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة،ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش ولا رؤية جماعة تدين للّه وحده وتخرج من سلطان الطواغيت:«قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» .. وهنا صدع شعيب بالحق رافضا هذا الذي يعرضه عليهم الطواغيت:«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها ..»

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى اللّه أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضا،وأنه لا يجديهم فتيلا أن يتقوها ويتجنبوها. فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية،ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم اللّه منها. وقد نجاهم اللّه منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية للّه وحده ..فلا مفر من خوض المعركة،والصبر عليها،وانتظار فتح اللّه بعد المفاصلة فيها وأن يقولوا مع شعيب:«عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» .. ثم تجري سنة اللّه بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ ..[١٥٧]

إن وجود جماعة مسلمة في الأرض،لا تدين إلا اللّه،ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه،ولا تحكم في حياتها شرعا إلا شرعه،ولا تتبع في حياتها منهجا إلا منهجه .. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت - حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها،وتركت الطواغيت لحكم اللّه حين يأتي موعده.

---

[١٥٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٧٥٧]

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة - حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل .. إنها سنة اللّه لا بد أن تجري ..

«قالَ الْمَلَأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا،أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا».هكذا في تبجح سافر،وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش! إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .. لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة .. نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء وأن يدين للسلطان الذي يشاء:في انتظار فتح اللّه وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة،تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت .. وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه .. فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم،صدع شعيب بالحق،مستمسكا بملته،كارها أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه اللّه منها،واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها. وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها - إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا،وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً - عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ،وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» ..

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان،ومذاقه في نفوس أهله،كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه. كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع .. مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه.«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟»

يستنكر تلك القولة الفاجرة:«لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» ..يقول لهم:أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا اللّه منها؟!

«قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها» ..

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية،التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة للّه وحده،والتي يتخذ الناس فيها أربابا من دون اللّه يقرون لهم بسلطان اللّه .. إن الـــذي يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم اللّه لـــه الخـــير وكشـــف لـــه الطريق،وهـــداه إلى الحق،وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدي شهادة كاذبة على اللّه ودينـــه. شـــهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة اللّه خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت! أو مؤداها - علـــى الأقل - أن لملة الطاغوت حقا في الوجود،وشرعية في السلطان وأن وجودها لا يتنـــافى مع الإيمان باللّه. فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن باللّه .. وهي شهادة خطـــيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى،ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف برايـــة الطغيان. ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان اللّه في الحياة! وكذلك يستنكر شـــعيب - عليه السلام - ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم اللّه منها:«وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها» ..وما من شأننا أصلا وما ينبغي لنا قطعـــا أن نعود فيها .. يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مـــع الجماعـــة المسلمة،التي تعلن خروجها عن سلطانه،ودينونته للّه وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة للّه وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والـــرزق! - إنهـــا تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهـــذه «الإنســـانية» لا توجد،والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشـــرعه لـــه إنسان؟! .. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخـــر به،ورضـــاه أو غضبه عليه؟! .. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟! على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة .. إنه يهبط ويهبط حـــتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج. كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شـــاء مـــن التصـــورات

والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها،فيذبحهم على مذبح هواه،ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاتــه والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية .. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الــدعارة التي يريدها بها الطواغيت،سواء في صورة الغصب المباشر – كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ – أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحــا للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار .. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون اللّه.

إنما يعيش في وهم،أو يفقد الإحساس بالواقع! إن عبادة الطاغوت عظيمة التكــاليف في النفس والعرض والمال .. ومهما تكن تكاليف العبودية للّه،فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة. فضلا على وزنها في ميزان اللّه ..

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب:الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية:

«...وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية،لا يخفى عليه أن المســألة – الــتي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشــؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهــة التي يوجهه إليها سائقه،وأنه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعا أو كرها – إلى تلــك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليهــا مــن بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعهــا لا تســتطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وســائل الأرض وأسبابها طرا،ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر،وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية،وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمــالهم،وهم يملكــون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها،وإليهم المرجع في تنشئة الطبــاع الفردية،وإنشاء النظام الجماعي،وتحديد القيم الخلقية. فإذا كان هؤلاء الزعماء والقــواد ممن يؤمنون باللّه ويرجون حسابه .. فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح،وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شــؤونهم.

وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها،وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو. إن لم تمحق وتنقرض آثارها. وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن اللّه ورسوله،واتبعوا الشهوات،وانغمسوا في الفجور والطغيان،فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء،ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها،وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ...»

والظاهر أن أول ما يطالب به دين اللّه عباده،أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد،حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير اللّه تعالى. ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله اللّه تعالى،وجاء به الرسول الأمي الكريم – ﷺ– ثم إن الإسلام يطالبهم أن يتعدم من الأرض الفساد،وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب اللّه تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم،يذكرون اللّه قابعين في زواياهم،منقطعين عن الدنيا وشؤونها،مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه. والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى اللّه تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة،حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة – ولو قيد شعرة – وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم. وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق،والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض. وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية،والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها،يجني على الإسلام وأهله

جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد .. ثم انظروا إلى ما كسب «الجهاد» من المترلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين،حتى إن القرآن ليحكم «بالنفاق» على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض. ذلك أن «الجهاد» هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق،ليس غير. وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزانا يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين. وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن باللّه ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل،أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق .. فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب،فاعلم أنه مدخول في إيمانه،مرتاب في أمره،فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟» ...

... «إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض اللّه لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام. فكل من يؤمن باللّه ورسوله ويدين دين الحق،لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام،ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب،بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون اللّه،ويرجون حسابه،ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند اللّه الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها» [١٥٨] ..

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله للّه،إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقاهم من العبودية للعبيد كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم .. إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت – تحت رايته – بكل ما فيها من تضحيات ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول،كما أنها أذل وأحقر! .. إنه يدعوهم للكرامة،وللسلامة،في آن ..لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة:«قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ

---

[١٥٨] – مقتطفات من مقدمات كتاب «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها،وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها ..» ..ولكـــن شـــعيبا بقـــدر مـــا يرفـــع رأسه،وبقدر ما يرفع صوته،في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين اســـتكبروا مـــن قومه .. بقدر ما يخفض هامته،ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل،الذي وســـع كـــل شيء علما. فهو في مواجهة ربه،لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره،ويدع له قياده وزمامه،ويعلن خضوعه واستسلامه:«إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا،وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمـــاً» ..إنه يفوض الأمر للّه ربه،في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه .. إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت،من العودة في ملتهم ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته .. ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة اللّه به وبهم .. فالأمر موكول إلى هذه المشيئة،وهو والذين آمنوا معـــه لا يعلمـــون،وربهم وسع كل شيء علما. فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.إنه أدب ولي اللّه مع اللّه. الأدب الذي يلتزم به أمره،ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره. ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليـــه.وهنـــا يـــدع شـــعيب طواغيـــت قومـــه وتهديـــدهم ووعيدهم،ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق،يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:«عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ. وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» ..وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر:مشهد تجلي حقيقة «الألوهية» في نفس ولي اللّه ونبيه،إنه يعرف مصـــدر القوة،وملجأ الأمان. ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بـــين الإيمـــان والطغيـــان. ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه،والتي ليس منها مفر. إلا بفتح من ربه ونصر.عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المـــؤمنين بـــه يخوفونهم ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم:«وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» ..

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير .. إن الطواغيت يتوجهـــون أولا إلى الداعيـــة ليكف عن الدعوة.فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه،واستمسك بأمانة التبليغ وتبعتـــه،ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل .. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد،ثم بالبطش والعـــذاب .. إنهـــم لا يملكـــون حجـــة علـــى

باطلهم،ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم – وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل – ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان،الذي أخلصوا الدينونة للّه فأخلصوا له السلطان.

ولكنه من سنة اللّه الجارية أنه عند ما يتمحض الحق والباطل،ويقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة اللّه التي لا تتخلف .. وهكذا كان ..«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ،فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» ..الرجفة والجثوم،جزاء التهديد والاستطالة،وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ..ويرد السياق على قولتهم:«لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» .. وهي التي قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا،إنما كان من نصيب قوم آخرين:«الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ» ..ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين. لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار،وكأن لم يكن لهم فيها آثار! ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال،والمفارقة والانفصال،من رسولهم الذي كان أخاهم،ثم افترق طريقه عن طريقهم،فافترق مصيره عن مصيرهم،حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم،وعلى ضيعتهم في الغابرين:«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ،وَقالَ:يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ،فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ؟» ..إنه من ملة وهم من ملة. فهو أمة وهم أمة. أما صلة الأنساب والأقوام،فلا اعتبار لها في هذا الدين،ولا وزن لها في ميزان اللّه .. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين،والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل اللّه المتين .. [١٥٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٥٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٧٧٣]

قال تعالى:«وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ،وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» ..
إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية،وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين ..وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها ..
إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية اللّه - سبحانه - والحق الذي خلقت به السماوات والأرض،المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية ..والقرآن الكريم كثيرا ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية اللّه - سبحانه - والحق الذي قامت به السماوات والأرض والحق المتمثل في الدينونة للّه وحده ..والحق المتمثل في دينونة الناس للّه يوم الحساب بصفة خاصة،والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة ..وذلك في مثل هذه النصوص:« وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ.لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا ..إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ ..بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ،وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ،وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ،وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ.يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ.أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ؟ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا،فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ.لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً؟ قُلْ:هاتُوا بُرْهانَكُمْ.هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي،بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ.وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» ...(الأنبياء ١٦ - ٢٥).«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ،ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ،ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ،ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ،لِنُبَيِّنَ لَكُمْ،وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا،ثُمَّ

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ،وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى،وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ – مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ – شَيْئاً،وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً،فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ،وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ،وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى،وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها،وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» ...(الحج:٥ – ٧).

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ،وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ.الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ،لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ،فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ.وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً،وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ،وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ.ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ،إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ،وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ،وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ،وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً؟ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ،وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ،إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ،إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ.لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ،فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ،وَادْعُ إِلى رَبِّكَ،إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ ...» ..(الحج:٥٤ – ٦٧).

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون اللّه سبحانه هو الحق،وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق،وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق.وبين تتريل هذا الكتاب بالحق،وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق ..فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر اللّه بما يشاء،وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في

دار الابتلاء .ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة،وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدرارا ...فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات اللّه سبحانه وفي قضائه وقدره،وفي تدبيره وتصريفه،وفي حسابه وجزائه،في الخير وفي الشر سواء ..ومن هذا الارتباط يجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس.فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة.سواء عن طريق قدر اللّه الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم.أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك.وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان،من النتائج المحسوسة المدركة.وإن سيادة المنهج الإلهي في مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل في هذا المجتمع،وأن يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعي – فضلا على الأمن والسكينة والاستقرار القلبي بالإيمان – ومن شأن هذا كله أن يمتع الناس متاعا حسنا في هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير في الآخرة [١٦٠] ..وحين قلنا مرة:إن الدينونة للّه وحده في مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقاتهم من أن تنفق في الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التي تطلق حول الأرباب المزيفة،لتخلع عليها شيئا من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود والطاقات للبناء في الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس.فضلا على الكرامة والحرية والمساواة التي يتمتع بها الناس في ظل الدينونة للّه وحده دون العباد [١٦١] ..

وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحقق حقيقته في حياة الناس [١٦٢] ..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

---

[١٦٠] – ص ١٨٧١ – ١٨٧٢ من هذا الجزء.

[١٦١] – ص ١٨٩٧ من هذا الجزء.

[١٦٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٣٢]ويراجع كذلك ما جاء في تقديم هذه الطبعة المنقحة لهذه الظلال بعنوان:«في ظلال القرآن» الجزء الأول ص ١٦ – ١٨.

نقف ابتداء أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة بـــرب العـــالمين،رب موســـى وهارون،يمثل خطرا على نظام ملكهم وحكمهم لتعارض القاعدة التي يقوم عليها هـــذا الإيمان،مع القاعدة التي يقوم عليها ذلك السلطان .. وقد عرضنا لهذا الأمر من قبـــل .. ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدها .. إنه لا يجتمع في قلـــب واحـــد،ولا في بلـــد واحد،ولا في نظام حكم واحد،أن يكون اللّه رب العالمين،وأن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من العبيد،يباشره بتشريع من عنده وقوانين .. فهذا دين وذلك دين ..

ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة - بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم،وجعل لهم فرقانا في تصورهم - أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة وأنـــه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين.

فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون ... أو بتعبير آخر مـــرادف:مـــن ربوبيـــة فرعون،ويهدد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله .. وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية اللّه وحده. فهو وحده الذي أهل هـــؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله .. إنهم يقدمون على الموت مســـتهينين ليقينـــهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين وأن عدوهم على دين غير دينهم لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين .. فهو إذن من الكافرين .. وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين - على ما ينتظرهم فيها من التعـــذيب والتنكيل - إلا بمثل هذا اليقين بشـــقيه:أنهـــم هـــم المؤمنـــون،وأن أعـــداءهم هـــم الكافرون،وأنهم إنما يحاربونهم على الدين،ولا ينقمون منهم إلا الدين.

ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على الشيطان. وهو مشهد بالغ الروعة .. نعترف أننا نعجز عن القول فيه. فندعه كما صوره النص القرآني الكريم![١٦٣]

وقال تعالى:« أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً،فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها،فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً:وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ.كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ.فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً،وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ.كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ» ..

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد السابق ويؤلف جانبا من المشهد الكوني العام،الذي تجري في جوه قضايا السورة وموضوعاتها.وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار ..وأن تسيل هذه الأودية بقدرها،كل بحسبه،وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شيء ..وهي إحدى القضايا التي تعالجها السورة ..وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطارا للمثل الذي يريد اللّه ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمرون عليه دون انتباه.

إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية،وهو يلم في طريقه غثاء،فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان.هذا الزبد نافش راب منتفخ ..ولكنه بعد غثاء.والماء من تحته سارب ساكن هادئ ..ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة ..كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة،أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص،فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل.ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء ..ذلك مثل الحق والباطل في هذا الحياة.فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا ولكنه بعد زبد أو خبث،ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه.والحق يظل هادئا ساكنا.وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات.ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء

---

[١٦٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٨١١]

المحيي والمعدن الصريح،ينفع الناس.«كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ» وكذلك يقرر مصائر الدعوات،ومصائر الاعتقادات.ومصائر الأعمال والأقوال.وهو اللّه الواحد القهار،المدبر للكون والحياة،العليم بالظاهر والباطن،والحق والباطل والباقي والزائل.[١٦٤]

وقال تعالى:{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} (٦٥) سورة الأنعام

وكلمة " قادر " تعني تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يملي للقوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب،وقد يأتي العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم الكعبة،فسلط عليهم طيراً أبابيل،ترميهم بحجارة من سجيل،جعلتهم كعصف مأكول،وهناك من أخذهم الحق بالصيحة،وهناك من أهلكتهم بريح صرصر عاتية،وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام.

أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض،وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه،وهذه هي التحتية. فالعذاب قد يأتي من فوق أو من تحت الأرجل حسّياً،وقد يأتي أيضاً من فوقيّة أو تحتيّة معنوية،ومثال ذلك العذاب الذي يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين،وقد يأتي العذاب من الفئات الفقيرة التي تعيش أسفل السلم الاجتماعي.

{ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } [الأنعام:٦٥].والمقصود بلبس الأمر أي خلطه بصورة لا يتبينها الرائي. و" شيعاً " هي جمع " شيعة ". والشيعة هم:المتعاونون على أمر ولو كان باطلا،ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة. والمقصود بقوله الحق:{ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً } أي أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير،وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التي تختفي وراء الأهواء،وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً.

---

[١٦٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٩١]

ولماذا كل ذلك؟ لأن الناس ما دامت فد انفرطت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب. ولكن أُغيّر ذلك في ملك الله ونواميسه الثابتة من شيء؟ أبداً،فالسماء هي السماء،والأرض بعناصرها هي الأرض،والشمس هي الشمس،والقمر هو القمر،والنجوم هي النجوم،والمطر هو المطر.

إن الذي يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض،ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر. وعندما نرى الناس تشكو،نعلم أن الناس كلها مذنبة،ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلا بد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب،ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن. والكل يسجد لإله واحد. ولهذا وضع الحق لنا العبادات الجماعية حتى يرى الضعيف في سلطان الدنيا القوي في السلطان وهو يشترك معه في السجود للإله الواحد.

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة في ملابس الإحرام،إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة،ومن بين هؤلاء أيضاً نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة،ويرى الضعيف نفسه مساوياً لمن في المركز الاجتماعي القوي.

الكل يقف أمام ربّه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكياً. ويريد سبحانه بذلك استطراق الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفي بيته على سواء.{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىا أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام:٦٥].

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً،إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة. وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التي تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق:{ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[الحجرات:٩].

ها هوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل،ويزداد عدد الضحايا،ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج،أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار. وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة.

والقاعدة التي قلناها من قبل لا تتغير،القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين؛ لأنه لا يوجد في الأمر الواحد إلا حق واحد. ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل؛ لأن الباطل زهوق وزائل. ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله.

ومثال آخر كنا نراه في بلد كلبنان – إبان الحرب الأهلية – وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده،وكل إنسان منهم له هواه،وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب.{ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام:٦٥].

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتي لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً في الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا. والفقه هو شدة الفهم. والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التي يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله[١٦٥].

---

[١٦٥] – تفسير الشعراوي [ص ٨٤٧]

قال تعالى:« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ،فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ،فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» ..

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها،وحاضرها بماضيها،فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم،و لم تكن معارفهم،و لم تكن تجاربهم – قبل الإسلام – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة.لولا هذا الإسلام – وكتابه القرآن – الذي أنشأهم به اللّه نشأة أخرى،وخلق به منهم أمة تقود الدنيا ..

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله،ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة وما جريات حياتهم فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها،فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعا ..وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة،و لم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة.بل حملتهم إليها! وارتقت بهم إلى مستواها،في ربع قرن من الزمان.على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون و لم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية،إلا بعد أجيال وأجيال ..فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية،وأنه إلى اللّه تصير الأمور ..فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله،واتسع له تصورها،ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة،فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن اللّه الثابتة والاطمئنان – بعد هذا – إلى مشيئته الطليقة! «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» ..

وهي هي التي تحكم الحياة.وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة.فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله – بمشيئة اللّه – في زمانكم،وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم.

«فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» ..فالأرض كلها وحدة.والأرض كلها مسرح للحياة البشرية.والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر.
«فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» ..وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض،وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك ..ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة.بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه.
وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل ..وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة:
إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغدا.ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة.وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى.وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير.وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير.
وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان:«هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ،وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» ..
هذا بيان للناس كافة.فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادي.ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى،وتجد فيه الموعظة،وتنتفع به وتصل على هداه ..طائفة «المتقين» ..
إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى.والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها ..والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل،وبالهدى والضلال ..إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل.إنما تنقص الناس الرغبة في الحق،والقدرة على اختيار طريقه ..والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان،ولا يحفظهما إلا التقوى ..ومن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات.تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق،ومن هدى،ومن نور،ومن موعظة،ومن عبرة ..إنما هي للمؤمنين وللمتقين.فالإيمان والتقوى

هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة.وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة ..واحتمال مشقات الطريق ..وهذا هو الأمر،وهذا هو لب المسألة ..لا مجرد العلم والمعرفة ..فكم ممن يعلمون ويعرفون،وهم في حمأة الباطل يتمرغون.إما خضوعا لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة،وإما خوفا من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة!

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت:«وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ.إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ..لا تهنوا – من الوهن والضعف – ولا تحزنوا – لما أصابكم ولما فاتكم – وأنتم الأعلون ..عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون للّه وحده،وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى.فأنتم تسيرون على منهج من صنع اللّه،وهم يسيرون على منهج من صنع خلق اللّه! ودوركم أعلى.فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها،الهداة لهذه البشرية كلها،وهم شاردون عن النهج،ضالون عن الطريق.ومكانكم في الأرض أعلى،فلكم وراثة الأرض التي وعدكم اللّه بها،وهم إلى الفناء والنسيان صائرون ..فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون.وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا.فإنما هي سنة اللّه أن تصابوا وتصيبوا،على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص:«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ.وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا،وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ.وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ» ..

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله،قد يكون إشارة إلى غزوة بدر.وقد مس القرح فيها المشركون وسلم المسلمون.وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد.وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر.حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون،وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد.حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها ..ثم كانت الدولة للمشركين،حينما خرج الرماة على أمر رسول اللّه – ﷺ– واختلفوا فيما بينهم.فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة.جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك

الخروج،وتحقيقا لسنة من سنن اللّه التي لا تتخلف،إذ كان اختلاف الرماة وخـــروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة.واللّه قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهـــدون في سبيله،لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد.وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن اللّه في الأرض،وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقا لما يبدو مـــن عمـــل النـــاس ونيتهم – فتكون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما.ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون.كما تتكشف الأخطاء.وينجلي الغبش.

«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ.وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ .وَلِـــيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» ..

إن الشدة بعد الرخاء،والرخاء بعد الشدة،هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس،وطبائع القلوب،ودرجة الغبش فيها والصفاء،ودرجة الهلع فيها والصبر،ودرجة الثقة فيها باللّـــه أو القنوط،ودرجة الاستسلام فيها لقدر اللّه أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين،ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم،وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم.ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده،وهم مختلطون مبهمون! واللّه ســبحانه يعلــم المــؤمنين والمنافقين.واللّه سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور.ولكن الأحداث ومداولة الأيـــام بين الناس تكشف المخبوء،وتجعله واقعا في حيـــاة النـــاس،وتحول الإيمـــان إلى عمـــل ظاهر،وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر،ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء.فاللّـــه سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام،وتعاقب الشدة والرخاء،محك لا يخطئ،وميزان لا يظلم.والرخاء في هـــذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك،ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل.والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء،وتتجه إلى اللّه في الحـــالين،وتوقن أن مـــا أصابها من الخير والشر فبإذن اللّه.

وقد كان اللّه يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء،والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن اللّه الجارية في النصر والهزيمة.لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة.ولتزيد طاعة للّه،وتوكلا عليه،والتصاقا بركنه.ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين[١٦٦].

وقال تعالى:« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » فيذكر المسلمون من الآية الكريمة أن للّه سبحانه وتعالى سننا فى خلقه،لن تتخلف أبدا،وأن من هذه السنن وتلك الأحكام والقوانين التي أخذ اللّه بها النّاس،ما تضمّنه قوله سبحانه « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى » (٣٩ ــ ٤١:النجم) ..

وما جاء به قوله سبحانه:« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٧ ــ ٨ الزلزلة).

وبهذا يرى المسلمون أنهم مطالبون بأن يعملوا وأن يحسنوا ما وسعهم العمل،وما أمكنهم الإحسان،وأن يلقوا عدوّهم بالصّبر وتوطين النفس على الجهاد والتضحية والبذل فى سبيل اللّه،وأن يشروا أنفسهم ابتغاء مرضاة اللّه .. وهنا يأذن اللّه لهم بالنصر،ويريهم فى عدوّهم ما يحبّون،وإلّا فقد رضوا لأنفسهم بالهزيمة،التي اكتسبوها بالقعود عن البذل والتضحية.

وينظر المسلمون فى سنن اللّه التي خلت فى عباده،وما لهذه السنن من آثار فى تقدير مصائر الأمم والأفراد على السواء،وإذا الّذين كذّبوا بآيات اللّه،وآذوا رسل اللّه،قد أخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر .. قوم نوح،وعاد،وثمود،وقوم إبراهيم،وقوم لوط،وأصحاب مدين .. هؤلاء جميعا هم ممن كذبوا الرّسل،فأخذهم اللّه بذنوبهم،وأوردهم موارد الهلاك فى الدنيا،ولهم فى الآخرة عذاب النار .. وفى هذا يقول اللّه تعالى:« فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

---

[١٦٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٧٧٦]

وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٤٠:العنكبوت) .. فهذا هو مصير الذين كفروا بآيات اللّه وكذّبوا رسله،وإلى مثل هذا المصير يصير أولئك الذين كذّبوا رسول اللّه وآذوه،ووقفوا منه ومن دعوته هذا الموقف العنادىّ المغرق فى العناد والضلال ..

وفى هذا تطمين للمسلمين،وتثبيت لأقدامهم،وأنهم على طريق النصر،إذا هم صبروا واتقوا،وأن أعداءهم إلى البوار والهلاك إن أصرّوا على ما هم عليه من شرك وضلال .. واللّه سبحانه وتعالى يقول:« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ » (٥١:غافر) .. ويقول سبحانه:« كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٣١:المجادلة) ثم تمتلىء أسماع المسلمين وقلوبهم بعد هذا بقوله تعالى:« هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ».

. فيرجعون إلى هذا البيان الذي استقبلتهم به تلك الآيات،وهم على مشارف المعركة والالتحام بعدوّهم،ويرتلون هذا البيان مرة بعد مرة،فيخلص إليهم منه فى كل مرة ما يزيد إيمانهم إيمانا ويقينهم يقينا،وإذا هم يمضون إلى المعركة فى ثقة وطمأنينة،وفى إصرار على كسب المعركة وبلوغ النصر!

وتدور المعركة،وتهبّ ريح النصر على المسلمين،وفى لحظة خاطفة يرون أنهم كسبوا المعركة،فألقى كثير منهم السلاح،وأقبل على الغنائم ينتزعها من بين يدى العدو قبل أن يفرّ بها! ولكن سرعان ما تتبدل الأمور،وتسكن ريح النصر،ويقع المسلمون ليد أعدائهم،فيقتلون منهم نحو سبعين قتيلا .. وينكشف الرسول،إذ تتناثر الكتيبة التي حوله،بين قتيل،وجريح،ومهزوم .. ويثبت الرسول الكريم مع فئة قليلة من أصحابه،ويخلص إليه من سهام العدوّ أذى كثير،حتى لتشجّ رأسه،وتنكسر ثنيّته،وينادى منادى المشركين:أن محمدا قتل!! وهنا يستبدّ الهول والفزع بالمسلمين،وتكاد تنتهى المعركة بالهزيمة القاصمة،لولا أن نادى منادى الرسول:أن رسول اللّه هنا فى المعركة،يقاتل المشركين .. فتثوب إلى المسلمين ألبابهم الشاردة،ويجتمعون إلى رسول اللّه،ويصمدون معه فى ردّ عدوان المعتدين ..

وتكتفي قريش بما نالت،وتقف بالمعركة عند هذا الحدّ،خوفا من أن تدور الدائرة عليها،لو أنها مضت بالحرب إلى آخر الشوط! ويعود النبيّ وأصحابه من المعركة،وقد أصيبوا فى أنفسهم،وفى أصحابهم ..

وفى القلوب حزن وأسى،وفى النفوس ضيق واختناق،ويهبّ على المدينة إعصار محموم،يلفّ الناس فى جوّ كئيب،ملفف بالسواد،لا يرى فيه الرائي موقع قدميه! وأين بدر ويومها ؟ وأين الوجه الذي استقبلت به المدينة أصحاب بدر،من هذا الوجه الذي تستقبل به أصحاب أحد ؟

وتدور فى الرءوس،وعلى الشفاه،خواطر،وهمسات،وغمغمات،تكاد لكثرتها أن تكون هديرا كهدير البحر الهائج،أو عواء كعواء الريح العاصف! وتعلو أصوات المنافقين والكافرين،فتقرع أسماع المسلمين،بالتجديف على الإسلام،والتكذيب لرسول اللّه،والسخرية بالملائكة التي قيل إنها قاتلت مع المسلمين يوم بدر! فأين رب محمد ؟ وأين الملائكة التي يقول إن ربّه يمدّه بها ؟ لقد قتل أصحابه،وكاد أن يقتل هو .. فما لربّه لا يدفع عنه وعن أصحابه ما أصابهم ؟ وما للملائكة لا تخفّ لنجدته ؟ أم ترى هل تفرّ الملائكة كما يفرّ الناس ؟ وهل تهزم كما يهزم المحاربون ؟ وكم من الملائكة من قتيل وجريح على أرض المعركة ؟ .. إن ذلك ليس إلّا ضلالا فى ضلال،وغرورا فى غرور .. لقد « غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ » (٤٩:الأنفال) فأوردهم موارد الهلاك وسوء المصير!!

هكذا كان المشركون والمنافقون يرددون تلك المقولات المنكرة،ويلقون بها — فى شماتة وسخرية — إلى أسماع المسلمين،فتزيد من آلام جراحهم،وتثقل من هموم أنفسهم! والمسلمون فى صمت ووحوم،يمسكون أنفسهم على هموم،ويطوون صدورهم على حسرات وغمرات .. لا يدرون ما يقولون،ولا ما يفعلون!!

تلك هى بعض المشاهد التي يمكن أن يرصدها الراصد لهذا اليوم،فيما كان يجرى فى المدينة،وما يدور فى محيط الجماعات التي تأوي إليها،من مسلمين،ومنافقين،ومشركين .. إنها مشاهد أرضية،تسبح صورها وخيالها فى غبار المعركة ودخانها،الذي انعقد فوق

المدينة،وخيّم فى سمائها لأيام وأيام! ويتطلع الرسول والمؤمنون إلى السّماء،يرقبون ماذا يجىء من جهتها عن هذا الحدث العظيم .. وماذا كان حسابهم عند اللّه فيما كان منهم،ولما أخذوا أو تركوا فى هذا اليوم ؟

وتقول السماء كلماتها،وتتنزل آيات اللّه بالحق،يقشع ظلام الباطل،ويفضح ضلال المبطلين،وتتلى كلمات اللّه فتلتئم بها جراحات المؤمنين،،وتمتلىء بها قلوبهم سكينة ورضى،وإيمانا:! وفى هذه الآيات المنزّلة،عزاء ورحمة وشفاء.[١٦٧]

وقال الشعراوي رحمه الله:"أي أنتم لستم بدعاً في هذه المسألة. و " خلت " تعني " مضت "،أي حصلت واقعا في أزمان سبقت هذا الكلام. وعادة فالأخبار التي يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبراً يحتمل الصدق والكذب،لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب؛ لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً،ولكنه أمر قد سبق،فبمجرد أن يجيء الكلام لا ننتظر واقعا يؤكد صدق الكلام،لأنَّ الواقع قد حدث من قبل،فيقول سبحانه:{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ }.

والسنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون؛ ليضمن للإنسان - السيد في هذا الكون - ما يحقق مصلحته،ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر قبل الإنسان.

وقد قلنا إن في هذا الكون تسخيراً:أي لا إرادة له،لا إرادة للجماد ولا للنبات. ولا للحيوان في أن يفعل الخير لك أو لا تفعل. فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة،ووضع فيها بذوراً،فلم تنبت الأرض وقالت له:لن أعطيك،و لم تقل الأرض يوماً عن إنسان:إنه كافر فلن أعطى له الرزق.

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان ما دام يأخذ بأسبابها؛ فهي تؤدي له. والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك،ولا بقدرة تسخيرك لها،ولكن بتسخير الله لها أن تفعل.

---

[١٦٧] - التفسير القرآني للقرآن ـــ دار الفكر العربي - القاهرة [٢ /٥٩٦]

وقلنا:إن الإنسان قد تكون عنده مطية،مثل بعض الفلاحين،فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته،وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له،ويدللها بالأشياء التي تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل،ويرفهها في حياتها وينظفها.

هل في الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت في الحالة الثانية عن حمل الإنسان؟ لا؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت،فليس لها اختيار. ولا نبات له اختيار،ولا جماد له اختيار،ولا الحيوان أيضاً،إنما الاختيار للإنسان.

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية. والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كي يظل في إطار التسخير. ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار.

فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشيء يسير على أحداث نظام ولا تصادم فيه،والذي فيه اختيار للإنسان هو الذي يختل،لماذا؟.

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذي خلَق وهو الله - سبحانه وتعالى - فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك في إطار منهج الله.

وحين تجعل اختيارك في إطار منهج الله تكون قد أصبحت سويًّا كبقيّة الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام.

وعندما تقارن بين شيء للإنسان فيه اختيار وعمل،وشيء لا اختيار للإنسان فيه ولا عمل،فأنت تجد أن الشيء الذي لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر،ولا خلاف فيه أبداً،أما الشيء الذي فيه اختيار للإنسان،فأنت تجد فيه الخلاف.

مثال ذلك:لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير،فإننا نجدها تسير في طريق واحد،وتتقابل جيئة وذهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار،ولا قتل لراكب أحد الحمارين.

إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً. ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان.
ولننظر إلى الإنسان حين تدخَّل ليصنع وسيلة مواصلات،صنع الإنسان ألوان السيارات،يقودها الإنسان،ومع أن الإنسان هو الذي يقود السيارات،وبرغم ذلك بدأت تأتي المخالفات والمصادمات والحوادث؛ لأن للإنسان يداً في ذلك.
والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً،إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار،فحاول أن تختار في إطار منهج الله. فعندما يقول الحق لك:" افعل كذا ولا تفعل كذا " فعليك أن تصدق وتطيع؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع،وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور في حياتك تمشي بيسر.
ولذلك قلنا:إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس، و لم يشتكوا أزمة هواء،لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام؟ إن الإنسان له دخل في إنتاج الطعام. فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله:" افعل كذا ولا تفعل كذا ".
الكون مخلوق بحق. ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء في الوجود يؤدي مهمته كما أرادها الله،وكما سُخِّر من أجله، إذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق. وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتج ما هو باطل،والكون مبني على الحق. { مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الدخان:٣٩] إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة،فلا شيء يعتدي على شيء آخر أبداً. واختيار الإنسان هو الذي يأتي بمقابل الحق وهو الباطل،ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل،والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يجيء ويبقى،والباطل يزهق ويزول،ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى:{ وَقُلْ جَـآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً }[الإسراء:٨١]

إذن فقوله سبحانه:{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } يعني:اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق،أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق؟ لا؛ لأن الباطل كان زهوقـــا.

ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول في مواكب الناس بعضهم مع بعض،ولكن في موكب الباطل مع حق السماء. وحق السماء يمثله الرسل والمناهج التي جاءت مـــن عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابلة قوم مبطلون.
لماذا؟ لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد،وما دام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد،وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتي موكب السماء ليصادم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل،فتنشأ معركـــة،فقال الحـــق حينئذ:{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ }. قالها الحق لنعرف أن الباطل زهـــوق،وأن كـــل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق. ولذلك تأتي سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك،بداية من قوله سبحانه:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الأَخِرَ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }[العنكبوت:٣٦-٣٧]
هذه هي الصورة الأولى،وتأتي الصورة الثانية:{ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُـم مِّـن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَـنِ السَّـبِيلِ وَكَـانُواْ مُسْتَبْصِـرِينَ }[العنكبوت:٣٨]
إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم. والصورة الثالثة:{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ }[العنكبوت:٣٩]
وساعة تسمع { وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ }. أي كأن هناك حاجة تلاحقهم،والذي يلاحقـه شيء فإنه يحاول أن يسبقه،لكنهم لا يستطيعون. وتأتي السنن واضحة بعـد ذلـك:{ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّـنْ

خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـاكِن كَـانُواْ أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ }[العنكبوت:٤٠]

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع في أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن،فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب،ولا تزال مدائن صالح،ولا تزال هناك آثار عاد،وكل مكان فيه أثر من الآثار. ولذلك يوضح الحق:فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت،ومن آمن بي فليصدق خبري،ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه:{ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }[النحل:٣٦]

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق – وهو الشيء الثابت – مع الباطل،وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له. ويصنعها الحق فيهم،صراعا بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً. وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل في أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان،وهذه نراها في الأمور المادية. أما في القيم فالحق يقول:{ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ }[الرعد:١٧]

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال في الأودية،والأودية كما نعرفها هي المكان المنحصر بين جبلين،فإذا نزلت الأمطار على الأعالي فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية. والوديان هي محل الخصب؛ لأن الغرين والطمى الذي يترل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع. وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته،وباقي المياه يبحث له عن مسلك آخر،ولو إلى باطن الأرض،وذلك كان مظهراً مألوفاً في الجزيرة العربية، فعندما يأتي السيل فإن الأودية تمتلئ ماءً،كل وادٍ يأخذ على قدر سعته. { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً } ونحن نراه في الحقول ونسميه " الريم " الذي يطفو على سطح الماء،ما الذي يحدث لهذا الريم؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً. ألم تر القدْر بها لحم تفور؟. إننا نجد الريم قد طفا على السطح. وهذا الريم فيه

أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود في القدر،فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح،فإما أن يخرجه الإنسان خارج القدر،وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهي.

ومن أين جاء هذا الزبد؟ إنه يأتي من الأرض، والأرض فيها أشياء كثيرة،كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض،هذه الأشياء عندما توجد في المسام،وتأتي الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها؛ لذلك فعندما يترل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح؛ ليجعل هناك منفذاً للجذور الصغيرة.

ويترل الله المطر ليغسل التربة كلها،ويجعل هذه الأشياء تطفو؛ لأنها غثاء،ويطفو الغثاء. وساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو،إنه علو إلى انتهاء،كذلك فورة الباطل.

إياك أنن تظن أن الزَبَد له فائدة،أو أنَّ ارتفاع الريم كان علواً على ما في القدر،لا. إنه تطهيرٌ لما في القدر أو الإناء،ولهذا قال الحق:{ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً }.

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التموجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى. ولننظر إلى الأشياء القذرة التي تلقي في البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطئ.{ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ }[المدثر:٣١]

إنها تخرج على الشاطئ ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطئ. وإلا كيف تتم صيانة الماء؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية. إذن فالماء عندما يترل سيلاً،فإنه ينقي التربة من العوائق التي تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة،وقد لا يكتفي بعضنا بهذا المثل،فيضرب لنا الله مثلاً آخر:{ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ } [الرعد:١٧]

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أي معدن في النار،فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقاقيع ونحن نسميها خبث المعدن وعندما نخرج الخبث من المعدن

فانه يصير قوياً إذن فالنار قد صهرت المعدن،وأخرجت منه الخبث الضار فيه،أو الذي يجعله لا يؤدي مهمته بكفاءة عالية،فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب،وهذه العمليات معناها أننا نصْهر الحديد بالنار لتزيل خبثه ليزداد قوة. وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منهما الأشياء الخارجة عنهما أي التي تختلط بهما وتشوبهما وهي ليست منهما.لماذا إذن يا ربيّ هذا التمثيل الحسي في المياه؟ والحلية التي لا تؤدي ضرورة،والمتاع وهو الذي يؤدي ضرورة؟ إنه سبحانه يقول:{ كَذالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ }.

إن الحق كالماء،والحق كالنار،والماء يحمل الزبد الرابي بعيداً عن مسام الأرض،والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن،وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا،كذلك يضرب الله الحق والباطل:{ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً }.

وجفاءً أي مطروحاً مرمياً،{ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ }. ذلك هو صراع الحق والباطل في المبادئ والقيم ويصوره الله في الأمور المادية. ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنهما متناقضان ويؤديان مهمة واحدة،ماء ونار،فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول:هذا يناقض ذاك،لا. لأن هذا الشيء مطلوب لمهمة،وذاك الشيء مطلوب لمهمة أخرى.

إذن فقول الحق سبحانه:{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل،وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو،ونقول:هذا إلى جُفاء. وهذه سنة من سنن الحياة. وإن أردتم أن تتأكدوا منهما،فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى:{ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }.

وهنا ملحظ عام،وملحظ خاص،الملحظ العام:أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض،وتلك هي حدود رؤيتنا،لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون،ونحن ما زلنا نجهل جزيئات في هذا الكون،ولم نعرف بعضها إلا أخيراً،وخالق الكون هو الذي يعلم كل الخبايا.

نحن نقول:إننا نسير على الأرض؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلاّ نحن فقط،ثم تبين لنا – بعد أن أخذ العلم حظه – أنه لو لا وجود الهواء في الأرض لما صلحت للحياة. ولذلك فعندما تدور الأرض. فالهواء الذي حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوي إذن فالغلاف الجوي جزء من الأرض وله امتداد كبير،فالإنسان عندما يسير فإنه يسير في الأرض،أما الذي يسير على الأرض فهو الذي يسير فوق الغلاف الجوي،أما السائر على اليابسة،والغلاف الجوي ما زال فوقه فهو يسير في الأرض لا على الأرض.

وما دامت المسألة هي سنن تقدمت،ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة،لذلك يقول لنا:{ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ } نسير بماذا؟. إما أن نسير بالانتقال،أو نسير بالأفكار؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة،والرحالة – مثلاً – هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة،ورأوا وادي الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها.

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء،فعاصفة واحدة تطمر قافلة. فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ }[الفجر:٦-١٣].

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أي متفوقة على حضارة مصر القديمة. وهي عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هي الآن؟.

وما دامت الرمال بعاصفة واحدة – كما قلنا – تطمر قافلة،فكم عاصفة مرت على هذه البلاد؟. ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض. لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض؟ لقد غطتها العواصف الرملية.

والمثال على ذلك:أنَّك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود لتجد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ. فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً،أو عامين،أو ثلاثة أعوام،رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطي الأثاث والأرض. وإذا كانت هذه الأمور تحدث في منازلنا فما بالك بالمنطقة التي فيها أعاصير وعواصف رملية؟ هل تطمر المدن أو لا؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر في الأرض،وهذا لون من السير في الأرض للرؤية والعظة. وحين يقول الحق:} فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ { فماذا يعني بعاقبة المكذبين؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ }[الفجر:٦-١٢].

إن الذي أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصولها؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها؟.

لا بد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها،فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء. إنها القوة الأعلى منها،وهكذا نصدق قوله الحق:{ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }. إنه القيّوم الذي يرى كل الخلق،فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها. إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصدق:{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }.[١٦٨]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٦٨] - تفسير الشعراوي [ص ٥٢٨]

قال تعالى: {فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)} [القلم:٤٤،٤٥]

وإن شأن المكذبين،وأهل الأرض أجمعين،لأهون وأصغر من أن يدبر اللّه لهم هذه التدابير ..ولكنه - سبحانه - يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان.وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارّون.وأن إمهالهم على الظلم والبغي والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير.وأنه تدبير من اللّه ليحملوا أوزارهم كاملة،ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب،مستحقين للخزي والرهق والتعذيب ..وليس أكبر من التحذير،وكشف الاستدراج والتدبير،عدلا ولا رحمة.واللّه سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير.وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم،فقد كشف القناع ووضحت الأمور! إنه سبحانه يمهل ولا يهمل.ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التي قدرها بمشيئته.ويقول لرسوله - ﷺ- ذرني ومن يكذب بهذا الحديث،وخل بيني وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان.فسأملي لهم،واجعل هذه النعمة فخهم! فيطمئن رسوله،ويحذر أعداءه ..ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب!

وفي ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدي والتعجيب من موقفهم الغريب:«أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ؟» ..فثقل الغرامة التي تطلبها منهم أجرا على الهداية هو الذي يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب،ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع،على فداحة ما يؤدون؟! «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟» ..

ومن ثم فهم على ثقة مما في الغيب،فلا يخيفهم ما ينتظرهم فيه،فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه؟ أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه.فكتبوه ضامنا لما يشتهون؟

ولا هذا ولا ذاك؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب؟! وبذلك التعبير العجيب الموحي الرعيب:«فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ» ..وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين اللّه وأعدائه المخدوعين ..بهذا وذلك يخلي اللّه النبي – ﷺ- والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر.وبين الحق والباطل.فهي معركته – سبحانه – وهي حربه التي يتولاها بذاته.والأمر كذلك في حقيقته،مهما بدا أن للنبي – ﷺ- وللمؤمنين دورا في هذه الحرب أصيلا.

إن دورهم حين ييسره اللّه لهم هو طرف من قدر اللّه في حربه مع أعدائه.فهم أداة يفعل اللّه بها أو لا يفعل.وهو في الحالين فعال لما يريد.وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد.

وهذا النص نزل والنبي – ﷺ- في مكة،والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء.فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين،والفزع للمغترين بالقوة والجاه والمال والبنين.ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة.

وشاء اللّه أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر في المعركة.ولكنه هنا لك أكد لهم ذلك القول الذي قاله لهم وهم في مكة قلة مستضعفون.وقال لهم وهم منتصرون في بدر:«فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ،وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى،وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً،إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» ..وذلك ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة.حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه.وأن الحرب حربه هو سبحانه.

وأن القضية قضيته هو سبحانه.وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا.وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا.أما حقيقة الحرب فهو الذي يتولاها.وأما حقيقة النصر فهو الذي يكتبها ..وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم.وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هي الأداة الوحيدة في يده! وهي حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية في كل موضع،وفي كل حال،وفي كل وضع.كما أنها هي الحقيقة التي تتفق مع التصور الإيماني لقدرة اللّه وقدره،ولسنته ومشيئته،ولحقيقة القدرة البشرية التي تنطلق لتحقيق قدر اللّه ..أداة ..ولن تزيد على أن تكون أداة ..

وهي حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن،في حالتي قوته وضعفه على السواء.ما دام يخلص قلبه للّه،ويتوكل في جهاده على اللّه.فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر،إنما هو اللّه الذي يكفل له النصر.وضعفه لا يهزمه لأن قوة اللّه من ورائه وهي التي تتولى المعركة وتكفل له النصر.ولكن اللّه يملي ويستدرج ويقدر الأمور في مواقيتها وفق مشيئته وحكمته،ووفق عدله ورحمته.

كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو،سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة.فليس المؤمن هو الذي ينازله،إنما هو اللّه الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته.اللّه الذي يقول لنبيه «فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ» وخل بيني وبين هذا البائس المتعوس!

واللّه يملي ويستدرج فهو في الفخ الرعيب المفزع المخيف،ولو كان في أوج قوته وعدته.فهذه القوة هي ذاتها الفخ وهذه العدة هي ذاتها المصيدة ..«وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»! أما متى يكون.فذلك علم اللّه المكنون! فمن يأمن غيب اللّه ومكره؟ وهل يأمن مكر اللّه إلا القوم الفاسقون؟[١٦٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٦٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٥٦٤]

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة.وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء- إلى شيء في هذه الأرض.ولا تنتظر إلا الآخرة.ولا ترجو إلا رضوان اللّه.قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال،بلا جزاء في هذه الأرض قريب.ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل.وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء.وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل ..حتى إذا وجدت هذه القلوب،وعلم اللّه منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت،آتاها النصر في الأرض،وائتمنها عليه.لا لنفسها.ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة،مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه و لم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه.وقد تجردت للّه حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه!

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة.بعد ذلك.وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه.وجاء النصر ذاته لأن مشيئة اللّه اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة،تراها الأجيال.فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام.إنما كان قدرا من قدر اللّه تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن![١٧٠]

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله،في كل أرض وفي كل جيل .فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش،وأن تثبّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته،كيفما كانت هذه النهاية .ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون،فلا

[١٧٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٧٧٩]

يتلفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء،وبالعرق والدماء،إلى نصر أو غلبة،أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض ..ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله ..لا جزاء على الآلام والتضحيات ..لا،فالأرض ليست دار جزاء ..وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء،وحسبهم هذا الاختيار الكريم،الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة،وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء .

هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى:{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ..حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل .إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق .وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان،ولا يسخطون منهم إلا العقيدة ..إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية،ولا معركة عنصرية ..ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها،وسهل حل إشكالها .ولكنها في صميمها معركة عقيدة – إما كفر وإما إيمان ..إما جاهلية وإما إسلام !

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله – ﷺ – المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد،أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن في هذا الأمر !

ولو أجابهم – حاشاه – إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق ! إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة ..وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم .فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة " إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع !

وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة،راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية،كي يموِّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة،ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة .فمن واجب المؤمنين ألا يُخدَعوا،ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض

مبيت .وأن الذي يغيِّر راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها،النصر في أية صورة من الصور،سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود،أو في صورة الهيمنة – الناشئة من الانطلاق الروحي – كما حدث للجيل الأول من المسلمين .

ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة،وأن تزور التاريخ،فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار ..كلا ..إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى ! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر،وفيهم صلاح الدين الكردي،وتوران شاه المملوكي،العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة ! { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } .

وصدق الله العظيم،وكذب المموهون الخادعون ![171]

لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة فلم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش – تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة:«أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان اللّه ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى اللّه.

ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول اللّه – ﷺ– هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة للّه ولرسول اللّه ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية.

لم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة،وعلى التجمع الجديد،وعلى القيادة الجديدة وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة ..

---

[171] – معالم في الطريق بتحقيقي [ص ١٦٣] وما بعدها

لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه ..وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية اللّه للعالمين في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد،يتبع في تحركه قيادة جديدة،ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض[١٧٢]!

وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها،إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان ..ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه،والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد،والدينونة لقيادته الجديدة،إلا كل من نذر نفسه للّه وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان ..

بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودا في المجتمع العربي فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى وكان هذا النوع قليلا،فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام،وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين.

وهكذا اختار اللّه السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة،ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون،إلا أن بيعتهم لرسول اللّه - ﷺ- (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين ..

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:لَمَّا وَعَدَ النَّبِيُّ ﷺالْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ،فَالْتَقَوْا بِالْعَقَبَةِ فَقَالُوا:سَلْ لِرَبِّكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ قَالَ ﷺ:" أَسْأَلُ لِرَبِّي أَنْ

---

[١٧٢] - يراجع في هذا الجزء التعليق على الآيات الأخيرة في سورة الأنفال ص ١٥٥٥ - ١٥٥٨.دار الشروق

تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ " قَالُوا:فَمَاذَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؟ قَالَ ﷺ:" لَكُمُ الْجَنَّةُ "[١٧٣]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ،فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ،فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ،وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَكَ .ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ،إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ،وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ،فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ .[١٧٤]

قال ابن كثير في التفسير:وقال محمد بن كعب القُرَظي وغيره:قال عبد الله بن رواحة،رضي الله عنه،لرسول الله ﷺ-يعني ليلة العقبة -:اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال:"أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا،وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم".قالوا:فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال:"الجنة".قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل،فترلت:{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ } الآية.[١٧٥]

---

[١٧٣] - أخبار مكة للفاكهي [٤ /٢٦](٢٣٢٥) صحيح

[١٧٤] – أخبار مكة للفاكهي [٤ /٢٣٢](٢٥٤٠) صحيح لغيره – هذان من عندي

[١٧٥] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /٢١٨] وتفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٤٩٩](١٧٢٧٠) صحيح لغيره

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول اللّه هذه البيعة ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول اللّه – ﷺ- ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم،وأن العرب كلها سترميهم وأنهم لن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة وبين ظهرانيهم في المدينة.

عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺبِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ،يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ،وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى،يَقُولُ:مَنْ يُؤْوِينِي ؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي،وَلَهُ الْجَنَّةُ ؟ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ،أَوْ مِنْ مِصْرَ،كَذَا قَالَ،فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ،فَيَقُولُونَ:احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ،لاَ يَفْتِنُكَ،وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ،وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ،حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ،فَآوَيْنَاهُ،وَصَدَّقْنَاهُ،فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ،وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ،فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلاَمِهِ،حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ،ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا،فَقُلْنَا:حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺيُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلاً[١٧٦] حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ،فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ،فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،عَلاَمَ نُبَايِعُكَ،قَالَ:تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ،وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ،وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ،لاَ تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ،وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي،فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ،وَأَزْوَاجَكُمْ،وَأَبْنَاءَكُمْ،وَلَكُمُ الْجَنَّةُ،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ،وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ،وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ،فَقَالَ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ،فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً،وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ،وَأَنَّ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ،وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ،وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً،فَبَيِّنُوا ذَلِكَ،فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ

[١٧٦] – المحقق أنهم اثنان وسبعون:ولكن العرب كثيرا ما تحذف الكسر!

اللهِ،قَالُوا:أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ،فَوَاللَّهِ لاَ نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا،وَلاَ نَسْلُبُهَا أَبَدًا،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ،فَأَخَذَ عَلَيْنَا،وَشَرَطَ،وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ.رواه الإمام أحمد[177]

فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا في هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة ..ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها ..فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة [178]..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[177] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٨٥](١٤٤٥٦) ١٤٥١٠والمستدرك للحاكم [٤ /١٥](٤٢٥١) صحيح

[178] - في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١١٤]

قال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } [يوسف:٧٦]..

إن هذا النص يحدد مدلول كلمة «الدين» – في هذا الموضع – تحديدا دقيقا ..إنه يعني:نظام الملك وشرعه ..فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته.إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه.وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم فطبقها يوسف عليهم عند ما وجد صواع الملك في رحل أخيه ..وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها «الدين» ..

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعا.سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين!

إنهم يقصرون مدلول «الدين» على الاعتقاد والشعائر ..ويعدون كل من يعتقد في وحدانية اللّه وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ويؤدي الشعائر المكتوبة ...داخلا في «دين اللّه» مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير اللّه من الأرباب المتفرقة في الأرض ..بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول «دين الملك» بأنه نظام الملك وشريعته.وكذلك «دين اللّه» فهو نظامه وشريعته ..

إن مدلول «دين اللّه» قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر ..ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات اللّه وسلامه أجمعين.

لقد كان يعني دائما:الدينونة للّه وحده بالتزام ما شرعه،ورفض ما يشرعه غيره.وإفراده – سبحانه – بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته وحده للناس:أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره.وكان مفرق الطريق دائما بين من هم في دين «اللّه» ومن هم في «دين الملك» أن الأولين يدينون لنظام اللّه وشرعه وحده،وأن

الآخرين يدينون لنظام الملـك وشـرعه.أو يشـركون فيـدينون للّـه في الاعتقـاد والشعائر،ويدينون لغير اللّه في النظام والشرائع! وهـذا مـن المعلـوم مـن الـدين بالضرورة،ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماما.

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذرا في أنهم يجهلون مدلول كلمـة «ديـن اللّه» وهم من ثم لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة اللّه وحـدها بوصـفها هـي «الدين».وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين! وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين! إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها.فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها؟

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة،أو يخفف عنهم العـذاب فيهـا ويلقـي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها ..ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها للّه،والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل.وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام في الأرض! إن الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم ..إنـه لـيس ديـن اللّـه قطعا.فدين اللّه هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة.فمن كان في نظام اللّه وشرعه فهو في «دين للّه».ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في «دين الملـك».ولا جدال في هذا.والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين.لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية.والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسـية لا يمكن عقلا وواقعا أن يكون معتقدا به.إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة ..وهذه بديهية ..

وخير لنا من أن ندافع عن الناس - وهم في غير دين اللّه - ونتلمس لهم المعاذير،ونحاول أن نكون أرحم بهم من اللّه الذي يقرر مدلول دينه وحدوده! ..خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول «دين اللّه» ليدخلوا فيه ..أو يرفضوه ..

هذا خير لنا وللناس أيضا ..خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجـاهلين بهـذا الدين،الذين ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة ..وخير للناس لأن مواجهتـهم بحقيقة ما هم عليه – وأنهم في دين الملك لا في دين اللّه – قد تهزهم هزة تخرجهم مـن الجاهلية إلى الإسلام،ومن دين الملك إلى دين اللّه! كذلك فعل الرسل – عليهم صلوات اللّه وسلامه – وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى اللّه في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان ..[١٧٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٧٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٥٦]

قال تعالى:«أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ.يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ:أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» ..

لقد كان مشركوا مكة يستعجلون الرسول - ﷺ- أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة.وكلما امتد بهم الأجل ولم يترل بهم العذاب زادوا استعجالا،وزادوا استهزاء،وزادوا استهتارا وحسبوا أن محمدا يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة،ليؤمنوا له ويستسلموا.ولم يدركوا حكمة اللّه في إمهالهم ورحمته في إنظارهم ولم يحاولوا تدبر آياته في الكون،وآياته في القرآن.هذه الآيات التي تخاطب العقول والقلوب،خيرا من خطابها بالعذاب! والتي تليق بالإنسان الذي أكرمه اللّه بالعقل والشعور،وحرية الإرادة والتفكير.

وجاء مطلع السورة حاسما جازما:«أَتى أَمْرُ اللَّهِ» ..يوحي بصدور الأمر وتوجه الإرادة وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره اللّه لوقوعه «فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ» فإن سنة اللّه تمضي وفق مشيئته،لا يقدمها استعجال.ولا يؤخرها رجاء.فأمر اللّه بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى،أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر،لا يستقدم ساعة ولا يتأخر.

وهذه الصيغة الحاسمة الجازمة ذات وقع في النفس مهما تتماسك أو تكابر،وذلك فوق مطابقتها لحقيقة الواقع فأمر اللّه لا بد واقع،ومجرد قضائه يعد في حكم نفاذه،ويتحقق به وجوده،فلا مبالغة في الصيغة ولا مجانبة للحقيقة،في الوقت الذي تؤدي غايتها من التأثر العميق في الشعور.

فأما ما هم عليه من شرك باللّه الواحد،وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تتره اللّه عنه وتعالى:«سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ» بكل صوره وأشكاله،الناشئة عن هبوط في التصور والتفكير.

أتى أمر اللّه المتره عن الشرك المتعالي عما يشركون.اللّه الذي لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو يترل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم:«يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» ..وهذا أولى نعمه وكبراها.فهو لا يترل من السماء ماء يحيي الأرض والأجسام وحدها - كما سيجيء- إنما يترل الملائكة بالروح من أمره.وللتعبير بالروح ظله ومعناه.فهو حياة ومبعث حياة:حياة في النفوس والضمائر والعقول والمشاعر.وحياة في المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار.وهو أول ما يترله اللّه من السماء للناس،وأول النعم التي يمن اللّه بها على العباد.تترل به الملائكة أطهر خلق اللّه على المختارين من عباده - الأنبياء - خلاصته وفحواه:«أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ.»

إنها الوحدانية في الألوهية.روح العقيدة.وحياة النفس.ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي والاتجاه المدمر.فالنفس التي لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتخايل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة،وتناوشها الوساوس،فلا تنطلق مجتمعة لهدف من الأهداف! والتعبير بالروح يشمل هذه المعاني كلها ويشير إليها في مطلع السورة المشتملة على شتى النعم،فيصدر بها نعمه جميعا وهي النعمة الكبرى التي لا قيمة لغيرها بدونها ولا تحسن النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التي تحييها.

ويفرد الإنذار،فيجعله فحوى الوحي والرسالة،لأن معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة اللّه،والمحرمين ما أحله اللّه،والناقضين لعهد اللّه،والمرتدين عن الإيمان ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق في هذا السياق.وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى في هذا المقام.[١٨٠]

وفى قوله تعالى:« أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ » تقرير لحقيقة واقعة،وهى أن أمر اللّه،وهو انتقال الناس من دار الفناء إلى دار البقاء ـــ قد أتى فعلا منذ كان للناس حياة على هذه الأرض .. فلم يستعجلون أمر اللّه فيهم،وهو موجود بينهم،عامل فيهم ؟ إن

---

[١٨٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٨٠٧]

الموت يأتى كل يوم على أعداد كثيرة من الناس،فمن لم يمت اليوم،فهو سيموت غدا أو بعد غد فلم يستعجل الناس أمرا يطلبهم ؟

وفى قوله تعالى:« سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ » تتريه للّه سبحانه وتعالى عـــن هـــذا الشرك الذي هم فيه،وعن هؤلاء الشركاء الذين يعبدونهم من دونه .. ثم هو إلفات لهم إلى أن يخرجوا من هذا المنكر الذي هم فيه،وقد أظلّهم يوم القيامة،ونزل بهم أمر اللّه .. فإنهم إن لم يسرعوا للفرار مما يعبدون من دون اللّه،أدركهم الموت،ووقعوا فى شـــباكه و لم يكن لهم ثمّة سبيل إلى النجاة ..

وقوله تعالى:« يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ».هو نذير بين يدى أمر اللّه الواقع،ينذر هؤلاء المشركين،أن يتخلصوا من شركهم،وأن يخلصوا عبادتهم للّه وحده،وأن يتقوه،ويحذروا عقابه ..فهو سبحانه ـــ رحمة بعباده ـــ قد بعث فيهم رسله،وأمرهم أن ينذروا الناس بما أوحـــى إلـــيهم مـــن أمره،الذي هو دعوة إلى الإيمان به،والولاء له،والبراءة من كل شريك ..والرّوح،هو أمر اللّه الذي تحمله الملائكة إلى رسل اللّه،وهو كلماته المترلة على الرسل،وسميت روحا لأن فيها الحياة للناس،فمن لم يأخذ حظّه منها،فهو ميت،وإن كان فى عالم الأحيـــاء .. وفى هذا يقول الحق جلّ وعلا:« أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها » (١٢٢:الأنعام).[١٨١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٨١] - التفسير القرآني للقرآن - دار الفكر العربي - القاهرة [٧ /٢٦٩]

قال تعالى:«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ.ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ.ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً،فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً،فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً،فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً.ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ.فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ.ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ.ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ» ..

وفي أطوار هذه النشأة،وتتابعها بهذا النظام،وبهذا الاطراد،ما يشهد بوجود المنشئ أولا،وما يشهد بالقصد والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيرا.فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة،ولا خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير ثم تسير هذه السيرة التي لا تنحرف،ولا تخطئ،ولا تتخلف ولا تسير في طريق آخر من شتى الطرق التي يمكن عقلا وتصورا أن تسير فيها.إنما تسير النشأة الإنسانية في هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق الممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة في هذا الوجود.

كما أن في عرض تلك الأطوار بهذا التتابع الدقيق المطرد،ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر،والسير على نهج المؤمنين الذي بينه في المقطع السابق ..هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة في الحياتين:الدنيا والآخرة.وهذا هو المحور الذي يجمع بين المقطعين في سياق السورة.

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» ..وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها.فيفيد أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة،من الطين إلى الإنسان.فالطين هو المصدر الأول،أو الطور الأول.

والإنسان هو الطور الأخير ..وهي حقيقة نعرفها من القرآن،ولا نطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان،أو نشأة الأحياء.

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر في صنع اللّه،ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين.ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة.أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين

للنشوء والارتقاء،لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان.وهي تخطئ وتصـــيب في هذه المحاولة – التي سكت القرآن عن تفصيلها – وليس لنا أن نخلط بين الحقيقة الثابتة التي يقررها القرآن ..حقيقة التسلسل ..وبين المحاولات العلمية في البحث عن حلقـــات هذا التسلسل وهي المحاولات التي تخطئ وتصيب،وتثبت اليـــوم وتـــنقض غـــدا،كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقة في يد الإنسان.

والقرآن يعبر أحيانا عن تلك الحقيقة باختصار فيقول:«...بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِـــينٍ» ..دون إشارة إلى الأطوار التي مر بها.والمرجـــع في هـــذا الأمـــر إلى الـــنص الأكثـــر تفصيلا،وهو الذي يشير إلى أنه «مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» فالنص الآخر يختصر هذه الأطوار لمناسبة خاصة في السياق هناك.أما كيف تسلسل الإنسان من الطين فمســـكوت عنـــه كما قلنا لأنه غير داخل في الأهداف القرآنية.وقد تكون حلقاته على النحو الذي تقول به النظريات العلمية وقد لا تكون وتكون الأطوار قد تمت بطريـــق آخـــر لم يعـــرف بعد،وبسبب عوامل وعلل أخرى لم يكشف عنها الإنسان ..ولكن مفرق الطريق بـــين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة تلك النظريات أن القرآن يكرم هذا الإنسان ويقرر أن فيه نفخة من روح اللّه هي التي جعلت من سلالة الطين إنسانا،ومنحته تلك الخصائص التي بها صار إنسانا وافترق بها عن الحيوان.وهنا تفترق نظرة الإسلام افتراقا كليا عـــن نظرة الماديين.واللّه أصدق القائلين[١٨٢].

ذلك أصل نشأة الجنس الإنساني ..من سلالة من طين ..فأما نشأة الفرد الإنساني بعـــد ذلك،فتمضي في طريق آخر معروف:«ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ» ..لقـــد نشـــأ الجنس الإنساني من سلالة من طين.فأما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جـــرت سنة اللّه أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صـــلب رجل،فتســـتقر في رحـــم امرأة.نقطة مائية واحدة.لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة.تستقر:«فِي قَرارٍ مَكِينٍ» ..ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض،المحمية

[١٨٢] – يراجع كتاب:«الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمد قطب. «دار الشروق»

بها من التأثر باهتزازات الجسم،ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات،ورجات وتأثرات!

والتعبير القرآني يجعل النطفة طورا من أطوار النشأة الإنسانية،تاليا في وجوده لوجود الإنسان ..وهي حقيقة.ولكنها حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل،فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة،كما يعاد من جديد في الجنين وكي يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب.ومن النطفة إلى العلقة.حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى،وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة في أول الأمر،تتغذى بدم الأم ..ومن العلقة إلى المضغة،حينما تكبر تلك النقطة العالقة،وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط ..

وتمضي هذه الخليقة في ذلك الخط الثابت الذي لا ينحرف ولا يتحول،ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة.وبتلك القوة الكامنة في الخلية المستمدة من الناموس الماضي في طريقه بين التدبير والتقدير ..حتى تجيء مرحلة العظام ..«فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً» فمرحلة كسوة العظام باللحم:«فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً» ..وهنا يقف الإنسان مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي.ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم.وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولا في الجنين.ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام،وتمام الهيكل العظمي للجنين.وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني:«فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً،فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً» ..فسبحان العليم الخبير! «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» ..هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة.فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية.ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر،ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة،المستعدة للارتقاء.ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان،مجردا من خصائص الارتقاء والكمال،التي يمتاز بها جنين الإنسان.

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد.وهو ينشأ «خَلْقاً آخَرَ» في آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيواني عند

التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص.ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية،فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطورا آليا – كما تقول النظريات المادية – فهما نوعان مختلفان.اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنسانا.واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني «خَلْقاً آخَرَ».إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ثم يبقى الحيوان حيوانا في مكانه لا يتعداه.ويتحول الإنسان خلقا آخر قابلا لما هو مهيأ له من الكمال.بواسطة خصائص مميزة،وهبها له اللّه عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان[١٨٣].

«فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» ..وليس هناك من يخلق سوى اللّه.فأحسن هنا ليست للتفضيل،إنما هي للحسن المطلق في خلق اللّه.

«فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» ..الذي أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير في هذه الأطوار،وفق السنة التي لا تتبدل ولا تنحرف ولا تتخلف،حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الإنساني،على أدق ما يكون النظام!

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه «معجزات العلم» حين يصنع الإنسان جهازا يتبع طريقا خاصا في تحركه،دون تدخل مباشر من الإنسان ..فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته،وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها.وتحولات كاملة في ماهيتها؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون،مغلقي القلوب،لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب ..وإن مجرد التفكر في أن الإنسان – هذا الكائن المعقد – كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة وإن تلك الخصائص

---

١٨٣ – تقوم نظرية النشوء والارتقاء على أساس مناقض. إذ تفترض أن الإنسان ليس إلا طورا من أطوار الترقي الحيوانية. وتفترض أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة الإنسان. والواقع المشهود يكذب هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والإنسان. ويقرر أن الحيوان لا يحمل هذه الخصائص. فيقف دائما عند حدود جنسه الحيواني لا يتعداه. وقد يثبت تطوره الحيواني على نحو ما يقول دارون أو على أي نحو آخر. ولكن يبقى النوع الإنساني متميزا بأنه يحمل خصائص معينة تجعل منه إنسانا ليست نتيجة تطور آلي. إنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية.

والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عند ما ينشأ خلقا آخر.فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى.وإذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة.هذه الوراثات وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة الصغيرة ..إن مجرد التفكر في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب ..

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة،وأطوار النشأة.فالحياة الإنسانية التي نشأت من الأرض لا تنتهي في الأرض،لأن عنصرا غير أرضي قد امتزج بها،وتدخل في خط سيرها ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيواني،ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة وجعلت كمالها الحقيقي لا يتم في هذه الأرض،ولا في هذه الحياة الدنيا إنما يتم هنالك في مرحلة جديدة وفي الحياة الأخرى:«ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ.ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ» ..فهو الموت نهاية الحياة الأرضية،وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة.وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار.

ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة.وبعده تبدأ الحياة الكاملة،المبرأة من النقائص الأرضية،ومن ضرورات اللحم والدم،ومن الخوف والقلق،ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان.ذلك لمن يسلك طريق الكمال.الطريق الذي رسمه المقطع الأول في السورة.طريق المؤمنين فأما من ارتكس في مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان،فهو صائر في الحياة الأخرى إلى غاية الارتكاس.حيث تهدر آدميته،ويستحيل حصبا من حصب جهنم،وقودا للنار،التي وقودها الناس والحجارة.والناس من هذا الصنف هو والحجارة سواء![١٨٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

١٨٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣١٦٨]

قال تعالى:«وَالَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّه إلهاً آخرَ،وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّـهُ إلَّا بالْحَقِّ،وَلا يَزْنُونَ.وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ يَلْقَ أَثاماً.يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقيامَة،وَيَخْلُدْ فيه مُهاناً.إلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَملَ عَمَلًا صالحاً،فَأُولئكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتهِمْ حَسَنات،وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحيماً.وَمَنْ تابَ وَعَملَ صالحاً فَإنَّهُ يَتُوبُ إلَى اللَّه مَتاباً».

وتوحيد اللّه أساس هذه العقيدة،ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة في الاعتقاد والغموض والالتواء والتعقيد،الذي لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة.

والتخرج من قتل النفس - إلا بالحق - مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التي تحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن وحياة الغابات والكهوف التي لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء.

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التي يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيواني الغليظ،ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفا أسمى من إرواء سعار اللحم والدم،والحياة الهابطة الغليظة التي لا هم للذكران والإناث فيها إلا إرضاء ذلك السعار.

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على اللّه والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان ..من أجل ذلك ذكرها اللّه في سمات عباد الرحمن.أرفع الخلق عند اللّه وأكرمهم على اللّه.وعقب عليها بالتهديد الشديد:«وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ يَلْقَ أَثاماً» أي عذابا.وفسر هذا العذاب بما بعده «يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقيامَة.وَيَخْلُدْ فيه مُهاناً» ..فليس هو العذاب المضاعف وحده،وإنما هي المهانة كذلك،وهي أشد وأنكى.

ثم يفتح باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير المسيء بالتوبة والإيمان الصحيح والعمل الصالح:«إلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَملَ عَمَلًا صالحاً» ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم

الجديدة:«فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ».وهو فيض من عطاء اللّه لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال،وثاب إلى حمى اللّه،ولاذ به بعد الشرود والمتاهة.«وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» ..

وباب التوبة دائما مفتوح،يدخل منه كل من استيقظ ضميره،وأراد العودة والمآب.لا يصد عنه قاصد،ولا يغلق في وجه لاجىء،أيا كان،وأيا ما ارتكب من الآثام.

روى الطبراني عَنْ أَبِي طَوِيلٍ شَطَبِ الْمَمْدُودِ،أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺفَقَالَ:أَرَأَيْتَ رَجُلا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا،فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا،وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلا دَاجَةً إِلا أَتَاهَا،فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ:"فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟"قَالَ:أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ،وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ،وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ،قَالَ:"نَعَمْ،تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ،وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ،فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ"،قَالَ:وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ:"نَعَمْ"،قَالَ:اللَّهُ أَكْبَرُ،فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى.[185] .

ويضع قاعدة التوبة وشرطها:«وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً» ..فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية،وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية.وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية.فالمعصية عمل وحركة،يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة،وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع.وهذه لمحة في منهج التربية القرآني عجيبة،تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة.ومن أخبر من الخالق بما خلق؟ سبحانه وتعالى! [186]

---

[185] - المعجم الكبير للطبراني [٦ /٤٧٥] (٧٠٨٥) صحيح

[186] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٣٠٣]

إن طبيعة الإسلام هذه لا تلائمها طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية – في الغالب – لأن الشاعر يخلق حلما في حسه ويقنع به.فأما الإسلام فيريد تحقيق الحلم ويعمل على تحقيقه،ويحول المشاعر كلها لتحقق في عالم الواقع ذلك النموذج الرفيع.

والإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المهوّم.فإذا كانت هذه الحقائق لا تعجبهم،ولا تنفق مع منهجه الذي يأخذهم به،دفعهم إلى تغييرها،وتحقيق المنهج الذي يريد.

ومن ثم لا تبقى في الطاقة البشرية بقية للأحلام المهوّمة الطائرة.فالإسلام يستغرق هذه الطاقة في تحقيق الأحلام الرفيعة،وفق منهجه الضخم العظيم.ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته – كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ.إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن.منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها ومنهج الأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها.فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام،وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعرا وفنا وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع ولا تكتفي بخلق عوالم وهمية تعيش فيها،وتدع واقع الحياة كما هو مشوها متخلفا قبيحا! وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية،وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام،في ضوء الإسلام،ثم تعبر عن هذا كله شعرا وفنا.

فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن،كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ.

ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون،وإلى خفايا النفس البشرية.وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن.وفي القرآن وقفات أمام بدائع الخلق والنفس لم يبلغ إليها شعر قط في الشفافية والنفاذ والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال.

ومن ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء:«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ،وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً،وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا» ..فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام.هؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة،واستقامت حياتهم على منهج.وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل،ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام.

وانتصروا من بعد ما ظلموا فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصرة الحق الذي اعتنقوه.

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها في إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول اللّه – ﷺ- حسان بن ثابت،وكعب بن مالك وعبد اللّه بن رواحة – رضي اللّه عنهم – من شعراء الأنصار،ومنهم عبد اللّه بن الزبعرى،وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد كانا يهجوان رسول اللّه – ﷺ- في جاهليتهما،فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول اللّه ونافحا عن الإسلام.

وعَنِ الْبَرَاءِ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ النَّبِىُّ – ﷺ- لِحَسَّانَ « اهْجُهُمْ – أَوْ هَاجِهِمْ – وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » [187].

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ،حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الشِّعْرِ مَا أَنْزَلَ،أَتَى النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ فِي الشِّعْرِ مَا قَدْ عَلِمْتَ،وَكَيْفَ تَرَى فِيهِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ[188].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشِّعْرِ مَا أَنْزَلَ،فَقَالَ:إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ.[189]

---

[187] – صحيح البخارى- المكنز [١١ /٣٥٧](٣٢١٣)

[188] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٤١٦](١٥٧٨٥) ١٥٨٧٧ صحيح

[189] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٨ /٧٧٧] (٢٧١٧٤) ٢٧٧١٦ صحيح

والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها.وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها،ليكون شعرا أو فنا يرضاه الإسلام.

وليس من الضروري أن يكون دفاعا ولا دفعا ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيدا له أو لأيام الإسلام ورجاله ..ليس من الضروري أن يكون في هذه الموضوعات ليكون شعرا إسلاميا.وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح،ممزوجة بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد بالله في حسه لهي الشعر الإسلامي في صميمه.وإن لحظة إشراق واتصال بالله،أو بهذا الوجود الذي أبدعه الله،لكفيلة أن تنشئ شعرا يرضاه الإسلام.

ومفرق الطريق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها،وللعلاقات والروابط فيها.فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام.[١٩٠]

[١٩٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٣٥٢]

قال تعالى:«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ:آمَنَّا بِاللَّهِ.فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ:إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ.أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ؟ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا،وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ» ..

ذلك النموذج من الناس،يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل،هينة المئونة،لا تكلف إلا نطقها باللسان،«فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ» بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» فاستقبلها في جزع،واختلت في نفسه القيم،واهتزت في ضميره العقيدة وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه،حتى عذاب اللّه وقال في نفسه:ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء،فعلام أصبر على الإيمان،و عذاب اللّه لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر،وعذاب اللّه الذي لا يعرف أحد مداه.

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة.

«وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ:إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ»! إنا كنا معكم ..وذلك كان موقفهم في ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوي،وسوء التصوير وخطأ التقدير.ولكن حين يجيء الرخاء تنبت الدعوى العريضة،وينتفش المتروون المتخاذلون،ويستأسد الضعفاء المهزومون،فيقولون:«إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ»! «أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ؟» ..

أو ليس يعلم ما تنطوي عليه تلك الصدور من صبر أو جزع،ومن إيمان أو نفاق؟ فمن الذي يخدعه هؤلاء وعلى من يموهون؟

«وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ» ..وليكشفنهم فيعرفون فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون.

ونقف لحظة أمام التعبير القرآني الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ في هذا النموذج من الناس حين يقول:«جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» ..

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب،فمثل هذا يقـــع للمـــؤمنين الصادقين في بعض اللحظات - وللطاقة البشرية حدود - ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة في تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم مـــن أذى وتنكيـــل،وبين عذاب اللّه العظيم فلا يختلط في حسهم أبدا عالم الفناء الصغير وعالم الخلود الكبير،حتى في اللحظة التي يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمـــال ..إن اللّـــه في حس المؤمن لا يقوم له شيء،مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله ..وهذا هـــو مفـــرق الطريق بين الإيمان في القلوب والنفاق.[191]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[191] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٤٦٥]

مفرق الطريق بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين

قال تعالى:«وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ،وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُـــرَكَائِهِمْ شُـــفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ.وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ.وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَـــاءِ الْـــآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» ..

فها هي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون،ويكذب بها المكذبون.ها هي ذي تجيء،أو ها هي ذي تقوم! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين،لا أمل لهم في نجاة،ولا رجاء لهم في خلاص.ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخـــذوهم في الحيـــاة الـــدنيا ضـــالين مخدوعين! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع.ثم ها هم أولاء يكفـــرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع اللّه رب العالمين.

ثم ها هو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين:«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواوَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» ..ويتلقون فيها ما يفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير. «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِـــي الْعَـــذَابِ مُحْضَـــرُونَ» ..وتلك نهاية المطاف.وعاقبة المحسنين والمسيئين. [١٩٢]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٩٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٥٠١]

قال تعالى:«أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ...؟» ..هذا هو مفتاح الشر كله ..أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنا.أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها.ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه،لأنه واثق من أنه لا يخطئ! متأكد أنه دائما على صواب! معجب بكل ما يصدر منه! مفتون بكل ما يتعلق بذاته.لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء،ولا أن يحاسبها على أمر.وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه.لأنه حسن في عين نفسه.مزين لنفسه وحسه.لا مجال فيه للنقد،ولا موضع فيه للنقصان! هذا هو البلاء الذي يصبه الشيطان على إنسان وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال.فإلى البوار! إن الذي يكتب اللّه له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب.فلا يأمن مكر اللّه.

ولا يأمن تقلب القلب.ولا يأمن الخطأ والزلل.ولا يأمن النقص والعجز.فهو دائم التفتيش في عمله.دائم الحساب لنفسه.دائم الحذر من الشيطان.دائم التطلع لعون اللّه.

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال،وبين الفلاح والبوار.

إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن في ألفاظ معدودة:«أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً» ..إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير.ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين.هو هذا الغرور.هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق.ولا يحسن عملا لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء.ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ! ولا يصلح فاسدا لأنه مستيقن أنه لا يفسد! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح! إنه باب الشر.ونافذة السوء.ومفتاح الضلال الأخير ..

ويدع السؤال بلا جواب ..«أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً؟» ..ليشمل كل جواب.كأن يقال:أفهذا يرجى له صلاح ومتاب؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب

اللّه؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء؟ ..إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال.وهو أسلوب كثير التردد في القرآن.وتجيب الآية بأحد هذه الأجوبة من بعيد:«فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» .. وكأنما يقول:إن مثل هذا قد كتب اللّه عليه الضلالة مستحقا لها بما زين له الشيطان من سوء عمله وبما فتح عليه هذا الباب الذي لا يعود منه ضال! فإن اللّه يضل من يشاء ويهدي من يشاء بما تقتضيه طبيعة الضلال في ذلك وطبيعة الهدى في هذا.طبيعة الضلال برؤية العمل حسنا وهو سوء.وطبيعة الهدى بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوى ..وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدى والضلال.

وما دام الأمر كذلك «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» ..

إن هذا الشأن.شأن الهدى والضلال.ليس من أمر بشر.ولو كان هو رسول اللّه - ﷺ- إنما هو من أمر اللّه.والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن.وهو مقلب القلوب والأبصار ..واللّه - سبحانه - يعزي رسوله ويسليه بتقرير هذه الحقيقة له.حتى يستقر قلبه الكبير الرحيم المشفق على قومه مما يراه من ضلالهم،ومصيرهم المحتوم بعد هذا الضلال.وحتى يدع ما يجيش في قلبه البشري من حرص على هداهم،ومن رؤية الحق الذي جاء به معروفا بينهم! وهو حرص بشري معروف.يرفق اللّه سبحانه برسوله من وقعه في حسه،فيبين له أن هذا ليس من أمره،إنما هو من أمر اللّه.وهي حالة يعانيها الدعاة كلما أخلصوا في دعوتهم،وأدركوا قيمتها وجمالها وما فيها من الخير.ورأوا الناس في الوقت ذاته يصدون عنها ويعرضون ولا يرون ما فيها من الخير والجمال.ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال.وأولى أن يدرك الدعاة هذه الحقيقة التي واسى بها اللّه - سبحانه - رسوله.فيبلغوا دعوتهم باذلين فيها أقصى الجهد.ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له اللّه الصلاح والفلاح.

«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ» ..وهو يقسم لهم الهدى أو الضلال وفق علمه بحقيقة صنعهم.واللّه يعلم هذه الحقيقة قبل أن تكون منهم ويعلمها بعد أن تكون.وهو يقسم لهم وفق علمه الأزلي.ولكنه لا يحاسبهم على ما يكون منهم إلا بعد أن يكون... [١٩٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٩٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٦٩٦]

مفرق الطريق بين شكر النعم وكفرانها

قال تعالى:«إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ.وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ.وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ.وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى .ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» ..

إن هذه الرحلة في بطون الأمهات هي مرحلة في الطريق الطويل.تليها مرحلة الحياة خارج البطون.ثم تعقبها المرحلة الأخيرة مرحلة الحساب والجزاء.بتدبير المبدع العليم الخبير.

واللّه - سبحانه - غني عن العباد الضعاف المهازيل.إنما هي رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته.وهم من هم من الضعف والهزال! «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ» ..فإيمانكم لا يزيد في ملكه شيئا.وكفركم لا ينقص منه فتيلا.ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه:«وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ» ..«وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» ..ويعجبه منكم،ويحبه لكم،ويجزيكم عليه خيرا.

وكل فرد مأخوذ بعمله،محاسب على كسبه ولا يحمل أحد عبء أحد.فلكل حمله وعبؤه:«وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى » ..والمرجع في النهاية إلى اللّه دون سواه ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره:

«ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ..ولا يخفى عليه من أمركم شيء:«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» ..هذه هي العاقبة.وتلك هي دلائل الهدى.وهذا هو مفرق الطريق ..ولكل أن يختار.عن بينة.وعن تدبر.وبعد العلم والتفكير .. [١٩٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٩٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٣٨١٦]

قال تعالى:«حَتَّى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ:رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ،وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ،وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي،إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ،وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» ..

وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين.والأربعون هي غاية النضج والرشد،وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات،ويتهيأ الإنسان للتدبر والتفكر في اكتمال وهدوء.وفي هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة.وتتدبر المصير والمآل.

ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة،وهي في مفرق الطريق،بين شطر من العمر ولى،وشطر يكاد آخره يتبدى.وهي تتوجه إلى اللّه:«رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ» ..دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه،المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله فهي قديمة العهد به،المستقل المستصغر لجهده في شكرها.يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله:«أَوْزِعْنِي» ..لينهض بواجب الشكر فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير.

«وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ» ..وهذه أخرى.فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح،يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه.فرضى ربه هو الغاية التي يتطلع إليها.وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه.

«وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» ..وهذه ثالثة.وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته.وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد اللّه ويطلب رضاه.والذرية الصالحة أمل العبد الصالح.وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر.وأروح لقلبه من كل زينة الحياة.والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة اللّه.

وشفاعته إلى ربه.شفاعته التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء الخالص للّـــه،هي التوبـــة والإسلام:

«إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» ..ذلك شأن العبـــد الصالح،صـــاحب الفطـــرة السليمة المستقيمة مع ربه.فأما شأن ربه معه،فقد أفصح عنه هذا القرآن:«أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا،وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ.وَعْدَ الصِّـــدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ» ..

فالجزاء بحساب أحسن الأعمال.والسيئات مغفورة متجاوز عنها.والمآل إلى الجنة مـــع أصحابها الأصلاء.ذلك وفاء بوعد الصدق الذي وعدوه في الدنيا.ولن يخلف اللّه وعده ..وهو جزاء الفيض والوفر والإنعام. [١٩٥]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٩٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٤٠٥٠]

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ الْوَحْىِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِى النَّوْمِ،فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ،ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ،وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِىَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ،وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ،ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ،فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا،حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِى غَارِ حِرَاءٍ،فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ .قَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » .قَالَ « فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ،ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ اقْرَأْ .قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ .فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ،ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ اقْرَأْ .فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ .فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّالِثَةَ،ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) » .فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَرْجُفُ فُؤَادُهُ،فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضى الله عنها فَقَالَ « زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى » .فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ،فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى » .فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا،إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،وَتَحْمِلُ الْكَلَّ،وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ،وَتَقْرِى الضَّيْفَ،وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ،وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِىَّ،فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ،وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِىَ - فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ .فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِى مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - خَبَرَ مَا رَأَى .فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِى نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى - ﷺ - يَا لَيْتَنِى فِيهَا جَذَعًا،لَيْتَنِى أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ .فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « أَوَمُخْرِجِىَّ هُمْ » .قَالَ نَعَمْ،لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِىَ،وَإِنْ يُدْرِكْنِى يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا .ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّىَ وَفَتَرَ الْوَحْىُ [196]

---

[196] - صحيح البخارى- المكنز [1 /8](3) والمسند الجامع [20 /462](17144)

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَسْأَلُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ الْجُنْدَعِيَّ، عَنْ بُدُوِّ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ عُبَيْدٌ: كَانَ ﷺ يُجَاوِرُ بِحِرَاءٍ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ شَهْرًا، وَيُطْعِمُ مَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَإِذَا قَضَى جِوَارَهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى بَيْتِهِ حَتَّى يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِرَاءٍ، وَكَانَ يَقُولُ: " لَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَلْقِ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ شَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ، كُنْتُ لَا أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا ابْتَدَأَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكَرَامَتِهِ أَتَانِي رَجُلٌ فِي كَفِّهِ نَمَطٌ مِنْ دِيبَاجٍ، فِيهِ كِتَابٌ، وَأَنَا نَائِمٌ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: وَمَا أَقْرَأُ ؟، فَغَطَّنِي حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ، ثُمَّ كَشَطَ عَنِّي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: وَمَا أَقْرَأُ ؟ فَعَادَ لِي مِثْلُ ذَلِكَ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: وَمَا أَقْرَأُ ؟ فَعَاوَدَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا أُمِّيٌّ، وَلَا أَقُولُهَا إِلَّا تَنَحِّيًا مِنْ أَنْ يَعُودَ لِي بِمِثْلِ الَّذِي فَعَلَ بِي، فَقَالَ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } [العلق: ٢] إِلَى قَوْلِهِ { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق: ٥] ثُمَّ انْتَهَى كَمَا كَانَ يَصْنَعُ بِي قَالَ: فَفَزِعْتُ، فَكَأَنَّمَا صَوَّرَ فِي قَلْبِي كِتَابًا، فَقُلْتُ: إِنَّ الْأَبْعَدَ لَشَاعِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَقُلْتُ: لَا تَحَدَّثُ عَنِّي قُرَيْشٌ بِهَذَا لَأَعْمِدَنَّ إِلَى حَالِقٍ مِنَ الْجَبَلِ، فَلَأَطْرَحَنَّ نَفْسِي مِنْهُ فَلَأَقْتُلُهَا، فَخَرَجْتُ وَمَا أُرِيدُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَبَيْنَا أَنَا عَامِدٌ لِذَلِكَ، إِذْ سَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، فَذَهَبْتُ أَرْفَعُ رَأْسِي، فَإِذَا رَجُلٌ صَافٌّ قَدَمَيْهِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، فَوَقَفْتُ لَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَتَقَدَّمَ وَلَا أَتَأَخَّرَ، وَمَا أَصْرِفُ وَجْهِي فِي نَاحِيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ، حَتَّى بَعَثَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إِلَيَّ رُسُلَهَا فِي طَلَبِي، وَرَجَعُوا إِلَيْهَا، فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كَادَ النَّهَارُ يَتَحَوَّلُ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجِئْتُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَجَلَسْتُ إِلَى فَخِذَيْهَا مُضِيفًا، فَقَالَتْ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَنَّى كُنْتَ ؟، وَاللهِ لَقَدْ بَعَثْتُ فِي طَلَبِكَ رُسُلِي، قَالَ ﷺ: قُلْتُ: إِنَّ الْأَبْعَدَ لَشَاعِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَقَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَعَاذَ اللهِ يَا ابْنَ عَمٍّ، مَا كَانَ اللهُ لِيَفْعَلَ بِكَ إِلَّا خَيْرًا، لَعَلَّكَ رَأَيْتَ شَيْئًا أَوْ سَمِعْتَ ؟ فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ

المؤزر: القوى = جذعا: شابا فتيا = يتحنث: يتعبد = الروع: الفزع = زمل: لف وغطى = زملوني: لفوني وغطوني = المعدوم: الشيء المعدوم الذى لا يجدونه أو الفقير الذى صار كالمعدوم = فتر: انقطع = تقرى: تكرم الضيف وتقوم بحق ضيافته = تكسب: تعطى المال للفقير = الكل: أصله الثقل ويدخل فى حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال = الناموس: الوحى

فَقَالَتْ:يَا ابْنَ عَمٍّ،وَالَّذي يُحْلَفُ به،إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ نَبيَّ هَذه الْأُمَّـــة،ثُمَّ جَمَعَـــتْ عَلَيْهَا ثيَابَهَا،ثُمَّ انْطَلَقَتْ إِلَى وَرَقَةَ بْن نَوْفَلٍ،وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ،فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ،وَقَصَّـــتْ عَلَيْه مَا قَصَّ عَلَيْهَا النَّبيُّ ﷺ،فَقَالَ وَرَقَةُ:وَالَّذي نَفْسي بيَده،لَإِنْ كُنْت صَدَقْتني،إِنَّهُ لَنَبيُّ هَذه الْأُمَّة،إِنَّهُ لَيَأْتيه النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ،الَّذي يَأْتي مُوسَى،فَقُولي لَهُ فَلْيَثْبُتْ قَالَ:فَرَجَعَـــتْ رَضيَ اللهُ عَنْهَا إِلَى رَسُول الله ﷺ،فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ فَاسْـــتَكْمَلَ رَسُـــولُ الله ﷺجـــوَارَهُ بحرَاء،ثُمَّ نَزَلَ فَبَدَأَ بالْبَيْت فَطَافَ به فَلَقيَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ فَقَالَ:يَا ابْنَ أَخـــي أَخْبِرْنـــي بالَّذي رَأَيْتَ،فَقَصَّ عَلَيْه خَبَرَهُ،فَقَالَ:وَالَّذي نَفْسي بيَده إِنَّهُ لَيَأْتيكَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ،الَّذي كَانَ يَأْتي مُوسَى،وَإِنَّكَ لَنَبيُّ هَذه الْأُمَّـــة،وَلَتُؤْذَيَنَّ وَلَتُخْرَجَنَّ،وَلَتُقَاتَلَنَّ،وَلَتُنْصَـــرَنَّ،وَلَئنْ أَدْرَكْتُ ذَلكَ لَأَنْصُرَنَّكَ نَصْرًا يَعْلَمُهُ اللهُ منِّي حَقًّا،ثُمَّ دَنَا فَقَبَّلَ شَوَاتَهُ - يَعْنـــي وَسَـــطَ رَأْسه - ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ في ذَلكَ:

ذَكَرْتُ وَكُنْتُ في الذِّكْرَى لَجُوجًا ...لهَمٍّ طَالَ مَا بَعَثَ النَّشيجَا

وَوَصْف منْ خَديجَةَ بَعْدَ وَصْف ...فَقَدْ طَالَ انْتظَاري يَا خَديجَا

وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ أَيْضًا في ذَلكَ:

يَا لَلرِّجَال لصَرْف الدَّهْر وَالْقَدَر ...وَمَا عَسَى قَدْ قَضَاهُ اللهُ منْ غيَر

جَاءَتْ خَديجَةُ تُنْبيني لأُخْبرَهَا ...وَمَا لَنَا بخَميس الْغَيْب منْ خَبَر

فَكَانَ مَا سَأَلَتْ عَنْهُ لأُخْبرَهَا ...أَمْرًا أُرَاهُ سَيَأْتي النَّاسَ في أُخَر

بأَنَّ أَحْمَدَ يَأْتيه فَيُخْبرُهُ ...جبْريلُ أَنَّكَ مَبْعُوثٌ إِلَى الْبَشَر

فَقُلْتُ:كَانَ الَّذي تَرْجينَ يُنْجزُهُ ...لَك الْإِلَهُ فَرَجِّي الْخَيْرَ وَانْتَظري

فَأَرْسليه إِلَيْنَا كَيْ نُسَائلَهُ ...عَنْ أَمْره مَا يَرَى في النَّوْم وَالسَّهَر

فَقَالَ حينَ أَتَاني مَنْطقًا عَجَبًا ...يَقفُّ منْهُ أَعَالي الْجلْد وَالشَّعَر

إِنِّي رَأَيْتُ أَمينَ الله وَاجَهَني ...في صُورَة أُكْملَتْ في أَحْسَن الصُّوَر

ثُمَّ اسْتَمَرَّ فَكَادَ الْخَوْفُ يُذْعرُني ...ممَّا يُسَلِّمُ مَا حَوْلي منَ الشَّجَر

وَللْمَليكِ عَلَيَّ أَنْ دَعَوْتُهُمْ ...قَبْلَ الْجهَاد بلَا منٍّ وَلَا كَدَر

لَيْتَ الْمَليكَ إِلَهَ النَّاسِ أَخَّرَني ...حَتَّى تَعَالَى مَنْ يَدْعُو منَ الْبَدرِ "[197].

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَني عَبْدُ الْمَلك بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ أَبي سُفْيَانَ بْنِ الْعَلَاء بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفيُّ،وَكَانَ وَاعيَةً،عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعلْم " أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺحينَ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَرَامَتَهُ وَابْتدَأَهُ،لَا يَمُرُّ بحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْه وَسَمعَ منْهُ،فَيَلْتَفتُ رَسُولُ اللَّه ﷺخَلْفَهُ وَعَنْ يَمينه وَعَنْ شمَاله وَلَا يَرَى إِلَّا الشَّجَرُ وَمَا حَوْلَهُ منَ الْحجَارَة وَهيَ تُحَيِّيه بتَحيَّة النُّبُوَّة:السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه .وَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺيَخْرُجُ إِلَى حرَاءَ في كُلِّ عَامٍ شَهْرًا منَ السَّنَة يَنْسُكُ فيه،وَكَانَ مَنْ نَسَكَ منْ قُرَيْشٍ في الْجَاهليَّة يُطْعمُ مَنْ جَاءَ منَ الْمَسَاكينِ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ منْ مُجَاوَرَته وَقَضَائه لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ حَتَّى يَطُوفَ بالْكَعْبَة حَتَّى إِذَا كَانَ الشَّهْرُ الَّذي أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى به مَا أَرَادَ منْ كَرَامَته منَ السَّنَة الَّتي بُعثَ فيهَا،وَذَلكَ الشَّهْرُ رَمَضَانُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺكَمَا كَانَ يَخْرُجُ لجوَاره،وَخَرَجَ مَعَهُ بأَهْله حَتَّى إِذَا كَانَت اللَّيْلَةُ الَّتي أَكْرَمَهُ اللَّهُ فيهَا برسَالَته وَرَحمَ الْعبَادَ به جَاءَهُ جبْريلُ عَلَيْه السَّلَامُ بأَمْرِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" فَجَاءَني،وَأَنَا نَائمٌ،فَقَالَ:اقْرَأْ .فَقُلْتُ:مَا أَقْرَأُ ؟ فَغَتَّني حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ،ثُمَّ كَشَفَهُ عَنِّي،فَقَالَ:اقْرَأْ:فَقُلْتُ:وَمَا أَقْرَأُ ؟ فَعَادَ لي بمثْلِ ذَلكَ،ثُمَّ قَالَ:اقْرَأْ .فَقُلْتُ:وَمَا أَقْرَأُ وَمَا أَقُولُهَا إِلَّا تَنَجِّيًا أَنْ يَعُودَ لي بمثْلِ الَّذي صَنَعَ،فَقَالَ:اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ منْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .ثُمَّ انْتَهَى،فَانْصَرَفَ عَنِّي وَهَبَبْتُ منْ نَوْمي فَكَأَنَّمَا صَوَّرَ في قَلْبي كتَابًا،وَلَمْ يَكُنْ في خَلْقِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ منْ شَاعرٍ أَوْ مَجْنُونٍ فَكُنْتُ لَا أُطيقُ أَنْظُرُ إِلَيْهمَا،فَقُلْتُ:إِنَّ الْأَبْعَدَ يَعْني نَفْسَهُ لَشَاعرٌ أَوْ مَجْنُونٌ،ثُمَّ قُلْتُ:لَا تَحَدَّثُ عَنِّي قُرَيْشٌ بهَذَا أَبَدًا،لَأَعْمدَنَّ إِلَى حَالقٍ منَ الْجَبَلِ فَلَأَطْرَحَنَّ نَفْسي منْهُ فَلَأَقْتُلَنَّهَا فَلَأَسْتَريحَنَّ،فَخَرَجْتُ مَا أُريدُ غَيْرَ ذَلكَ فَبَيْنَا أَنَا عَامدٌ لذَلكَ إِذْ سَمعْتُ مُنَاديًا يُنَادي منَ السَّمَاء يَقُولُ:يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّه وَأَنَا جبْريلُ،فَرَفَعْتُ رَأْسي إِلَى السَّمَاء انْظُرُ فَإِذَا جبْريلُ عَلَيْه السَّلَامُ في

[197] - أخبار مكة للفاكهي [٤ /٨٦](٢٤٢٠) حسن

الديباج:هو الثِّيابُ المُتَّخذة من الإبْرِيسَم أي الحرير الرقيق = الغط:العصر الشديد والضم

صُورَة رَجُلٍ صَافٍّ قَدَمَيْه فِي أُفُقِ السَّمَاءِ يَقُولُ:يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّه،وَأَنَا جبْرِيلُ فَرَفَعْتُ أَنْظُرُ إِلَيْه وَشَغَلَنِي عَنْ ذَلكَ وَعَمَّا أُرِيدُ،فَوَقَفْتُ وَمَا أَقْدرُ عَلى أَنْ أَتَقَدَّمَ وَلَا أَتَأَخَّرَ،وَمَا أَصْرِفُ وَجْهِي فِي نَاحيَة منَ السَّمَاءِ إِلَّا رَأَيْتُهُ فيهَا،فَمَا زِلْتُ وَاقفًا مَا أَتَقَدَّمُ وَلَا أَتَأَخَّرُ حَتَّى بَعَثَتْ خَديجَةُ رُسُلَهَا فِي طَلَبِي حَتَّى بَلَغُوا مَكَّةَ،وَرَجعُوا فَلَمْ أَزَلْ كَذَلكَ حَتَّى كَادَ النَّهَارُ يَتحوَّلُ،ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِّي وَانْصَرَفْتُ رَاجعًا إِلَى أَهْلِي حَتَّى أَتَيْتُ خَديجَةَ فَجَلَسْتُ إِلَى فَخذهَا مُضيفًا إِلَيْهَا،فَقَالَتْ:يَا أَبَا الْقَاسمِ أَيْنَ كُنْتَ ؟ فَوَاللَّه لَقَدْ بَعَثْتُ رُسُلِي فِي طَلَبكَ حَتَّى بَلَغُوا مَكَّةَ وَرَجَعُوا،فَقُلْتُ لَهَا:إِنَّ الْأَبْعَدَ لَشَاعِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .فَقَالَتْ:أُعيذُكَ باللَّه تَعَالَى منْ ذَلكَ يَا أَبَا الْقَاسمِ،مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْعَلَ بكَ ذَلكَ مَعَ مَا أَعْلَمُ منْ صدْقِ حَديثكَ،وَعظَمِ أَمَانَتكَ،وَحُسْنِ خُلُقكَ،وَصلَةِ رَحمكَ .وَمَا ذَاكَ يَا ابْنَ عَمٍّ،لَعَلَّكَ رَأَيْتَ شَيْئًا أَوْ سَمعْتَهُ .فَأَخْبَرْتُهَا الْخَبَرَ .فَقَالَتْ:أَبْشرْ يَا ابْنَ عَمٍّ،وَاثْبُتْ لَهُ فَوَالَّذِي يُحْلَفُ به إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ نَبِيَّ هَذه الْأُمَّة .ثُمَّ قَامَتْ فَجَمَعَتْ ثيَابَهَا عَلَيْهَا،ثُمَّ انْطَلَقَتْ إِلَى وَرَقَة بْن نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا،وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَنَصَّرَ وَسَمعَ منَ التَّوْرَاة وَالْإِنْجيلِ،فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ،وَقَصَّتْ عَلَيْه مَا قَصَّ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّه ﷺأَنَّهُ رَأَى وَسَمعَ .فَقَالَ وَرَقَةُ:قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ،وَالَّذِي نَفْسُ وَرَقَةَ بيَده لَئنْ كُنْتِ صَدَقْتِينِي يَا خَديجَةُ،إِنَّهُ لَنَبِيُّ هَذه الْأُمَّة،وَإِنَّهُ لَيَأْتيه النَّامُوس الْأَكْبَرُ الَّذي كَانَ يَأْتِي مُوسَى عَلَيْه السَّلَامُ،فَقُولِي لَهُ فَلْيَثْبُتْ .فَرَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺفَأَخْبَرَتْهُ مَا قَالَ لَهَا وَرَقَةُ فَسَهَّلَ ذَلكَ عَلَيْه بَعْضَ مَا هُوَ فيه منَ الْهَمِّ بمَا جَاءَهُ .فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّه ﷺجوارَهُ صَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ:بَدَأَ بالْكَعْبَة فَطَافَ بهَا،فَلَقيَهُ وَرَقَةُ وَهُوَ يَطُوفُ بالْكَعْبَة فَقَالَ:يَا ابْنَ أَخي أَخْبرْنِي بالَّذِي رَأَيْتَ وَسَمعْتَ،فَقَصَّ عَلَيْه رَسُولُ اللَّه ﷺخَبَرَهُ،فَقَالَ وَرَقَةُ:وَالَّذي نَفْسي بيَده إِنَّهُ لَيَأْتيكَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذي كَانَ يَأْتِي مُوسَى،وَإِنَّكَ لَنَبِيُّ هَذه الْأُمَّة،وَلَتُؤْذَيَنَّ،وَلَتُكَذَّبَنَّ،وَلَتُقَاتَلَنَّ،وَلَتُنْصَرَنَّ،وَلَئنْ أَنَا أَدْرَكْتُ ذَلكَ لَأَنْصُرَنَّكَ نَصْرًا يَعْلَمُهُ اللَّهُ،ثُمَّ أَدْنَى إِلَيْه رَأْسَهُ فَقَبَّلَ يَافُوخَهُ،ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّه ﷺإِلَى مَنْزله،وَقَدْ زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ منْ قَوْلِ وَرَقَةَ ثَبَاتًا،وَخَفَّفَ عَنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ فيه منَ الْهَمِّ "[١٩٨]

---

[١٩٨] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٤٥١) حسن مرسل

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذي طالما قرأناه في كتب السيرة وفي كتب التفسير،ثم مررنا به وتركناه،أو تلبثنا عنده قليلا ثم جاوزناه! إنه حادث ضخم.ضخم جدا.ضخم إلى غير حد.ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته،فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا! إنه حادث ضخم بحقيقته.وضخم بدلالته.وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعا ..وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد – بغير مبالغة – هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن اللّه جل جلاله،العظيم الجبار القهار المتكبر،مالك الملك كله،قد تكرم – في عليائه – فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان،القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض.وكرّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي،ومستودع حكمته،ومهبط كلماته،وممثل قدره الذي يريده – سبحانه – بهذه الخليقة.

وهذه حقيقة كبيرة.كبيرة إلى غير حد.تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان – قدر طاقته – حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية.ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية.ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ويتذوق حلاوة هذا الشعور ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال ..وهو يتصور كلمات اللّه،تتجاوب بها جنبات الوجود كله،متزّلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المتزوي من أركان الوجود الضئيلة! وما دلالة هذا الحادث؟

دلالته – في جانب اللّه سبحانه – أنه ذو الفضل الواسع،والرحمة السابغة،الكريم الودود المنان.يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة،سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة.

ودلالته – في جانب الإنسان – أن اللّه – سبحانه – قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها،ولا يملك أن يشكرها.

وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعا ساجدا ..هذه ..أن يذكره اللّه،ويلتفت إليه،ويصله به،ويختار من جنسه رسولا يوحي إليه بكلماتـه.وأن تصـبح الأرض ..مسكنه ..مهبطا لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشـوع وابتهال.

فأما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى.بدأت في تحويل خط التاريخ،منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني ..منذ أن تحـددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه ..إنهـا ليسـت الأرض وليس الهوى ..إنما هي السماء والوحي الإلهي.

ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هـذه الحقيقـة ..في كنف اللّه ورعايته المباشرة الظاهرة.عاشوا يتطلعون إلى اللّه مباشرة في كل أمرهم.كبيره وصغيره.يحسون ويتحركون تحت عين اللّه.

ويتوقعون أن تمتد يده – سبحانه – فتنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة.تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب ..وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتنزل علـيهم من اللّه وحي يحدثهم بما في نفوسهم،ويفصل في مشكلاتهم،ويقول لهم:خـذوا هـذا ودعوا ذاك! ولقد كانت فترة عجيبة حقا.فترة الثلاثة والعشـرين عامـا التاليـة،التي استمرت فيها هذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملأ الأعلـى.فتـرة لا يتصـور حقيقتها إلا الذين عاشوها.وأحسوها.وشهدوا بدأها ونهايتها.

وذاقوا حلاوة هذا الاتصال.وأحسوا يد اللّه تنقل خطاهم في الطريق.ورأوا مـن أيـن بدأوا وإلى أين انتهوا ..

وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض.مسافة في الضمير لا تعدلها مسافة في الكون الظاهر،ولا يماثلها بعد بين الأجرام والعوالم! المسافة بين التلقـي مـن الأرض والتلقي من السماء.بين الاستمداد من الهوى والاستمداد مـن الـوحي.بـين الجاهلية والإسلام.بين البشرية والربانية،وهي أبعد مما بين الأرض والسـماء في عـالم الأجرام! وكانوا يعرفون مذاقها.ويدركون حلاوتها.ويشعرون بقيمتها،ويحسون وقـع

فقدانها حينما انتقل رسول اللّه - ﷺ- إلى الرفيق الأعلى،وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقا.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَزُورُهَا.فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالاَ لَهَا مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ -ﷺ-.فَقَالَتْ مَا أَبْكِى أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ -ﷺ- وَلَكِنْ أَبْكِى أَنَّ الْوَحْىَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ.فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا.(أخرجه مسلم)[١٩٩] ...

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة،وإلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.لقد ولد الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض،واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى[٢٠٠].

لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط،وكما لم يتحول من بعد أيضا.وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق.وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان،ولا تطمسها الأحداث.وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة،ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعا،مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية.ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض! وتبينت خطوطه ومعالمه.« لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ » ..لا غموض ولا إبهام.إنما هو الضلال عن علم،والانحراف عن عمد،والالتواء عن قصد! إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة.الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد.

والذي كان فرقانا في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل.والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به،وسجله الضمير الإنساني.وبقي أن يتلفت هذا الضمير

---

[١٩٩] - صحيح مسلم- المكتز [١٦ /١٣٢](٦٤٧٢)

[٢٠٠] - يراجع تفسير سورة «عبس وتولى» ص ٣٨٢٢ من هذا الجزء.

اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها.وأن يذكر دائما أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة في الزمان ...

ذلك شأن المقطع الأول من السورة.فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد.فهي تشير إلى مواقف وحوادث في السيرة لم تجىء إلا متأخرة،بعد تكليف الرسول - ﷺ- إبلاغ الدعوة،والجهر بالعبادة،وقيام المشركين بالمعارضة.وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في السورة:«أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى؟» ...إلخ ولكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة،وتسلسلا في ترتيب الحقائق التي تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم.[٢٠١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٠١] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٨٧٤]

قال تعالى .«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً،وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ،إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.فَإِنْ زَلَلْتُمْ،مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ،فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان.بهذا الوصف المحبب إليهم،والذي يميزهم ويفردهم،ويصلهم بالله الذي يدعوهم ..دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم للّه،في ذوات أنفسهم،وفي الصغير والكبير من أمرهم.أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور،ومن نية أو عمل،ومن رغبة أو رهبة،لا تخضع للّه ولا ترضى بحكمه وقضاه.استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية.الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير،في الدنيا والآخرة سواء.

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشي بأنه كانت هنالك نفوس ما تزال يثور فيها بعض التردد في الطاعة المطلقة في السر والعلن.وهو أمر طبيعي أن يوجد في الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية ..وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد اللّه بهم،وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم،في غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت.

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام.عالم كله ثقة واطمئنان،وكله رضى واستقرار.لا حيرة ولا قلق،ولا شرود ولا ضلال.سلام مع النفس والضمير.سلام مع العقل والمنطق.سلام مع الناس والأحياء.سلام مع الوجود كله ومع كل موجود.سلام يرف في حنايا السريرة.وسلام يظلل الحياة والمجتمع.سلام في الأرض وسلام في السماء.وأول ما يفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره للّه ربه،ونصاعة هذا التصور وبساطته ..

إنه إله واحد.يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه فلا تتفرق به السبل،ولا تتعدد به القبل ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك - كما كان في الوثنية والجاهلية - إنما هو إله واحد يتجه إليه في ثقة وفي طمأنينة وفي نصاعة وفي وضوح.

وهو إله قوي قادر عزيز قاهر ..فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة في هذا الوجود.

وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح.و لم يعد يخاف أحدا أو يخاف شيئا،وهو يعبد اللّه القوي القادر العزيز القاهر.و لم يعد يخشى فوت شيء.ولا يطمع في غير من يقدر على الحرمان والعطاء.

وهو إله عادل حكيم،فقوته وقدرته ضمان من الظلم،وضمان من الهوى،وضمان من البخس.وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات.ومن ثم يأوي المسلم من إلهه إلى ركن شديد،ينال فيه العدل والرعاية والأمان.

وهو رب رحيم ودود.منعم وهاب.غافر الذنب وقابل التوب.يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

فالمسلم في كنفه آمن آنس،سالم غانم،مرحوم إذا ضعف،مغفور له متى تاب ..

وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه،وما يطمئن روحه،وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب.وبين الخالق والكون.

وبين الكون والإنسان ..فاللّه خلق هذا الكون بالحق وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة.وهذا الإنسان مخلوق قصدا،وغير متروك سدى،ومهيأ له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده،ومسخر له ما في الأرض جميعا.

وهو كريم على اللّه،وهو خليفته في أرضه.واللّه معينه على هذه الخلافة.والكون من حوله صديق مأنوس،تتجاوب روحه مع روحه،حين يتجه كلاهما إلى اللّه ربه.وهو

مدعو إلى هذا المهرجان الإلهي المقام في السماوات والأرض ليتملاه ويأنس بــه.وهــو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حي في هذا الوجود الكبير،الذي يعج بالأصدقاء المدعوين مثله إلى ذلك المهرجان! والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان! والعقيدة الــتي تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة،وهي توحي إليه أن له أجــرا حــين يرويهــا مــن عطش،وحين يعينها على النماء،وحين يزيل من طريقها العقبات ..هي عقيــدة جميلــة فوق أنها عقيدة كريمة.عقيدة تسكب في روحه السلام وتطلقه يعــانق الوجــود كلــه ويعانق كل موجود ويشيع من حوله الأمن والرفق،والحب والسلام.

والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط ..إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة ..إن الحساب الختامي هناك والعدالــة المطلقــة مضــمونة في هــذا الحساب.فلا ندم على الخير والجهاد في ســبيله إذا لم يتحقــق في الأرض أو لم يلــق جزاءه.ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس،فســوف يوفــاه بميزان اللّه.ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غــير مــا يريد،فالعدل لا بد واقع.وما اللّه يريد ظلما للعباد.

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيــه القــيم وتداس فيه الحرمات.

بلا تحرج ولا حياء.فهناك الآخرة فيها عطاء،وفيها غناء،وفيها عوض عما يفوت.وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة وأن يخلع التجمل علــى حركات المتسابقين وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيــدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنســاني هي العبادة،وأنه مخلوق ليعبد اللّه ..من شأنها – ولا شك – أن ترفعه إلى هــذا الأفــق الوضيء.ترفع شعوره وضميره،وترفع نشاطه وعمله،وتنظف وسائله وأدواته.فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه وهو يريد العبــادة بالخلافــة في الأرض وتحقيق منهج اللّه فيها.فأولى به ألا يغدر ولا يفجر وأولى به ألا يغش ولا يخدع

وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة.وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل،وألا يعتسف الطريق،وألا يركب الصعب من الأمور.فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة ..ومن شأن هذا كله ألا تثور في نفسه المخاوف والمطامع،وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق.

فهو يعبد في كل خطوة وهو يحقق غاية وجوده في كل خطرة،وهو يرتقي صعدا إلى اللّه في كل نشاط وفي كل مجال.

وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر اللّه،في طاعة اللّه،لتحقيق إرادة اللّه ..وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق وبلا قنوط من عون اللّه ومدده وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء ..ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء اللّه وأعداءه.فهو إنما يقاتل للّه،وفي سبيل اللّه،ولإعلاء كلمة اللّه ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة.

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة اللّه مع هذا الكون كله.قانونه قانونه،ووجهته وجهته.فلا صدام ولا خصام،ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة.وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته،وتهتدي بالنور الذي يهتدي به،وتتجه إلى اللّه وهو معها يتجه إلى اللّه.

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة.لا تتجاوز الطاقة ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثماني والروحي لا تلبيها في يسر وفي سماحة وفي رخاء ..ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه.يحمل منها ما يطيق حمله،ويمضي في الطريق إلى اللّه في طمأنينة وروح وسلام.

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني،في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة،والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال ..كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام.

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق.هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره.ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب،تختلف درجة صفائه،ولكنه يظل في جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر،وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية!

هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة - آصرة العقيدة - حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان،واللغات والألوان،وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان ..

هذا المجتمع الذي يسمع الله يقول له:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (١٠) سورة الحجرات ..والذي يرى صورته في قول رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى ».[٢٠٢] ..

هذا المجتمع الذي من آدابه:{وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} (٨٦) سورة النساء..{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (١٨) سورة لقمان..{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (٣٤) سورة فصلت..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (١١) سورة الحجرات..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات ..

هذا المجتمع الذي من ضماناته:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (٦) سورة الحجرات ..{يَا أَيُّهَا

[٢٠٢] - صحيح مسلم- المكتر - (٦٧٥١)

الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (٢٧) سورة النور ..وقول رَسُول اللَّه -ﷺ- « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ.التَّقْوَى هَا هُنَا ».وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ ».[٢٠٣] ..

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ولا يتبجح فيه الإغراء،ولا تروج فيه الفتنة،ولا ينتشر فيه التبرج،ولا تتلفت فيه الأعين على العورات،ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات،ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا ..هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة،والذي يسمع الله - سبحانه - يقول:{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (١٩) سورة النور ..{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (٢) سورة النور..{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٤) سورة النور

..{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (٣٠) سورة النور..{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ

---

[٢٠٣] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٧٠٦)

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٣١) سورة النور

والذي يخاطب فيه نساء النبي – أطهر نساء الأرض في أطهر بيت في أطهر بيئة في أطهر زمان {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)} سورة الأحزاب..

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها،ويأمن الزوج على زوجته،ويأمن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم،ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم.حيث لا تقع العيون على المفاتن،ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم.فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب ..بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن،ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان!

وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقا،ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم،ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة صالحة،والذي يعتبر أهل كل حي مسؤولين مسؤولية جنائية لومات فيهم جائع حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية.

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع،بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع.فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة،ولا يتسور على أحد بيته،ولا يتجسس على أحد فيه متجسس،ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة.

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون.كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة اللّه لا بإرادة حاكم،ولا هوى حاشية،ولا قرابة كبير.

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية،الذي لا يخضع البشر فيه للبشر.إنما يخضعون حاكمين ومحكومين للّه ولشريعته وينفذون حاكمين ومحكومين حكم اللّه وشريعته.فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام اللّه رب العالمين وأحكم الحاكمين،في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين ..

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة.ليسلموا أنفسهم كلها للّه فلا يعود لهم منها شيء،ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ إنما تعود كلها للّه في طواعية وفي انقياد وفي تسليم ..

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان،في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام،أو التي عرفته ثم تنكرت له،وارتدت إلى الجاهلية،تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان ..هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري،وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين.

وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله وهو «السويد».حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام.وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجاني في المستشفيات.وحيث التعليم في جميع مراحله بالمجان،مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت ..وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب ..

ولكن ماذا؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلو القلوب من الإيمان باللّه؟

إنه شعب مهدد بالانقراض،فالنسل في تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة.والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب ..ثم الانتحار ..والحال كهذا في أمريكا ..والحال أشنع من هذا في روسيا ..

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة.فلا يذوق طعم السلم الذي يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة،ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ..وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ.إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» ..

ولما دعا اللّه الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ...حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان.فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان.إما الدخول في السلم كافة،وإما اتباع خطوات الشيطان.إما هدى وإما ضلال.إما إسلام وإما جاهلية.إما طريق اللّه وإما طريق الشيطان.وإما هدى اللّه وإما غواية الشيطان ..وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه،فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها،أو يخلط واحدا منها بواحد ..كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته،ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة اللّه وشريعته،ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر ..إن هذا في سبيل الشيطان،سائر على خطوات الشيطان ..

ليس هنالك حل وسط،ولا منهج بين بين،ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل.هدى وضلال.إسلام وجاهلية.منهج اللّه أو غواية الشيطان.واللّه يدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان.ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم،ويستثير مخاوفهم بتذكير هم بعداوة الشيطان لهم،تلك العداوة الواضحة البينة،التي لا ينساها إلا غافل.والغفلة لا تكون مع

الإيمان.ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان:«فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..وتذكيرهم بأن اللّه «عَزِيزٌ» يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة،وأنهم يتعرضون لقوة اللّه حين يخالفون عن توجيهه ..وتذكير هم بأنه «حَكِيمٌ» ..فيه إيحاء بأن ما اختاره لهم هو الخير،وما نهاهم هو الشر،وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه ..فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير في المقام [٢٠٤]..

وقال تعالى:«وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..

ونعمة اللّه المشار إليها هنا هي نعمة السلم.أو نعمة الإيمان.فهما مترادفان.والتحذير من تبديلها يجد مصداقه أولا في حال بني إسرائيل،وحرمانهم من السلم والطمأنينة والاستقرار،منذ أن بدلوا نعمة اللّه،وأبوا الطاعة الراضية،والاستسلام لتوجيه اللّه.وكانوا دائما في موقف الشاك المتردد،الذي يظل يطلب الدليل من الخارقة في كل خطوة وكل حركة ثم لا يؤمن بالمعجزة،ولا يطمئن لنور اللّه وهداه،والتهديد بشدة عقاب اللّه يجد مصداقه أولا في حال بني إسرائيل،ويجد مصداقه أخيرا فيما ينتظر المبدلين للنعمة المتبطرين عليها في كل زمان.

وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة.وها هي ذي البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض كلها تعاني العقاب الشديد وتجد الشقوة النكدة وتعاني القلق والحيرة ويأكل بعضها بعضا ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه،ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة،وبالخواء القاتل الذي يحاول المتحضرون أن يملأوه تارة بالمسكرات والمخدرات،وتارة بالحركات الحائرة التي يخيل إليك معها أنهم هاربون تطاردهم الأشباح! ونظرة إلى صورهم في الأوضاع العجيبة المتكلفة التي يظهرون بها:من مائلة برأسها،إلى كاشفة عن صدرها،إلى رافعة ذيلها،إلى مبتدعة قبعة غريبة على هيئة حيوان! إلى واضع رباط عنق رسم عليه تيتل أو فيل! إلى لابس قميص تربعت عليه صورة أسد أو دب! ونظرة إلى رقصاتهم المجنونة،وأغانيهم

---

[٢٠٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٣٧]

المحمومة،وأوضاعهم المتكلفة وأزيائهم الصارخة في بعض الحفلات والمناسبات ومحاولة لفت النظر بالشذوذ الصارخ،أو ترضية المزاج بالتميز الفاضح ..

ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصداقات والأزياء بين فصل وفصل،لا بل بين الصباح والمساء! كل أولئك يكشف عن الحيرة القاتلة التي لا طمأنينة فيها ولا سلام.ويكشف عن حالة الملل الجاثم التي يفرون منها،وعن حالة «الهروب» من أنفسهم الخاوية وأرواحهم الموحشة،كالذي تطارده الجنة والأشباح.وإن هو إلا عقاب اللّه،لمن يحيد عن منهجه،ولا يستمع لدعوته:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» ..وإن الإيمان الواثق لنعمة اللّه على عباده،لا يبدلها مبدل حتى يحيق به ذلك العقاب ..والعياذ باللّه [٢٠٥]..

وقال تعالى:«قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ.يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ.وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ،وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب ..القرآن ..وعلى طبيعة هذا المنهج ..الإسلام ..من أنه «نور» ..إنها حقيقة يجدها المؤمن في قلبه وفي كيانه وفي حياته وفي رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص ..يجدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان في قلبه ..«نور» نور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف.ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم.

ثقلة الطين في كيانه،وظلمة التراب،وكثافة اللحم والدم،وعرامة الشهوة والنزوة ..كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى ..تخف الثقلة،وتشرق الظلمة،وترق الكثافة،وترف العرامة ..

واللبس والغبش في الرؤية،والتأرجح والتردد في الخطوة،والحيرة والشرود في الاتجاه والطريق البهيم الذي لا معالم فيه ..كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى ..يتضح الهدف ويستقيم الطريق إليه وتستقيم النفس على الطريق ..«نُورٌ.وَكِتابٌ مُبِينٌ» ..وصفان للشيء الواحد ..لهذا الذي جاء به الرسول الكريم ..«يَهْدِي بِهِ اللَّهُ - مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ

---

[٢٠٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٤٥]

- سُبُلَ السَّلامِ.وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ،وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».لقد رضي اللّه الإسلام دينا ..وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه اللّه له ..يهديه ..«سبل السلام» ..وما أدق هذا التعبير وأصدقه إنه «السلام» هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها ..سلام الفرد.وسلام الجماعة.وسلام العالم ..سلام الضمير،وسلام العقل،وسلام الجوارح ..سلام البيت والأسرة،وسلام المجتمع والأمة،وسلام البشر والإنسانية ..السلام مع الحياة.والسلام مع الكون.والسلام مع اللّه رب الكون والحياة ..السلام الذي لا تجده البشرية - ولم تجده يوما - إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته،ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته.

حقا إن اللّه يهدي بهذا الدين الذي رضيه،من يتبع رضوان اللّه،«سبل السلام» ..سبل السلام كلها في هذه الجوانب جميعها ..ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب في الجاهليات القديمة أو الحديثة ..ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية في أعماق الضمير.وحرب القلق الناشئ من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها في أوضاع الحياة.

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا السلام.إذ كانوا يذوقونه مذاقا شخصيا ويلتذون هذا المذاق المريح ..

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيق البشرية الويلات ..من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قرونا بعد قرون! ما أحوجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام فترة من تاريخنا ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا،وتحطم أخلاقنا وسلوكنا،وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا ..بينما نملك الدخول في السلم التي منحها اللّه لنا حين نتبع رضوانه ونرضى لأنفسنا ما رضيه اللّه لنا! إننا نعاني من ويلات الجاهلية والإسلام منا قريب.ونعاني من حرب الجاهلية وسلام الإسلام في متناول أيدينا لو نشاء ..فأية صفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام؟

إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة في شتى الصور والألوان.ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية،قبل أن ننقذ نحن أنفسنا،وقبل أن نفيء إلى ظلال السلام،حين نفيء إلى رضوان اللّه ونتبع ما ارتضاه.فنكون من هؤلاء الذين يقول اللّه عنهم إنه يهديهم سبل السلام[٢٠٦].

«وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ» ..والجاهلية كلها ظلمات ..ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات.وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات في التيه.وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس.وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين.والنور هو النور ..هو ذلك النور الذي تحدثنا عنه آنفا في الضمير وفي العقل وفي الكيان وفي الحياة وفي الأمور.

«وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التي تحكمها.مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التي تصرفه.مستقيم إلى اللّه لا يلتوي ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات ..

إن اللّه الذي خلق الإنسان وفطرته وخلق الكون ونواميسه هو الذي وضع للإنسان هذا المنهج وهو الذي رضي للمؤمنين هذا الدين.فطبيعي وبديهي أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم.حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين! وصدق اللّه العظيم.الغني عن العالمين.الذي لا يناله من هداهم أو ضلالهم شيء ولكنه بهم رحيم![٢٠٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

---

[٢٠٦] - يراجع بتوسع في معنى السلام الذي يهدي إليه اللّه من اتبع رضوانه ..كتاب:«السلام العالمي والإسلام» وكتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة» وفي الظلال تفسير قوله تعالى:«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» ص ٢٠٦ - ص ٢١٢ من الجزء الثاني.

[٢٠٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٢٤٠]

التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة في المتاع المتاح في هـذه الأرض للكفـار والعصـاة والمعادين لمنهج اللّه ..التفاتة لإعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة،حتى لا يكون فتنة لأصحابه،ثم كي لا يكون فتنة للمؤمنين،الذي يعانون ما يعـانون،من أذى وإخراج من الديار،وقتل وقتال:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ.مَتاعٌ قَلِيـلٌ ..ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ.لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ» ..

وتقلب الذين كفروا في البلاد،مظهر من مظاهر النعمة والوجدان،ومن مظاهر المكانـة والسلطان،وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة.يحيك منه شـيء في قلـوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان،ويعانون الأذى والجهـد،ويعانون المطـاردة أو الجهاد ..وكلها مشقات وأهوال،بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون! ..ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة،وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء،والباطـل وأهله في منجاة،بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المـبطلين أنفسـهم فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد.

هنا تأتي هذه اللمسة:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ.مَتاعٌ قَلِيلٌ.ثُمَّ مَـأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ».متاع قليل ..ينتهي ويذهب ..أما المأوى الدائم الخالد،فهو جهنم ..وبئس المهاد!

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات.وخلود.وتكريم من اللّه:«جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» ..«خالِدِينَ فِيها» ..«نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» ..«وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ» ..

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة،وهذا النصيب في كفة،أن ما عند اللّه خـير للأبرار.وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان.وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألبـاب!

إن اللّه – سبحانه – في موضع التربية،وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر،ولا يعدهم بقهر الأعداء،ولا يعدهم بالتمكين في الأرض،ولا يعدهم شيئا من الأشياء في هذه الحياة ..مما يعدهم به في مواضع أخرى،ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه.

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا.هو «ما عِنْدَ اللَّهِ».فهذا هو الأصل في هذه الدعوة.وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية،ومن كل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة اللّه وقهر أعداء اللّه – حتى هذه الرغبة يريد اللّه أن يتجرد منها المؤمنون،ويكلوا أمرها إليه،وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء ..فقط.وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض،وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء ..ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر،ويقع التمكين،ويقع الاستعلاء ..ولكن هذا ليس داخلا في البيعة.ليس جزءا من الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا.وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء ..والابتلاء ..

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء.ولم يمنح اللّه المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية،إلا حين تجردوا هذا التجرد،ووفوا هذا الوفاء:

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ،فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ،فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ،وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُكَ .ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ،إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ،وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ،فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ ."[٢٠٨]

هكذا ..«الجنة» ..والجنة فقط! لم يقل:النصر والعز والوحدة.والقوة.والتمكين.والقيادة.والمال.

والرخاء – مما منحهم اللّه وأجراه على أيديهم – فذلك كله خارج عن الصفقة!

وهكذا ..ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل ..لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أنهي أمرها،وأمضي عقدها.

ولم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربى اللّه الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض،وزمام القيادة،وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها،وكل رغباتها،وكل شهواتها،حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها،والمنهج الذي تحققه،والعقيدة التي تموت من أجلها.فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه،أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة[٢٠٩].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٠٨] – أخبار مكة للفاكهي – (٤ / ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

[٢٠٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٨٦٤]

مفرق الطريق بين كمال الإسلام ونقصان غيره

قال تعالى ..«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

اليوم ..الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع ..أكمل اللّه هذا الدين.فما عادت فيه زيادة لمستزيد.وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل.ورضي لهم «الإسلام» دينا فمن لا يرتضيه منهجا لحياته – إذن – فإنما يرفض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة،وتوجيهات عميقة،ومقتضيات وتكاليف ..

إن المؤمن يقف أولا:أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان،وموكب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى هذه الرسالة الأخيرة.رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين ..فماذا يرى؟ ..يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل.موكب الهدى والنور.ويرى معالم الطريق،على طول الطريق.ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنما أرسل لقومه.ويرى كل رسالة – قبل الرسالة الأخيرة – إنما جاءت لمرحلة من الزمان ..رسالة خاصة،لمجموعة خاصة،في بيئة خاصة ..ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف ..كلها تدعو إلى إله واحد – فهذا هو التوحيد – وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الدين – وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الإسلام – ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

حتى إذا أراد اللّه أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خاص،في ظروف خاصة ..رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب

فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» ..وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان ..وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار ..وقال اللّه - سبحانه - للذين آمنوا:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا ..فهذا هو الدين ..ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين - بمعناه هذا - نقصا يستدعي الإكمال.ولا قصورا يستدعي الإضافة.ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير ..وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق اللّه وما هو بمرتض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها - بشهادة اللّه - شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكان من الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج من اطار الإيمان! واللّه الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من اللّه بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا:أمام إتمام نعمة اللّه على المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتماله.«فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له.وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين.وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة اللّه وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع اللّه وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد «الإنسان» ..إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكون «حيوانا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن ..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان![210]

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية،لهو الذي يحقق «للإنسان» «إنسانيته» كاملة ..يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي،في اللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات،إلى دائرة «التصور» الإنساني،الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات.عالم الشهادة وعالم الغيب ..عالم المادة وعالم ما وراء المادة ..وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود![211]

ويحققها له وهو يخرجه بتوحيد اللّه،من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده،والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه.فإلى اللّه وحده يتجه بالعبادة،ومن اللّه وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام،وعلى اللّه وحده يتوكل ومنه وحده يخاف[212]

---

[210] - تراجع المقدمة ص ١١ - ص ١٨ وكتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

[211] - يراجع تفسير سورة الفاتحة ص ٢١ - ص ٢٣ وتفسير مطلع سورة البقرة:ص ٣٩ - ص ٤٠ الجزء الأول من الظلال.

[212] - راجع كتاب «هذا الدين» ص ١٥ - ص ٢٠.«دار الشروق».

..ويحققها له،بالمنهج الرباني،حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه،ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء،والاستعلاء على نوازع الحيوان،ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام![213]

ولا يدرك حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين،ولا يقدرها قدرها،من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها - والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه اللّه - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها ..ويلاتها في التصور والاعتقاد،وويلاتها في واقع الحياة ..هو الذي يحس ويشعر،ويرى ويعلم،ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى،وويلات الحيرة والتمزق،وويلات الضياع والخواء،في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان ..هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.[214]

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى،وويلات التخبط والاضطراب،وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.[215]

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة،يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه الكلمات.لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم،في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن ..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية ..ذاقوا تصوراتها الاعتقادية .وذاقوا أوضاعها الاجتماعية.وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية.وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة اللّه عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل اللّه عليهم ومنته بالإسلام.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وسار بهم في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة - كما فصلنا ذلك في مستهل سورة النساء [216] - فإذا هم على القمة ينظرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

---

[213] - راجع تفسير قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» الجزء الثاني من الظلال:ص ٢٠٦ - ص ٢١١.

[214] - يراجع فصل:«تيه وركام» في كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

[215] - يراجع فصل:«تخبط واضطراب» في كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة».«دار الشروق».

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد.إلى أفق الإيمان بإله واحد،قادر قاهر،رحيم ودود،سميع بصير،عليم خبير.عادل كامل.قريب مجيب.لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد،والكل له عبيد ..ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن سلطان الرياسة،يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة ..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعي ة.من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال.وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحا مبالغا في القدح حين استضعف مهجوه،لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيا حين سام بني أسد أن يستعبدهم بالعصا،وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة «وكان عمر بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل:إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه الصيد،فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه.وقيل:«لا حر بوادي

---

[٢١٦] – يراجع مقدمة الحديث عن سورة النساء في الجزء الرابع من الظلال من هذه الطبعة ص ٥٥٤ – ص ٥٧١

عوف» لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره.فكلهم أحــرار في حكم العبيد ..» [٢١٧]

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية ..كان قد التقطهم من سفح البنــت المــوءودة،والمرأة المنكــودة،والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضــوية،والتبرج والاخــتلاط مــع احتقــار المــرأة ومهانتها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي،كالذي حدث في عام الفيــل مــن هجــوم الأحبــاش علــى الكعبة،وتخاذل وخذلان القبائل كلها،هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا! [٢١٨]

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة علــى البشــرية كلــها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة.في جيل واحــد.عــرف الســفح وعــرف القمة.عرف الجاهلية وعرف الإسلام.ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول اللّــه لهم:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء اللّه الإسلام دينا للذين آمنوا ..يقف أمام رعاية اللّــه – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه ..وهو تعبير يشي بحب اللّه لهذه الأمة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكافىء هــذه الرعايــة الجليلة ..أستغفر اللّه ..فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه ..وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم ..وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجــاوز عــن التقصــير والقصور فيه.

إن ارتضاء اللّه الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتــداء أن تــدرك قيمــة هــذا الاختيار.ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتــدار

---

[٢١٧] – من كتاب:«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ العقاد ص ١٥٠ ص ١٥١

[٢١٨] – يراجع تفسير سورة الفيل في الجزء الثلاثين من الظلال وكذلك الجزء الرابع من ص ٥٠١ – ص ٥١٣.

..وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل - بله أن يرفض - ما رضيه اللّه له،ليختار لنفسه غير ما اختاره اللّه! ..وإنها - إذن - لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له اللّه ..ولقد يترك اللّه الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين ..فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه ..واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم اللّه ..فلن يتركهم اللّه أبدا ولن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون! [٢١٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢١٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٢١٧]

مفرق الطريق بين الصدع بالحق وبين السكوت على الباطل

إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة والجهر بكل مقوّماتها وكـل مقتضـياتها.ضـرورة في الحركة بهذه الدعوة فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة الغافية ويوقظ المشـاعر المتبلدة ويقيم الحجة على الناس «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» أما التدسس الناعم بهذه العقيدة وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا،لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصـحيحة بهذه العقيدة القوية.والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعني الغلظة المنفرة،والخشونة وقلـة الذوق والجلافة! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني التدسس الناعم،وكتمان جانب مـن حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب،وجعل القرآن عضين ..لا هذه و لا تلك ..إنما هـو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة في وضوح جلي،وفي حكمة كذلك في الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير.

« وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السـائدة في الأرض،ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان ..لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل ..فالجاهلية هي الجاهلية،والإسلام هو الإسلام ..الجاهلية هي الانحراف عن العبودية للّه وحده،وعن المنهج الإلهي في الحياة،واسـتنباط الـنظم والشرائع والقوانين،والعادات والتقاليد والقيم والموازين،من مصدر آخر غـير المصـدر الإلهي ..والإسلام هو الإسلام،ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام»[٢٢٠].

وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هي التي يجـب أن يصـدع بهـا أصـحاب الـدعوة الإسلامية،ولا يخفوا منها شيئا وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتململ الجماهير:«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ.فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُـنْ مِـنَ السَّاجِدِينَ.وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»[٢٢١]

---

[٢٢٠] - راجع بتوسع فصل:«نقلة بعيدة» في كتاب:«معالم في الطريق». «دار الشروق».

[٢٢١] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٨٠٣]

وقال تعالى:{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} (١٦٣) سورة الأعراف

فأما كيف وقع لهم هذا،وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة،وتداورهم هذه المداورة ..

فهي الخارقة التي تقع بإذن اللّه عند ما يشاء اللّه .. والذين لا يعلمون ينكرون أن تجري مشيئة اللّه بغير ما يسمونه هم «قوانين الطبيعة»! والأمر في التصور الإسلامي – وفي الواقع – ليس على هذا النحو .. إن اللّه سبحانه هو الذي خلق هذا الكون،وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة. ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجري إلا بها .. لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة .. وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون .. وإذا كانت حكمة اللّه ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين .. فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفا لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر .. ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجري فيها إنما يقع بقدر من اللّه خاص بهذه المرة. فهي لا تجري جريانا آليا لا تدخل لقدر اللّه فيه .. وهذا مع ثباتها في طريقها ما لم يشأ اللّه أن تجري بغير ذلك .. وعلى أساس أن كل ما يقع – سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها – إنما يقع بقدر من اللّه خاص،فإنه تستوي الخارقة والقانون الثابت في جريانه بهذا القدر ..ولا آلية في نظام الكون في مرة واحدة – كما يظن الذين لا يعلمون! – ولقد بدأوا يدركون هذا في ربع القرن الأخير[٢٢٢]!

على أية حال،لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل .. فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء،فتتهاوى عزائمهم،وينسون عهدهم مع

---

[٢٢٢] – يراجع ما جاء في الجزء السابع من هذه الطبعة المنقحة في هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى:«وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ» ص ١١١٣ – ١١٢١

ربهم وميثاقهم،فيحتالون الحيل – على طريقة اليهود – للصيد في يوم السبت! وما أكثر الحيل عند ما يلتوي القلب،وتقل التقوى،ويصبح التعامل مع مجـــرد النصـــوص،ويراد التفلت من ظاهر النصوص! ..

إن القانون لا تحرسه نصوصه،ولا يحميه حراسه. إنما تحرسه القلوب التقية التي تســتقر تقوى اللّه فيها وخشيته،فتحرس هي القانون وتحميه. وما من قانون تمكــن حمايتــه أن يحتال الناس عليه! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولــن تســتطيع الدولة – كائنا ما كان الإرهاب فيها – أن تضع على رأس كل فرد حارسا يلاحقــه لتنفيذ القانون وصيانته ما لم تكن خشية اللّه في قلوب الناس،ومراقبتهم لــه في الســر والعلن ..

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراســة القلــوب التقيــة. وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من اللّه .. ومــن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها. وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها! وهكذا راح فريق من سكان القريــة التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت،الذي حرم عليهم الصيد فيــه .. وروي أنهم كانوا يقيمون الحواجيز على السمك ويحوّطون عليه في يوم السبت حتى إذا جــاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه وقالوا:إنهم لم يصطادوه في السبت،فقد كــان في المــاء – وراء الحواجيز – غير مصيد! وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال علــى اللّه! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيــال! بينمــا مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر:ما فائدة ما تزاولونه مــع هؤلاء العصاة،وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه؟ وقد كتب اللّه علــيهم الهــلاك والعذاب؟

«وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ:لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً؟». فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم،ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم. بعد ما كتب اللّه عليهم الهلاك أو العذاب الشديد بما اقترفوه من انتهاك لحرمــات اللّــه.«قــالُوا:مَعْــذِرَةً إِلى

رَبِّكُمْ،وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» ..فهو واجب للّه نؤديه:واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والتخويف من انتهاك الحرمات،لنبلغ إلى اللّه عذرنا،ويعلم أن قد أدينا واجبنا. ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى.

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق .. أو ثلاث أمم .. فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة،وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث،مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام،إنما هي من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة![٢٢٣]

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم:أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدع المنكر وأهله،وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي .. وهي طرائق متعددة من التصور والحركة،تجعل الفرق الثلاث أمما ثلاثا! فلما لم يجد النصح،ولم تنفع العظة،وسدر السادرون في غيهم،حقت كلمة اللّه،وتحققت نذره.

فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء. وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذي سيأتي بيانه. فأما الفرقة الثالثة - أو الأمة الثالثة - فقد سكت النص عنها .. ربما تهوينا لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي،ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب:«فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ،وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ:كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ»

---

[٢٢٣] - ترد كلمة «أمة» بمعنى الجماعة من الناس إطلاقا كقوله تعالى:«وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ»،وترد بمعنى القيادة والإمامة كقوله تعالى:«إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً»،وهي هنا تتضمن معنى أنه كان فريقا وحده ..وإن كان هذا لا يؤثر في المدلول الاصطلاحي الإسلامي للفظ أمة وهو الجماعة من الناس ذات العقيدة الواحدة والتصور الواحد.

لقد كان العذاب البئيس – أي الشديد – الذي حل بالعصاة المحتالين،جزاء إمعانهم في المعصية – التي يعتبرها النص هي الكفر،الذي يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق وهو تعبير يختلف عن المصطلح الفقهي المتأخر عن هذه الألفاظ إذ أن مدلولها القرآني ليس هو المدلول الذي جعل يشيع في التعبير الفقهي المتأخر – كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية! لقد تنازلوا هم عن آدميتهم،حين تنازلوا عن أخص خصائصها – وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة – وانتكسوا إلى عالم «الحيوان» حين تخلوا عن خصائص «الإنسان». فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان! أما كيف صاروا قردة؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه؟ أم تناسلوا وهم قردة؟ ... إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير ... فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم وليس وراءه عن رسول اللّه – ﷺ– شيء .. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه.

لقد جرت كلمة اللّه التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء كما يجري بها التحوير والتغيير .. كلمة «كن». «قُلْنا لَهُمْ:كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» ..فكانوا قردة مهينين. كما جرى القول الذي لا راد له ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه! [٢٢٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٢٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٨٤٥]

قال تعالى:«فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ،الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ،الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ» إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاقم ساهون ..فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاقم ساهون! إنهم «الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ».

إنهم أولئك الذين يصلون،ولكنهم لا يقيمون الصلاة.الذين يؤدون حركات الصلاة،وينطقون بأدعيتها،ولكن قلوبهم لا تعيش معها،ولا تعيش بها،وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات.إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا للّه.ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها.ساهون عنها لم يقيموها.والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها.وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام للّه وحده بها.ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون.فهم يمنعون الماعون.يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية.يمنعون الماعون عن عباد اللّه.ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا للّه ما منعوا العون عن عباده،فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند اللّه ..

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة،وأمام طبيعة هذا الدين.ونجد نصا قرآنيا ينذر مصلين بالويل.لأنهم لم يقيموا الصلاة حقا.إنما أدوا حركات لا روح فيها.ولم يتجردوا للّه فيها.إنما أدوها رياء.ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء.بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء! وننظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة ما يريده اللّه من العباد،حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه ...

إنه لا يريد منهم شيئا لذاته سبحانه - فهو الغني - إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم.يريد الخير لهم.يريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم.يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف،والتكافل الجميل،والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك.

فأين تذهب البشرية بعيدا عن هذا الخير؟ وهذه الرحمة؟ وهذا المرتقى الجميـــل الرفيـــع الكريم؟ أين تذهب لتخبط في متاهات الجاهلية المظلمة النكدة وأمامها هـــذا النـــور في مفرق الطريق؟

وَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ مَسْـعُودٍ قَـالَ:{ كُنَّـا أَصْـحَابَ مُحَمَّـدٍ ﷺ،نَتَحَـدَّثُ أَنَّ الْمَاعُونَ:الدَّلْوُ،وَالْقِدْرُ،وَالْفَأْسُ لا يُسْتَغْنَى عَنْهُ"} [٢٢٥].

وَفِى الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ – ﷺ – قَـالَ « الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ،وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ،وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ،فَأَمَّا الَّذِى لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِـى سَبِيلِ اللَّهِ،فَأَطَالَ بِهَا فِى مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ،فَمَا أَصَابَتْ فِى طِيَلِهَا ذَلِكَ مِـنَ الْمَـرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ،وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ،وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِىَ كَـانَ ذَلِـكَ حَسَنَاتٍ لَهُ،فَهِىَ لِذَلِكَ أَجْرٌ،وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِى رِقَابِهَـا وَلاَ ظُهُورِهَا،فَهِىَ لِذَلِكَ سِتْرٌ،وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لأَهْلِ الإِسْلاَمِ،فَهِىَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ » [٢٢٦].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

---

[٢٢٥] – تفسير مجاهد برقم(٢٠٩٢) والمعجم الكبير للطبراني – (ج ٨ / ص ١٣٠) برقم(٨٩١٧) وهو صحيح

[٢٢٦] – صحيح البخارى برقم(٢٣٧١) ومسلم برقم(٢٣٣٧) = استنت:جرت وعدت =الطيل:حبل يشد به قائمة الدابة = المرج:الأرض الواسعة ذات نبات كثير تخلى فيه الدواب تسرح مختلطة كيف شاءت =النواء:العداوة وانظر في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٩٤١]

قال تعالى:« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ.يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ - وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ - وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً» ..

ألم تر إلى هذا العجب العاجب ..قوم ..يزعمون ..الإيمان.ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟! قوم «يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر،وإلى منهج آخر،وإلى حكم آخر ..يريدون أن يتحاكموا إلى ..الطاغوت ..الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.ولا ضابط له ولا ميزان،مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ..ومن ثم فهو ..طاغوت ..طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية.وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا!

وهم لا يفعلون هذا عن جهل،ولا عن ظن ..إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما،أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه:«وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» ..فليس في الأمر جهالة ولا ظن.بل هو العمد والقصد.

ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم.زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب ..

«وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً» ..فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت.وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم.لعلهم يتنبهون فيرجعوا.ويكشفه للجماعة المسلمة،لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك.

ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل اللّه إلى الرسول وما أنزل من قبله ..ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به:« وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى

الرَّسُولِ،رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».يا سبحان اللّه! إن النفاق يـــأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري ..وإلا ما كان نفاقا ...

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان،أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به،وإلى من آمـــن به.فإذا زعم أنه آمن باللّه وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه.ثم دعي إلى هذا الذي آمن به،ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية.فأمـــا حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية.ويكشف عن النفاق.وينبىء عن كـــذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم اللّـــه - ســـبحانه - أولئك الذين يزعمون الإيمان باللّه ورسوله.ثم لا يتحاكمون إلى منهج اللّه ورسوله.بـــل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا! ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفـــاق في سلوكهم حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل اللّه وإلى الرسول أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت.ومعاذيرهم عند ذلك.وهـــي معاذير النفاق:«فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ - ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُـــونَ بِاللَّهِ:إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة - يومـــذاك - حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المســـلم.فمـــا يطيـــق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا باللّه وما أنزل،وبالرسول ومـــا أنزل إليه ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة اللّه أو يصدون حين يدعون إلى التحـــاكم إليها ..إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان.وكل ما له من الإيمان زعـــم كزعم هؤلاء وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء! أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم نتيجة التحاكم إلى غير نظام اللّه العادل ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضية من قضاياهم.أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من اللّـــه لهـــم.لعلـــهم يتفكرون ويهتدون ..

وأياما كان سبب المصيبة فالنص القرآني،يسأل مستنكرا:فكيف يكون الحال حينئـــذ! كيف يعودون إلى الرسول - ﷺ -:«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ...

إنها حال مخزية ..حين يعودون شاعرين بما فعلوا ...غير قادرين على مواجهة الرسول – ﷺ- بحقيقة دوافعهم.وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين:أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت – وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية – إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج اللّه وشريعته:أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب،التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة اللّه! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة ..إنها حجة الذين يزعمون الإيمان – وهم غير مؤمنين – وحجة المنافقين الملتوين ..هي هي دائما وفي كل حين! واللّه – سبحانه – يكشف عنهم هذا الرداء المستعار.ويخبر رسوله – ﷺ-،أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم.ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق،والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء:«أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ.فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ،وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» ..

أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ويحتجون بهذه الحجج،ويعتذرون بهذه المعاذير.واللّه يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور ..ولكن السياسة التي كانت متبعة – في ذلك الوقت – مع المنافقين كانت هي الإغضاء عنهم،وأخذهم بالرفق،واطراد الموعظة والتعليم ..

والتعبير العجيب:«وَقُلْ لَهُمْ ..فِي أَنْفُسِهِمْ ..قَوْلًا بَلِيغاً».تعبير مصور ..كأنما القول يودع مباشرة في الأنفس،ويستقر مباشرة في القلوب.

وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف اللّه وكنف رسوله ..بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ومن الصدود عن الرسول – ﷺ- حين يدعون إلى التحاكم إلى اللّه والرسول ..فالتوبة بابها مفتوح،والعودة إلى اللّه لم يفت أوانها بعد واستغفارهم اللّه من الذنب،واستغفار الرسول لهم،فيه القبول!

ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية:وهي أن اللّه قد أرسل رسله ليطاعوا – بإذنه – لا يخالف عن أمرهم.ولا ليكونوا مجرد وعاظ! ومجرد مرشدين! «وَما أَرْسَلْنا

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ.وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ،فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ،وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ،لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» ..

وهذه حقيقة لها وزنها ..إن الرسول ليس مجرد «واعظ» يلقي كلمته ويمضي.لتذهب في الهواء - بلا سلطان - كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول «الدين».

إن الدين منهج حياة.منهج حياة واقعية.بتشكيلاتها وتنظيماتها،وأوضاعها،وقيمها،وأخلاقها وآدابها.وعباداتها وشعائرها كذلك.وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان.سلطان يحقق المنهج،وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ ..

واللّه أرسل رسله ليطاعوا - بإذنه وفي حدود شرعه - في تحقيق منهج الدين.منهج اللّه الذي أراده لتصريف هذه الحياة.وما من رسول إلا أرسله اللّه،ليطاع،بإذن اللّه.فتكون طاعته طاعة للّه ..ولم يرسل الرسل لمجرد التأثر الوجداني،والشعائر التعبدية ..فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم مع حكمة اللّه من إرسال الرسل.وهي إقامة منهج معين للحياة،في واقع الحياة ..وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظا.لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضي.يستهتر بها المستهترون،ويبتذلها المبتذلون!!!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان ..كان دعوة وبلاغا.ونظاما وحكما.وخلافة بعد ذلك عن رسول اللّه - ﷺ- تقوم بقوة الشريعة والنظام،على تنفيذ الشريعة والنظام.لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول.وتحقيق إرادة اللّه من إرسال الرسول.وليست هنالك صورة أخرى يقال لها:الإسلام.أو يقال لها:الدين.إلا أن تكون طاعة للرسول،محققة في وضع وفي تنظيم.ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف ويبقى أصلها الثابت.وحقيقتها التي لا توجد بغيرها ..استسلام لمنهج اللّه،وتحقيق لمنهج رسول اللّه.وتحاكم إلى شريعة اللّه.وطاعة للرسول فيما بلغ عن اللّه،وإفراد للّه - سبحانه - بالألوهية (شهادة أن لا إله إلا اللّه) ومن ثم إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداء حقا للّه،لا يشاركه فيه سواه.وعدم احتكام إلى الطاغوت.

في كثير ولا قليل.والرجوع إلى اللّه والرسول،فيما لم يرد فيه نص من القضايا المستجدة،والأحوال الطارئة حين تختلف فيه العقول ..".[٢٢٧]

إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام. بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة .. بل إن شريعته هي عقيدته .. إذ هي الترجمة الواقعية لها .. كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية،وعرضها في المنهج القرآني ..

وهذه هي الحقيقة التي زحزح مفهوم «الدين» في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة،بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة .. حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين – ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه – أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة! ولا يعدون المروق منها مروقا من الدين،كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة. إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة،قرونا طويلة،حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين! وهي هي القضية التي تحتشد لها سورة مكية – موضوعها ليس هو النظام وليس هو الشريعة،إنما موضوعها هو العقيدة – وتحشد لها كل هذه المؤثرات،وكل هذه التقريرات بينما هي تتصدى لجزئية تطبيقية من تقاليد الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تتعلق بالأصل الكبير .. أصل الحاكمية .. وذلك أن هذا الأصل الكبير يتعلق بقاعدة هذا الدين وبوجوده الحقيقي ..

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك،ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك. ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك .. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن. ولا يعرفون طبيعة هذا الدين .. فليقرأوا القرآن كما أنزله اللّه وليأخذوا قول اللّه بجد:«وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ».

---

[٢٢٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٠٣٤]

وإن بعض هؤلاء المتحمسين لهذا الدين ليشغلون بالهم وبال الناس ببيان إن كان هـذا القانون،أو هذا الإجراء،أو هذا القول،منطبقا على شـريعة اللّـه أو غـير منطبـق .. وتأخذهم الغيرة على بعض المخالفات هنا وهناك .. كأن الإسلام كله قائم،فلا ينقص وجوده وقيامه وكماله إلا أن تمتنع هذه المخالفات! هؤلاء المتحمسون الغيورون علـى هذا الدين،يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون. بل يطعنونه الطعنة الـنجلاء بمثـل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة .. إنهم يفرغون الطاقة العقدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة .. إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهليـة. شهادة بأن هذا الدين قائم فيها،لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات. بينمـا الدين كله متوقف عن «الوجود» أصلا،ما دام لا يتمثل في نظـام وأوضـاع،الحاكمية فيها للّه وحده من دون العباد. إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية اللّه. فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين .. وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم،لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية اللّه،وتغتصب سلطانه،وتجعل لأنفسها حق التشـريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد .. وهي هي المشكلة التي كان يواجههـا القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات،ويربطها بقضية الألوهيـة والعبودية،ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر،وميزان الجاهلية أو الإسلام.

إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر «وجوده» لم تكن هـي المعركـة مـع الإلحاد،حتى يكون مجرد «التدين» هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين! ولم تكـن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي – فهذه معارك تاليـة لمعركـة «وجود» هذا الدين! .. لقد كانت المعركة الأولى الـتي خاضـها الإسـلام ليقـرر «وجوده» هي معركة «الحاكمية» وتقرير لمن تكون .. لذلك خاضها وهو في مكـة. خاضها وهو ينشئ العقيدة،ولا يتعرض للنظام والشريعة. خاضها ليثبت في الضـمير أن الحاكمية للّه وحده لا يدعيها لنفسه مسلم ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم .. فلمـا أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة،يسر اللّه لهم مزاولتها الواقعية

في المدينة .. فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون. بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين![٢٢٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٢٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٦٥١]

قال تعالى:«فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ.وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» ..

فهي المساومة إذن،والالتقاء في منتصف الطريق.كما يفعلون في التجارة.وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير!

فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها لأن الصغير منها كالكبير.بل ليس في العقيدة صغير وكبير.إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء.لا يطيع فيها صاحبها أحدا،ولا يتخلى عن شيء منها أبدا.وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق،ولا أن يلتقيا في أي طريق.وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان.جاهلية الأمس وجاهلية اليوم،وجاهلية الغد كلها سواء.إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر،ولا تقام عليها قنطرة،ولا تقبل قسمة ولا صلة.وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق!

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي - ﷺ- ليدهن لهم ويلين ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم،أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه،وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول! ولكن الرسول - ﷺ- كان حاسما في موقفه من دينه،لا يدهن فيه ولا يلين.وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير.فأما الدين فهو الدين! وهو فيه عند توجيه ربه:«فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ»! ولم يساوم - ﷺ- في دينه وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة.وهو محاصر بدعوته.

وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون في اللّه أشد الإيذاء وهم صابرون.ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجوه الأقوياء المتجبرين،تأليفا لقلوبهم،أو دفعا لأذاهم.ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد ..

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَلَمّا بَادَى رَسُولُ اللّهِ ﷺقَوْمَهُ بِالْإِسْلَامِ وَصَدَعَ بِهِ كَمَا أَمَرَهُ اللّهُ لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ وَلَمْ يَرُدّوا عَلَيْهِ – فِيمَا بَلَغَنِي – حَتّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وَعَابَهَا؛فَلَمّا فَعَلَ ذَلِكَ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ وَأَجْمَعُوا خِلَافَهُ وَعَدَاوَتَهُ إلّا مَنْ عَصَمَ اللّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ وَهُمْ قَلِيلٌ مُسْتَخْفُونَ وَحَدِبَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺعَمّهُ أَبُو طَالِبٍ وَمَنَعَهُ وَقَامَ دُونَهُ وَمَضَى رَسُولُ اللّهِ ﷺعَلَى أَمْرِ اللّهِ مُظْهِرًا لِأَمْرِهِ لَا يَرُدّهُ عَنْهُ شَيْءٌ .فَلَمّا رَأَتْ قُرَيْشٌ،أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺلَا يُعْتِبُهُمْ مِنْ شَيْءٍ أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ مِنْ فِرَاقِهِمْ وَعَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَرَأَوْا أَنّ عَمّهُ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَدِبَ عَلَيْهِ وَقَامَ دُونَهُ فَلَمْ يُسْلِمْهُ لَهُمْ مَشَى رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إلَى أَبِي طَالِبٍ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبٍ .وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمَيّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ .قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:وَاسْمُ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرٌ .قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَأَبُو الْبَخْتَرِيّ وَاسْمُهُ الْعَاصِ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ .قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:أَبُو الْبَخْتَرِيّ الْعَاصِ بْنُ هَاشِمٍ .[ص ٢٦٥] قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ .وَأَبُو جَهْلٍ – وَاسْمُهُ عَمْرٌو،وَكَانَ يُكَنّى أَبَا الْحَكَمِ – بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ .وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ .وَنَبِيهٌ وَمُنَبّهٌ ابْنَا الْحَجّاجِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هَصِيصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ .وَالْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ

.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:أَوْ مَنْ مَشَى مِنْهُمْ .فَقَالُوا:يَا أَبَا طَالِبٍ إنّ ابْنَ أَخِيك قَدْ سَبّ آلِهَتَنَا،وَعَابَ دِينَنَا،وَسَفّهَ أَحْلَامَنَا،وَضَلّلَ آبَاءَنَا؛فَإِمّا أَنْ تَكُفّهُ عَنّا،وَإِمّا أَنْ تُخَلّي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَإِنّك عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ فَنَكْفِيكَهُ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ قَوْلًا رَفِيقًا،وَرَدّهُمْ رَدّا جَمِيلًا،فَانْصَرَفُوا عَنْهُ .

وَمَضَى رَسُولُ اللّه ﷺعَلَى مَا هُوَ عَلَيْه يُظْهِرُ دينَ اللّه وَيَدْعُو إلَيْه ثُمّ شَرَى الْأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَتّى تَبَاعَدَ الرّجَالُ وَتَضَاغَنُوا،وَأَكْثَرَتْ قُرَيْشٌ ذكْرَ رَسُول اللّه ﷺبَيْنَهَا،فَتَذَامَرُوا فيه وَحَضّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْه ثُمّ إنّهُمْ مَشَوْا إلَى أَبي طَالب مَرّةً أُخْرَى،فَقَالُوا لَهُ يَا أَبَا طَالب إنّ لَك سنّا وَشَرَفًا وَمَنْزلَةً فينَا،وَإنّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ منْ ابْنِ أَخيك فَلَمْ تَنْهَهُ عَنّا،وَإنّا وَاَللّه لَا نَصْبرُ عَلَى هَذَا منْ شَتْم آبَائنَا،وَتَسْفيه أَحْلَامنَا،وَعَيْب آلهَتنَا،حَتّى تَكُفّهُ عَنّا،أَوْ نُنَازلَهُ وَإيّاكَ في ذَلكَ حَتّى يَهْلكَ أَحَدُ قَالُوا لَهُ .(ثُمّ) انْصَرَفُوا عَنْهُ فَعَظُمَ عَلَى أَبي طَالب فرَاقُ قَوْمه وَعَدَاوَتُهُمْ وَلَمْ يَطبْ نَفْسًا بإسْلَام رَسُول اللّه ﷺلَهُمْ وَلَا خذْلَانه .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَحَدّثَني يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ الْمُغيرَة بْنِ الْأَخْنَس أَنّهُ حُدّثَ أَنّ قُرَيْشًا حينَ قَالُوا لأَبي طَالب هَذه الْمَقَالَةَ بَعَثَ إلَى رَسُول اللّه ﷺفَقَالَ لَهُ يَا ابْنَ أَخي،إنّ قَوْمَك قَدْ جَاءُوني،فَقَالُوا لي كَذَا وَكَذَا،للّذي كَانُوا قَالُوا لَهُ فَأَبْق عَلَيّ وَعَلَى نَفْسك،وَلَا تُحَمّلْني منْ الْأَمْر مَا لَا أُطيقُ قَالَ فَظَنّ رَسُولُ اللّه ﷺأَنّهُ قَدْ بَدَا لعَمّه فيه بَدَاءٌ أَنّهُ خَاذلُهُ وَمُسْلمُهُ وَأَنّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَته وَالْقيَام مَعَهُ .قَالَ فَقَالَ رَسُول اللّه ﷺيَا عَمّ،وَاَللّه لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ في يَميني،وَالْقَمَرَ في يَسَاري عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلكَ فيه مَا تَرَكْتُهُ قَالَ ثُمّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللّه ﷺفَبَكَى ثُمّ قَامَ فَلَمّا وَلّى نَادَاهُ أَبُو طَالب فَقَالَ أَقْبلْ يَا ابْنَ أَخي،قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَيْه رَسُولُ اللّه ﷺفَقَالَ اذْهَبْ يَا ابْنَ أَخي،فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ فَوَاَللّه لَا أُسْلمُك لشَيْءٍ أَبَدًا[٢٢٩] .

وعَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ قَالَ:أَخْبَرَني عَقيلُ بْنُ أَبي طَالبٍ قَالَ:جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبي طَالبٍ،فَقَالُوا:إِنَّ ابْنَ أَخيكَ هَذَا قَدْ آذَانَا في نَادينَا وَمَسْجدنَا،فَانْهَهُ عَنَّا .فَقَالَ:يَا عَقيلُ انْطَلقْ فَأْتني بمُحَمَّد،فَانْطَلَقْتُ إِلَيْه فَاسْتَخْرَجْتُهُ منْ كبْسٍ أَوْ قَالَ:منْ حفْشٍ يَقُولُ:بَيْتٌ صَغيرٌ فَجَاءَ به في الظَّهيرَة في شدَّة الْحَرِّ،فَلَمَّا أَتَاهُمْ قَالَ أَبُو طَالبٍ:إِنَّ بَني عَمِّكَ هَؤُلَاءِ قَدْ زَعَمُوا أَنَّكَ تُؤْذيهمْ في نَاديهمْ وَمَسْجدهمْ فَانْتَه عَنْ أَذَاهُمْ فَحَلَّقَ رَسُولُ اللَّه ﷺببَصَره إِلَى السَّمَاءِ،فَقَالَ:" أَتَرَوْنَ هَذه الشَّمْسَ ؟ " قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:" فَمَا أَنَا بِأَقْدَرَ

٢٢٩ - سيرة ابن هشام [١ /٢٦٣] صحيح مرسل شري:زاد واشتد= تذامروا:تغيظوا وحض بعضهم بعضا عليه.

عَلَى أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا مِنْهَا شُعْلَةً " فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ:وَاللَّهِ مَا كَذَّبْتَ ابْنَ أَخِي قَطُّ فَارْجِعُوا "[230]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَسِ،أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّ قُرَيْشًا حِينَ قَالَتْ لِأَبِي طَالِبٍ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَقَالَ لَهُ:يَا ابْنَ أَخِي،إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُونِي فَقَالُوا كَذَا وَكَذَا فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ،وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ أَنَا وَلَا أَنْتَ،فَاكْفُفْ عَنْ قَوْمِكَ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ قَوْلِكَ،فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ،وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ وَضَعُفَ عَنِ الْقِيَامِ مَعَهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يَا عَمِّ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ أَهْلِكَ فِي طَلَبِهِ " ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَبَكَى،فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَهُ حِينَ رَأَى مَا بَلَغَ الْأَمْرُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:يَا ابْنَ أَخِي فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ،فَقَالَ:" امْضِ عَلَى أَمْرِكَ وَافْعَلْ مَا أَحْبَبْتَ،فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا " قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:ثُمَّ قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي شِعْرٍ قَالَهُ حِينَ أَجْمَعَ لِذَلِكَ مِنْ نُصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺعَلَيْهِ،وَالدِّفَاعِ عَنْهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَدَاوَةِ قَوْمِهِ:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَامْضِي لِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ أَبْشِرْ وَقِرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيونَا
وَدَعَوتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارِي سُبَّةً لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا "[231].

فهذه صورة من إصرار النبي – ﷺ- على دعوته في اللحظة التي تخلى عنه فيها عمه.حاميه وكافيه،وآخر حصن من حصون الأرض يمنعه المتربصين به المتذامرين فيه! هذه هي صورة قوية رائعة جديدة في نوعها من حيث حقيقتها،ومن حيث صورها

[230] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٤٩٤) حسن

[231] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٤٩٥) حسن مرسل

استعبر:استفعل من العَبْرة،وهي تَحلُّب الدمع =الغضاضة:الذلة والمنقصة والعيب =البرية:الخَلْق

وظلالها ومن حيث عباراتها وألفاظها ...جديدة جدة هذه العقيدة،رائعة روعة هذه العقيدة،قوية قوة هذه العقيدة.فيها مصداق قول اللّه العظيم:«وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ».

وصورة أخرى رواها كذلك ابن اسحق،كانت في مساومة مباشرة من المشركين لرسول اللّه – ﷺ- بعد إذ أعياهم أمره،ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَحَدّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَاد،عَنْ مُحَمّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ،قَالَ حُدّثْت أَنّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ،وَكَانَ سَيّدًا،قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ،وَرَسُولُ اللّهِ ﷺجَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،أَلَا أَقُومُ إلَى مُحَمّدٍ فَأُكَلّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيّهَا شَاءَ وَيَكُفّ عَنّا ؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللّهِ ﷺيَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ فَقَالُوا:بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ قُمْ إلَيْهِ فَكَلّمْهُ فَقَامَ إلَيْهِ عُتْبَةُ حَتّى جَلَسَ إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺفَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي،إنّك مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النّسَبِ وَإِنّك قَدْ أَتَيْت قَوْمَك بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرّقْت بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفّهْت بِهِ أَحْلَامَهُمْ وَعِبْت بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفّرْت بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ فَاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلّك تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا .قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺقُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ قَالَ يَا ابْنَ أَخِي،إنْ كُنْت إنّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَك مِنْ أَمْوَالِنَا حَتّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوّدْنَاك عَلَيْنَا،حَتّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك،وَإِنْ كُنْت تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلّكْنَاك عَلَيْنَا؛وَإِنْ كَانَ هَذَا الّذِي يَأْتِيك رِئْيًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدّهُ عَنْ نَفْسِك،طَلَبْنَا لَك الطّبّ،وَبَذَلْنَا فِيهِ غَلَبَ التّابِعُ عَلَى الرّجُلِ حَتّى يُدَاوَى مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ .حَتّى إذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللّهِ ﷺيَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَاسْمَعْ مِنّي؛قَالَ أَفْعَلُ فَقَالَ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ كِتَابٌ فُصّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنّةٍ مِمّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّهِ ﷺفِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ .فَلَمّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا،وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمّ انْتَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺإلَى

السّجْدَة مِنْهَا،فَسَجَدَ ثُمّ قَالَ قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد مَا سَمِعْتَ فَأَنْت وَذَاكَ فَقَامَ عُتْبَةُ إلَى أَصْحَابِه فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ نَحْلِفُ بِاَللّه لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيد بِغَيْرِ الْوَجْه الّذِي ذَهَبَ بِه .فَلَمّا جَلَسَ إلَيْهِمْ قَالُوا:مَا وَرَاءَك يَا أَبَا الْوَلِيد ؟ قَالَ وَرَائِي أَنّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاَللّه مَا سَمِعْت مِثْلَهُ قَطّ،وَاَللّه مَا هُوَ بِالشّعْرِ وَلَا بِالسّحْرِ وَلَا بِالْكِهَانَة يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي،وَخَلّوا بَيْنَ هَذَا الرّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ فَوَاَللّه لَيَكُونَنّ لِقَوْله الّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ وَعِزّهُ عِزّكُمْ وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النّاسِ بِهِ قَالُوا:سَحَرَك وَاَللّه يَا أَبَا الْوَلِيد بِلِسَانِه قَالَ هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ[٢٣٢] .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول - ﷺ- إلى قوله تعالى:«فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ:أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ» ..فقام مذعورا فوضع يده على فم رسول اللّه - ﷺ- يقول:أنشدك اللّه والرحم يا محمد! وذلك مخافة أن يقع النذير.وقام إلى القوم فقال ما قال![٢٣٣]

وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور المساومة.وهي كذلك صورة من صور الخلق العظيم.تبدو في أدبه - ﷺ- وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ الذي لا يستحق الانتباه من مثل محمد - ﷺ- في تصوره لقيم هذا الكون،وفي ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض.ولكن خلقه يمسك به لا يقاطع ولا يتعجل ولا يغضب ولا يضجر،حتى يفرغ الرجل من مقالته،وهو مقبل عليه.ثم يقول في هدوء:«أقد فرغت يا أبا الوليد؟» زيادة في الإملاء والتوكيد.إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع في الاستماع والحديث ..وهما معا بعض دلالة الخلق العظيم.

وصورة ثالثة للمساومة فيما رواه ابن اسحق قال:اعْتَرَضَ رَسُولَ اللّه ﷺوَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَة - فِيمَا بَلَغَنِي - الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطّلِب بْنِ أَسَد بْنِ عَبْدِ الْعُزّى،وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة،وَأُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ،وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ السّهْمِيّ،وَكَانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ فِي قَوْمِهِمْ

---

[٢٣٢] - سيرة ابن هشام [١ /٢٩٢] حسن مرسل

[٢٣٣] - هي بمعنى التي قبلها و لم أجدها

فَقَالُوا:يَا مُحَمّدُ هَلُمّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ،وَتَعْبُدُ مَا نَعْبُدُ فَنَشْتَرِكُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي الْأَمْرِ فَإِنْ كَانَ الّذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمّا نَعْبُدُ كُنّا قَدْ أَخَذْنَا بِحَظّنَا مِنْهُ وَإِنْ كَانَ مَا نَعْبُدُ خَيْرًا مِمّا تَعْبُدُ كُنْت قَدْ أَخَذْت بِحَظّك مِنْهُ .فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِيهِمْ { قُلْ يَا أَيّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } أَيْ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْبُدُونَ إلّا اللّهَ إلّا أَنْ أَعْبُدَ مَا تَعْبُدُونَ فَلَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ مِنْكُمْ لَكُمْ دِينُكُمْ جَمِيعًا،وَلِي دِينِي ".[٢٣٤]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:ثنِي سَعِيدُ بْنُ مِينَا مَوْلَى الْبَخْتَرِيِّ،قَالَ:" لَقِيَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ،وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ،رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:يَا مُحَمَّدُ،هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ،وَتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ،وَنُشْرِكْكَ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ،فَإِنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا مِمَّا بِأَيْدِينَا كُنَّا قَدْ شَرَكْنَاكَ فِيهِ،وَأَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ؛وَإِنْ كَانَ الَّذِي بِأَيْدِينَا خَيْرًا مِمَّا فِي يَدَيْكَ،كُنْتَ قَدْ شَرَكْتَنَا فِي أَمْرِنَا،وَأَخَذْتَ مِنْهُ بِحَظِّكَ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ حَتَّى انْقَضَتِ السُّورَةُ "[٢٣٥]

وحسم الله المساومة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة.وقال لهم الرسول - ﷺ- ما أمره ربه أن يقول. [٢٣٦]

وقال تعالى:« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا.فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً.وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا» ..

وفي هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية.حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا،وأن يتعمقوها تعمقا كاملا،وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة.

لقد كان رسول الله - ﷺ- يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده.وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة.ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا.فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا

---

[٢٣٤] - سيرة ابن هشام [١ /٣٦٢] بلا سند

[٢٣٥] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٣٥٤٨١) صحيح مرسل - زيادة مني

[٢٣٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٥٥٢]

لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة.إنما كانت الملابسات الـتي تحـيط بالعقيـدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضـة العنيـدة،التي شـهدت بهـا الروايـات التاريخية،وحكاها القرآن في مواضع منه شتى ..كانت المكانـة الاجتماعيـة،والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة،وما يتلبس بها كذلك من مصالح مادية ..هـي العنصـر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان،في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة ..ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبي على العقيدة الجديدة،وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقـيم رفيعة،لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق.

وهذه الأسباب – سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسـلطان والمـال والمصالح،وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحيـاة التقليديـة،وما يتعلـق منـها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية – كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى،وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل.وهي تمثل العناصر الثابتة في معركـة العقيدة،التي تجعلها معركة عنيدة لا تنتهي من قريب وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف.

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين اللّه في أي أرض وفي أي زمـان أن يعيشـوا طـويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات،وملابسات نزولها على الرسول – ﷺ- فهـي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعـوة إلى اللّـه،في أي أرض وفي أي زمان!

لقد تلقى رسول اللّه – ﷺ- التكليف من ربه لينذر،وقيل له:«يا أَيُّهَـا الْمُـدَّثِّرُ.قُـمْ فَأَنْذِرْ» ..فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عـن الدعوة الجديدة،وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه – على شعورهم بوهنه وهلهلته – وتقودهم إلى العناد الشديد،ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم.ومألوف حياتهم،ولذائذهم وشهواتهم ..إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديـدة

أشد التهديد.وأخذ هذا الدفاع العنيد صورا شتى،في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة،ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد.ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها - ﷺ- بشتى التهم والأساليب.كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد.فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها!

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة - ﷺ- طرقا شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه! كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة.

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى اللّه في كل أرض وفي كل جيل! والنبي - ﷺ- ولو أنه رسول،حفظه اللّه من الفتنة،وعصمه من الناس ..إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف.واللّه يعلم منه هذا،فلا يدعه وحده،ولا يدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق. [٢٣٧].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٣٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٤٦٩٠]

روى الطبراني عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ:" إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ،فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نُخْرِجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ ؟ لَعَلَّ اللَّهُ يُغْنِمُنَاهَا "،فَقُلْنَا:نَعَمْ،فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا،فَلَمَّا سِرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ،قَالَ لَنَا:" مَا تَرَوْنَ فِي الْقَوْمِ،فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ ؟ "،فَقُلْنَا:لَا وَاللَّهِ مَالَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ،وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ،ثُمَّ قَالَ:" مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ ؟ " فَقُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ،فَقَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو:إِذَنْ لَا نَقُولُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى:فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ،قَالَ:فَتَمَنَّيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَوْ أَنَّا قُلْنَا كَمَا قَالَ الْمِقْدَادُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَنَا مَالٌ عَظِيمٌ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ:كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ وَقَالَ:وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَالشَّوْكَةُ الْقَوْمُ وَغَيْرُ ذَاتِ الشَّوْكَةِ الْعِيرُ،فَلَمَّا وَعَدَنَا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا الْقَوْمُ وَإِمَّا الْعِيرُ طَابَتْ أَنْفُسُنَا،ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺبَعَثَ رَجُلًا لِيَنْظُرَ مَا قِبَلَ الْقَوْمِ ؟،فَقَالَ:رَأَيْتُ سَوَادًا وَلَا أَدْرِي،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" هُمْ هُمْ هَلُمُّوا أَنْ نَتَعَادَّ " فَفَعَلْنَا،فَإِذَا نَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَأَخْبَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ بِعِدَّتِنَا،فَسَرَّهُ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَقَالَ:" عِدَّةُ أَصْحَابِ طَالُوتَ " ثُمَّ إِنَّا اجْتَمَعْنَا مَعَ الْقَوْمِ فَصَفَفْنَا،فَبَدَرَتْ مِنَّا بَادِرَةٌ أَمَامَ الصَّفِّ،فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِلَيْهِمْ فَقَالَ:" مَعِي مَعِي " ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ وَعْدَكَ "،فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشِيرَ عَلَيْكَ،وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺأَفْضَلُ مَنْ يُشِيرُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَنْشُدَهُ وَعْدَهُ،فَقَالَ:" يَا ابْنَ رَوَاحَةَ لَأَنْشُدَنَّ اللَّهَ وَعْدَهُ،فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ "،فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي وُجُوهِ الْقَوْمِ،فَانْهَزَمُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى فَقَتَلْنَا وَأَسَرْنَا،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:يَا رَسُولَ اللَّــه مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ لَكَ أَسْرَى،فَإِنَّمَا نَحْنُ دَاعُونَ مُوَلِّفُونَ،فَقُلْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ:إِنَّمَا يَحْمِلُ عُمَرُ عَلَى مَا قَالَ حَسَدًا لَنَا،فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺثُمَّ اسْتَيْقَظَ ثُمَّ قَالَ:" ادْعُوا لِــي عُمَــرَ "،فَدُعِيَ لَهُ،فَقَالَ:" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ:مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "[٢٣٨]

فهذا ما حاك في نفوس فريق من المسلمين يومئذ،وما كرهوا من أجله القتال،حتى ليقول عنهم القرآن الكريم:«كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» .. وذلك بعد ما تــبين الحق،وعلموا أن اللّه وعدهم إحدى الطائفتين وأنه لم يبق لهم خيار بعــد مــا أفلتــت إحدى الطائفتين وهي - العير - وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى،وقد قدر اللّه لهم لقاءها وقدر أنها ستكون لهم. كانت ما كانت. كانت العير أو كانت النفير. كانــت الضعيفة التي لا شوكة لها أم كانت القوية ذات الشوكة والمنعة.

وإنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر ويتجلى فيها أثر المواجهــة الواقعية - على الرغم من الاعتقاد القلبي - والصورة التي يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع فلا نغفل طاقــة الــنفس البشرية وذبذباتها عند المواجهة ولا نيئس من أنفسنا ولا من النفس البشرية جملة حــين نراها تهتز في مواجهة الخطر - على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة - فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي في الطريق،وتواجه الخطر فعلا،وتنتصر علــى الهــزة الأولى! ..

لقد كان هؤلاء هم أهل بدر،الذين قال فيهم رسول اللّه ﷺما قال،قال عُبَيْدُ اللَّهِ بْــنُ أَبِى رَافِعٍ:سَمِعْتُ عَلِيًّا - رضى الله عنه - يَقُولُ بَعَثَنِى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- أَنَا وَالزُّبَيْــرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ،فَإِنَّ بِهَــا ظَعِينَــةً وَمَعَهَــا كِتَابٌ،فَخُذُوهُ مِنْهَا » . فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ،فَإِذَا نَحْــنُ

---

[٢٣٨] - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٤ /١٥] والطبراني في المعجم الكبير (١٧٤/٤)(٣٩٥١) والبداية والنهاية لابن كثير محقق - موافق للمطبوع [٣ /٣٢٢]حسن

بالظَّعِينَة فَقُلْنَا أَخْرِجِى الْكِتَابَ . فَقَالَتْ مَا مَعِى مِنْ كِتَابٍ . فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ . فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا،فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ–،فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِى بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ،يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ–،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– « يَا حَاطِبُ،مَا هَذَا » . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،لاَ تَعْجَلْ عَلَىَّ،إِنِّى كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِى قُرَيْشٍ،وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا،وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ،يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ،فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِى ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِى،وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– « لَقَدْ صَدَقَكُمْ » . قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِى أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ . قَالَ « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ،فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »[٢٣٩] .. وهذا يكفي ..

ولقد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غير ذات الشوكة هي التي كتب اللّه عليهم لقاءها:«وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ» ..

هذا ما أرادته العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك. أما ما أراده اللّه لهم،وبهم،فكان أمرا آخر:«وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ،وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ،لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» ..

لقد أراد اللّه – وله الفضل والمنة – أن تكون ملحمة لا غنيمة وأن تكون موقعة بين الحق والباطل،ليحق الحق ويثبته،ويبطل الباطل ويزهقه. وأراد أن يقطع دابر الكافرين،فيقتل منهم من يقتل،ويؤسر منهم من يؤسر،وتذل كبرياؤهم،وتخضد شوكتهم،وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة اللّه،ويمكن اللّه للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج اللّه،وتنطلق به لتقرير ألوهية اللّه في الأرض،وتحطيم طاغوت الطواغيت.

---

[٢٣٩] – صحيح البخارى- المكنز [١١ /٤١](٣٠٠٧)

وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف - تعالى اللّه عن الجزاف - وبالجهد والجهاد،وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال.

نعم. أراد اللّه للعصبة المسلمة أن تصبح أمة وأن تصبح دولة وأن يصبح لها قوة وسلطان .. وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها. فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة،وليس بالمال والخيل والزاد ... إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة اللّه التي لا تقف لها قوة العباد.

وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية،لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي. ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من القلة ويكن عدوها من الكثرة ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد .. وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان.

وينظر الناظر اليوم،وبعد اليوم،ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده اللّه لها. بين ما حسبته خيرا لها وما قدره اللّه لها من الخير .. ينظر فيرى الآماد المتطاولة ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيرا مما يختاره اللّه لهم وحين يتضررون مما يريده اللّه لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى. بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال،ولا بخيال! فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده اللّه لها؟ لقد كانت تمضي - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة. قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها!

فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة. قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل. قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد والحق في قلة من العدد،وضعف في الزاد والراحلة. قصة انتصار القلوب حين تتصل باللّه،وحين تتخلص من ضعفها الذاتي. بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون

للقتال! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي،وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها،قد انتصرت على نفسها،وانتصرت على من فيها،وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحانا ظاهرا في جانب الباطل فقلبت بيقينها ميزان الظاهر فإذا الحق راجح غالب.

ألا إن غزوة بدر - بملابساتها هذه - لتمضي مثلا في التاريخ البشري. ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة .. الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية .. ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان،لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها. فهي آية من آيات اللّه،وسنة من سننه الجارية في خلقه،ما دامت السماوات والأرض .. ألا وإن العصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية في الأرض - بعد ما غلبت عليها الجاهلية - لجديرة بأن تقف طويلا أمام (بدر) وقيمها الحاسمة التي تقررها والأبعاد الهائلة التي تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده اللّه لهم:«وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ،وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ. وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» ...

إن العصبة المسلمة التي تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين في دنيا الناس وفي عالم الواقع،قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية في المرحلة التي كانت فيها العصبة المسلمة الأولى يوم بدر. ولكن الموازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها ونتائجها والتعقيبات القرآنية عليها ما تزال تواجه وتوجه موقف العصبة المسلمة في كل مرحلة من مراحل الحركة،ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كلية ودائمة ما دامت السماوات والأرض،وما كانت عصبة مسلمة في هذه الأرض،تجاهد في وجه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية [٢٤٠]...

[٢٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٩٩٩]

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون .. شياطين الإنس والجن .. تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة .. هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه .. خطة مقررة فيها وسائلها .. «يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا» .. يمد بعضهم بعضا بوسائل الخداع والغواية وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضا! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله .. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ويعين بعضهم بعضا على الضلال أيضا!

إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبدا. ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلا!

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقا .. إنه محاط به بمشيئة اللّه وقدره .. لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه اللّه وينفذه بقدره. ومن هنا يبدو هذا الكيد – على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه – مقيدا مغلولا!

إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط. ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع – كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر،ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم .. كلا! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة اللّه. وقدرتهم محدودة بقدر اللّه. وما يضرون أولياء اللّه بشيء إلا بما أراده اللّه – في حدود الابتلاء – ومرد الأمر كله إلى اللّه.

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها .. ومشهد إحاطة مشيئة اللّه وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين،وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ،وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود،وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أولا يريده الشياطين!

وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق،بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم. أما عداوة الشياطين،وكيد الشياطين،فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ.

«وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ. فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ» [٢٤١]..

لقد كان العرب – في جاهليتهم – يزعمون أن الملائكة بنات اللّه.ثم يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث:«اللَّاتَ.وَالْعُزَّى.وَمَناةَ» وأمثالها ثم يعبدون هذه الأصنام – بوصفها تماثيل لبنات اللّه – يتقربون بها إلى اللّه زلفى ..كان هذا على الأقل في مبدأ الأمر ..ثم ينسون أصل الأسطورة،ويعبدون الأصنام ذاتها،بل يعبدون جنس الحجر،كما بينا ذلك في الجزء الرابع.

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصا ..قال الكلبي:كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ..

على أن النص هنا أوسع مدلولا،فهم في شركهم كله إنما يدعون الشيطان،ويستمدون منه:هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم الذي لعنه اللّه،بسبب معصيته وعدائه للبشر.والذي بلغ من حقده بعد طرده ولعنته،أن يأخذ من اللّه – سبحانه – إذنا بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى اللّه:« إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً،وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً،لَعَنَهُ اللَّهُ وَقالَ:لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً» – عدوهم القديم – ويسوحونه ويستمدون منه هذا الضلال.ذلك الشيطان الذي لعنه اللّه.والذي صرح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم،وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية،من لذة كاذبة،وسعادة موهومة،ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف! كما صرح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة،وشعائر سخيفة،من نسج الأساطير.كتمزيق آذان بعض الأنعام،ليصبح ركوبها بعد ذلك حراما،أو أكلها حراما – دون أن يحرمها اللّه – ومن تغيير خلق اللّه وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان أو الإنسان،كخصاء الرقيق،ووشم الجلود ..وما إليها من التغيير والتشويه الذي حرمه الإسلام.

وشعور الإنسان بأن الشيطان – عدوه القديم – هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية،يثير في نفسه – على الأقل – الحذر من الفخ الذي نصبه العدو.وقد

---

[٢٤١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٦٢١]

جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان.ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض والوقوف تحت راية اللّه وحزبه،في مواجهة الشيطان وحزبه:وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها.لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده.والمؤمن لا يغفل عنها،ولا ينسحب منها.وهو يعلم أنه إما أن يكون وليا للّه،وإما أن يكون وليا للشيطان وليس هنالك وسط ..والشيطان يتمثل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة.والمسلم يكافحه في ذات نفسه،كما يكافحه في أتباعه ..معركة واحدة متصلة طوال الحياة.

ومن يجعل اللّه مولاه فهو ناج غانم.ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك:« وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» ..

ويصور السياق القرآني فعل الشيطان مع أوليائه،في مثل حالة الاستهواء.«يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ،وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً».إنها حالة استهواء معينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد،إلى الكفر والشرك.ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها،ولكان الإيمان هو هادي الفطرة وحاديها.وإنها حالة استهواء معينة هي التي يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله،فيراه حسنا! ويعده الكسب والسعادة في طريق المعصية،فيعدو معه في الطريق! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضي في طريقه إلى المهلكة! «وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» ..

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو،والعدو القديم يفتل الحبال،ويضع الفخ،ويستدرج الفريسة،لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هي التي تظل سادرة لا تستيقظ،ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أي طريق تساق،وإلى أية هوة تستهوى! وبينما هذه اللمسة الموقظة تفعل فعلها في النفوس،وتصور حقيقة المعركة،وحقيقة الموقف،يجيء التعقيب ببيان العاقبة في نهاية المطاف:عاقبة من يستهويهم الشيطان،ويصدق عليهم ظنه،وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة ..وعاقبة من يفلتون من حبالته،لأنهم آمنوا باللّه حقاً.والمؤمنون باللّه حقا في نجوة من هذا الشيطان لأنه – لعنة اللّه عليه – وهو

يستأذن في إغواء الضالين، لم يؤذن له في المساس بعباد اللّه المخلصين.فهو إزاءهم ضعيف ضعيف كلما اشتدت قبضتهم على حبل اللّه المتين:« وَمَنْ يَتَّخِذ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّه فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً.يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ،وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً.أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ،وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً.وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها أَبَداً،وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا،وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا؟» ..

فهي جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان ..وهي جنات الخلد لا خروج منها لأولياء اللّه ..وعد اللّه:«وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا»؟ والصدق المطلق في قول اللّه هنا يقابل الغرور الخادع،والأماني الكاذبة في قول الشيطان هناك! وشتان بين من يثق بوعد اللّه،ومن يثق بتغرير الشيطان![٢٤٢]

إنَّ المعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدا عن منهج اللّه والتزيين له فيما عداه.استدراجه إلى الخروج من عبادة اللّه – أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور،وشعيرة ونسك،وشريعة ونظام – فأما الذين يدينون له وحده – أي يعبدونه وحده – فليس للشيطان عليهم من سلطان ..«إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ» ..

ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التي وعد بها المتقون وبين الاتجاه إلى جهنم التي وعد بها الغاوون،هو الدينونة للّه وحده – التي يعبر عنها في القرآن دائما بالعبادة – أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة.

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود اللّه سبحانه،ولا صفاته ..أي إنه لم يكن يلحد في اللّه من ناحية العقيدة! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة للّه ..وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين.إن الدينونة للّه وحده هي مناط الإسلام.فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير اللّه في حكم من الأحكام.وسواء كان هذا الحكم خاصا بالاعتقاد والتصور.أو خاصا بالشعائر والمناسك.أو خاصا بالشرائع والقوانين.أو خاصا

[٢٤٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١١٢٣]

بالقيم والموازين ...فهو سواء ..الدينونة فيه للّه هي الإسلام.والدينونة فيه لغير اللّه هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان.

ولا يمكن تجزئة هــذه الدينونــة واختصاصــها بالاعتقــاد والشــعائر دون النظــام والشرائع.فالدينونة للّه كل لا يتجزأ.وهي العبادة للّه في معناها اللغــوي وفي معناهــا الاصطلاحي على السواء ..وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان![٢٤٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٤٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٨٩]

قال تعالى :«يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ،وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ،وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ،وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ،وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً.يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ،وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً» ..

إن اللّه – سبحانه – يتلطف مع عباده فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم،ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر.إنه يكرمهم – سبحانه – وهو يرفعهم إلى هذا الأفق.الأفق الذي يحدثهم فيه،ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم وليقول لهم:إنه يريد:أن يبين لهم ..

«يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ» ..يريد اللّه ليكشف لكم عن حكمته ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة،وأن تتدبروها،وأن تقبلوا عليها مفتوحي الأعين والعقول والقلوب فهي ليست معميات ولا ألغازا وهي ليست تحكما لا علة له ولا غاية وأنتم أهل لإدراك حكمتها وأهل لبيان هذه الحكمة لكم ..وهو تكريم للإنسان،يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فيدركون مدى هذا التلطف الكريم.

«وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» ..فهذا المنهج هو منهج اللّه الذي سنه للمؤمنين جميعا.وهو منهج ثابت في أصوله،موحد في مبادئه،مطرد في غاياته وأهدافه ..هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد.ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى اللّه في كل زمان ومكان ويكشف عن وحدة منهج اللّه في كل زمان ومكان ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول،في الطريق اللاحب الطويل.وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه ..إنه من هذه الأمة المؤمنة باللّه،تجمعها آصرة المنهج الإلهي،على اختلاف الزمان والمكان،واختلاف الأوطان والألوان وتربطها سنة اللّه المرسومة للمؤمنين في كل جيل،ومن كل قبيل.

«وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ» ..فهو - سبحانه - يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم،ليرحمكم ...ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل،والتوبة من المعصية.ليمهد لكم الطريق،ويعينكم على السير فيه ..

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ...فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات.ومن العلم والحكمة تجيء هذه التوجيهات.العلم بنفوسكم وأحوالكم.والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم.والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء ...«وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً» ..وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده اللّه للناس بمنهجه وطريقته،وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات،ويحيدون عن منهج اللّه - وكل من يحيد عن منهج اللّه إنما يتبع الشهوات - فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام ،وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع،وشهوة تطاع،وانحراف وفسوق وضلال.فماذا يريد اللّه بالناس،حين يبين لهم منهجه،ويشرع لهم سنته؟ إنه يريد أن يتوب عليهم.يريد أن يهديهم.

يريد أن يجنبهم المزالق.يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات،ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها اللّه،ولم يشرعها لعباده؟

إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد،والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم.

وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة:ميدان تنظيم الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة،التي يحب اللّه أن يلتقي عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور،وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون ..في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده اللّه وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات؟

فأما ما يريده اللّه فقد بينته الآيات السابقة في السورة.وفيها إرادة التنظيم،وإرادة التطهير،وإرادة التيسير،وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال.

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال:ديني،أو أخلاقي،أو اجتماعي ..يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح،من أي لون كان.السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب،ولا يسكن معه عصب،ولا يطمئن معه بيت،ولا يسلم معه عرض،ولا تقوم معه أسرة.يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم،ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة! كل هذا الدمار،وكل هذا الفساد،وكل هذا الشر باسم الحرية،وهي – في هذا الوضع – ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة! وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر اللّه المؤمنين إياه،وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات.وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي،الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف.وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي،الذي لا عاصم منه،إلا منهج اللّه،حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء اللّه.

واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة اللّه بضعف الإنسان،فيما يشرعه له من منهج وأحكام.

والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه،ومراعاة اليسر فيما يشرع له،ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار.

«يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ،وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً» ..

فأما في هذا المجال الذي تستهدفه الآيات السابقة،وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات،فإرادة التخفيف واضحة تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة،وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون المثمر،وفي الجو الطاهر النظيف

الرفيع دون أن يكلف اللّه عباده عنتا في كبتها حتى المشقة والفتنة ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد.

وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة بمراعاة فطرة الإنسان،وطاقته،وحاجاته الحقيقية وإطلاق كل طاقاته البانية.ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال! وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج اللّه – وبخاصة في علاقات الجنسين – شاق مجهد.والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح! وهذا وهم كبير ...فإطلاق الشهوات من كل قيد وتحري اللذة – واللذة وحدها – في كل تصرف وإقصاء «الواجب» الذي لا مكان له إذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الأول والأخير وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الإنسان على ما يطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي،ومن كل التزام اجتماعي ..إن هذه كلها تبدو يسرا وراحة وانطلاقا.ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة.وعقابيلها في حياة المجتمع – بل في حياة كل فرد – عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة ..

والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي «تحررت!» من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة،يكفي لإلقاء الرعب في القلوب.لو كانت هنالك قلوب! لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة.حطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية.وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة في انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه الفوضى وبدأت هذه الآثار تظهر في أمريكا والسويد وانجلترا،وغيرها من دول الحضارة الحديثة.

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة،مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ إلى اليوم،وهي في طريقها إلى الانهيار التام،كما تدل جميع الشواهد.وهذه بعض الأمارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الأولى:

«إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم:اضمحلال قواهم الجسدية،وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما.فإن الهياج الدائم قد أو هن أعصابهم وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم.فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي،على فترة كل بضع سنين.لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام ..وهذا مقياس أمين،يدلنا كدلالة مقياس الحرارة – في الصحة والتدقيق – على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية[٢٤٤].ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال:الأمراض السرية الفتاكة.يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل،وتبعث بهم إلى المستشفيات،في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى،لكونهم مصابين بمرض الزهري،خمسة وسبعين ألفا.وابتلي بهذا المرض وحده ٢٤٢ جنديا في آن واحد في ثكنة متوسطة.وتصور – بالله – حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه – بجانب – في المضيق الحرج بين الحياة والموت،فكانت أحوج ما تكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين لسلامتها وبقائها.وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفر وكانت الحال تدعو إلى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل في سبيل الدفاع.

وكان – بجانب آخر – أبناؤها الشباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع،من جراء انغماسهم في اللذات وما كفى أمتهم ذلك خسرانا،بل ضيعوا جانبا من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم،في تلك الأوضاع الحرجة.

[٢٤٤] – مثل ذلك يقع الآن في أمريكا حيث لا يصلح للجندية ستة من كل سبعة ممن هم في سن التجنيد.وسنة الله لا تتخلف.

«يقول طبيب فرنسي نطاسي يدعى الدكتور ليريه:إنه يموت في فرنسا ثلاثـون ألـف نسمة بالزهري،وما يتبعه من الأمراض الكثيرة في كل سنة.وهذا المـرض هـو أفتـك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى «الدق».

وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخـرى »[٢٤٥].

والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشـكل خطـير:ذلـك أن سـهولة تلبيـة الميـل الجنسي،وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد،لا تدع مجالا لتكوين الأسرة،ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسـي العابر.ومن ثم يقل الزواج،ويقل التناسل،وتتدحرج فرنسا منحدرة إلى الهاوية.

«سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنسـاء الـذين يتزوجـون في فرنسـا اليوم.ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها.ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج،قل فيهم من ينوون به التحصـن والتـزام المعيشة البرة الصالحة بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض.حتى إنه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذي قد ولدته أمه قبـل النكـاح! ويتخذوه ولدا شرعيا! فقد كتب «بول بيورو»:من العادة الجارية في طبقة العـاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقا قبل أن يعقد بينهما النكـاح،أن الرجـل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا له.

وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين! فصرحت:إنني كنت قد آذنت بعلي عـن النكاح بأني لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالي به قبـل النكاح.وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة،فما كان في نيتي عند ذاك،ولا هو في نيتي الآن.ولذلك اعتزلت زوجي في أصيل اليوم الذي تم فيه زواجنا،ولم ألتق بـه إلى هـذا اليوم،لأني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية.

---

[٢٤٥] – كتاب الحجاب للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ص ١١٣ – ١١٤.

«قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورد:إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضا.ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحرارا طلقاء.ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة،فيتزوجون بامرأة بعينها،حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته،ولذة المخادنة الحرة خارج البيت »[٢٤٦].

وهكذا تدهورت فرنسا.وهكذا هزمت في كل حرب خاضتها،وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوما بعد يوم.حتى تحق سنة اللّه التي لا تتخلف وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان! بالقياس إلى تعجل الإنسان! أما في الدول التي لا تزال تبدو فتية،أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد،فهذه نماذج مما يجري فيها:

يقول صحفي ممن زاروا السويد حديثا ..بعد أن يتحدث عن «حرية الحب في السويد،وعن الرخاء المادي،والضمانات الاجتماعية في مجتمعها الاشتراكي النموذجي:

« إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوي الاقتصادي الممتاز وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكي الناجح وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أي عقل أن يتصوره من أنواع العقبات في الحياة ..إذا وصلنا إلى هذا الحلم البهيج الذي نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا إلى تحقيقه في مصر ..فهل نرضى نتائجه الأخرى؟ هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالي؟ هل نقبل «حرية الحب» وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة؟

«دعونا نتحدث بالأرقام ...» «مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة،وتكوين أسرة،فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض! ..مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج في الجامعة،فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق! «يقابل

---

[٢٤٦] – المصدر السابق ١١٥ – ١١٧.

هذا انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين.وارتفاع مستمر في نسبة عــدد المواليــد غــير الشرعيين.مع ملاحظة أن عشرين في المائة من البالغين الأولاد والبنــات لا يتزوجــون أبدا.

«لقد بدأ عهد التصنيع.وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠.كانت نسبة الأمهات – غير المتزوجات – في ذلك العام ٧ في المائة،وارتفعت هذه النسبة في عــام ١٩٢٠ إلى ١٦ في المائة.والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليهــا.ولكنــها ولا شــك مستمرة في الزيادة.

«وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن «الحب الحر» في السويد،فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشرة.والفتاة في سن الخامسة عشرة.وأن ٩٥ في المائة من الشبان في سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية! «وإذا أردنــا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب،فإننا نقول:إن ٧ في المائة مــن هــذه العلاقــات الجنسية مع خطيبات،و٣٥ في المائة منها مع حبيبات! و٥٨ في المائة منها مع صديقات عابرات! «وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين.وجدنا أن ٣ في المائة من هذه العلاقات مع أزواج.و٢٧ في المائة منها مع خطيــب! و٦٤ في المائة منها مع صديق عابر! «وتقول الأبحاث العلمية:إن ٨٠ في المائة من نساء الســويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و٢٠ في المائة بقين بلا زواج! «وأدت حرية الحب بطبيعة الحال إلى الزواج المتأخر،وإلى الخطبة الطويلة الأجل.مــع زيــادة عــدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت.

«والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة ..إن أهل السويد يــدافعون عــن «حرية الحب» بقولهم:إن المجتمع السويدي ينظر نظــرة احتقــار إلى الخيانــة بعــد الزواج،كأي مجتمع متمدن آخر! وهذا صحيح لا ننكره! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه إلى انقراض النسل.ثم الزيادة المروعة في نسبة الطلاق.

«إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم.إن طلاقا واحدا يحدث بين كــل ست أو سبع زيجات،طبقا للإحصاءات الــتي أعــدها وزارة الشــؤون الاجتماعيــة

بالسويد.والنسبة بدأت صغيرة،وهي مستمرة في الزيادة ..في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألف من السكان - ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عام ١٩٥٢،ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤.

«وسبب ذلك أن ٣٠ في المائة من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف،بعد أن تحمل الفتاة.

والزواج بحكم «الضرورة» لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي.ويشجع على الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق.فالأمر سهل جدا،وإذا طلب أحدهما الطلاق.فإن أي سبب بسيط يقدمه،يمكن أن يتم به الطلاق! «وإذا كانت حرية الحب مكفولة في السويد ..فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد ..إنها حرية عدم الإيمان بالله! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق.وهذه الظاهرة تسود الترويج والدنمرك أيضا.المدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشء والشباب.

«والجيل الجديد ينحرف ..وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا.إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف،وإلى الإدمان على المخدرات والخمور ..وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفا.أي ما يوازي ١٠ في المائة من مجموع أطفال العائلات كلها.

وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف ..إن من يقبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ و١٧ يوازي ثلاثة أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما.وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيىء إلى أسوأ ..ويتبع ذلك حقيقة رهيبة.

«إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية! ويقول أطباء السويد:

إن ٥٠ في المائة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية.ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية،ويزيد من دواعي تفكك الأسرة.ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ...»

والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال.ونذر السوء تتوالى.والأمة الأمريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر.ولكن عوامل التدمير تعمل في كيانها،على الرغم من هذا الرواء الظاهري وتعمل بسرعة،مما يشي بسرعة الدمار الداخلي على الرغم من كل الظواهر الخارجية!!! لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم،لا لأنهم في حاجة إلى المال.ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا،ناشئا من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع.

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكي يده على عصابة ضخمة ذات فروع في مدن شتى.مؤلفة من المحامين والأطباء - أي من قمة الطبقة المثقفة - مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنا،وذلك لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبسا،وهي التي أوقعته في حبائلها! كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين! وذلك في مجتمع لا يدري فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق! ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية! مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا يدع عصبا يستريح!!! وأخيرا يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقي الذي يعيشون فيه.

وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول:

«عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم.وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض،أولها:

الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة.

والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب،بل تلقنهم دروسا عملية في بابه.والثالث انحطاط المستوي الخلقي في عامة النساء،الذي يظهر في ملابسهن،بل في عريهن،وفي إكثارهن من التدخين،واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام ..هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام.ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر.فإن نحن لم نحد من طغيانها،فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان،ومن تبعهم من سائر الأمم،الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء،مع ما كانوا فيه من خمر ونساء،أو مشاغل رقص ولهو وغناء»[٢٤٧].

والذي حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة،بل استسلمت لها تماما وهي تمضي في الطريق الذي سار فيه الرومان! ويكتب صحفي آخر عن موجة انحراف الشباب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا،ليهون من انحلال شبابنا!

يقول:«انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا.وأعلن حاكم ولاية نيويورك،أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الإصلاح الذي يقوم به في الولاية:

« وعمد الحاكم إلى إنشاء المزارع و«الإصلاحيات» التهذيبية والأندية الرياضية ..إلخ» «ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات – التي انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين! – لا يدخل في برنامجه،وأنه يترك أمره للسلطات الصحية! «وأما في انجلترا فقد كثرت في العامين الأخيرين جرائم الاعتداء على النساء وعلى الفتيات الصغيرات في طرق الريف.وفي معظم الحالات كان المعتدي أو المجرم غلاما مراهقا.وفي بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة،وتركها جثة هامدة،حتى لا تفشي سره،أو تتعرف عليه،إذا عرضه عليها رجال البوليس.

---

[٢٤٧] – نقلا عن كتاب الحجاب للمودودي ص ١٣٠،١٢٩.

«ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه إلى القرية،عند ما أبصر على جانب الطريق – وتحت شجرة – غلاما يضاجع فتاة ..
«واقترب الشيخ منهما،ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه،وقال له:إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام! «ونهض الفتى،وركل الشيخ بكل قوته في بطنه ...ووقع الشيخ.
«وهنا ركله الفتى في رأسه بحذائه ...واستمر يركله بقسوة حتى تهشم الرأس! «وكان الغلام في الخامسة عشرة،والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها!» وقد قررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التي تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ في المائة من الشعب الأمريكي مصابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مضادات الحيويات كالبنسلين والاستريبتومايسين!) وكتب القاضي لندسي بمدينة «دنفر» أنه من كل حالتي زواج تعرض قضية طلاق! وكتب الطبيب العالم العالمي ألكسيس كاريل في كتابه:«الإنسان ذلك المجهول»:
« بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية.إلخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال.فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية ...ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى.وكالجنون،فإن الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذ في الازدياد.وهي أكثر العناصر نشاطا في جلب التعاسة للأفراد،وتحطيم الأسر ..إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية،التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن!» ..
هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة،في جاهليتها الحديثة،من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج اللّه للحياة.المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الإنسان الضعيف وصيانته من نزواته،وحمايته من شهواته،وهدايته إلى الطريق الآمن،والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة:«وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً.يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً»[٢٤٨].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٤٨] -في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٩٥٨]

الفهرس العام

مفرق الطريق بين التوحيد الكامل وبين الغبش الذي يعتريه ٣
مفرق الطريق بين العبوية الخالصة لله تعالى وبين عبودية غيره ٧
مفرق الطريق بين الصراط المستقيم وبين صراط المغضوب عليهم والضالين............ ٩
مفرق الطريق بين العبودية للّه وحده والعبودية للهوى ١٩
الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان ٢٦
مفرق الطريق بين من يعمل للدنيا والآخرة وبين من يعمل للدنيا ٣٣
مفرق الطريق بين هداية القرآن وهداية الشيطان ٣٥
مفرق الطريق بين من يلتزم بعهد الله وبين من ينقضه ٤١
مفرق الطريق بين فقه الحركة والحياة وبين فقه الأوراق ٤٣
مفرق الطريق بين من يدرك سمة الواقعية الحركية وبين من لا يعرف ذلك............ ٦٩
مفرق الطريق بين أهل الجنة وأهل النار ٧٢
مفرق الطريق بين نشأة الأمة المسلمة ونشأة الأمم الأخرى ٧٤
مفرق الطريق بين السعادة والشقاء ٧٨
مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ٨٢
مفرق الطريق بين طاعة ورسوله وبين معصيتهما ٨٨
مفرق الطريق بين الكفر والإيمان ٩١
مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام ١٠٢
مفرق الطريق بين التربية الربانية والتربية الجاهلية ١٢٣
مفرق الطريق بين القتال في سبيل الله وسبيل الشيطان ١٣١
مفرق الطريق بين تحمل المؤمنين لمصاعب الجهاد وتحمل الكافرين ١٣٣
مفرق الطريق بين العمل الذي يرضي الله والذي يغضبه ١٣٦
مفرق الطريق بين من يعبد الله حق العبادة وبين من يعبد غيره ١٣٨
مفرق الطريق بين الحق والباطل ١٤١
مفرق الطريق بين الاعتبار بالسنن الكونية والشرعية وبين التكذيب بها............ ١٥٣
مفرق الطريق بين الاعتماد على الله وحده وبين الاعتماد على غيره............ ١٥٦

مفرق الطريق بين انتصار الباطل في جولة وانتصار الحق في جولات.................. ١٥٩
مفرق الطريق بين من يعرف الحق ويقرُّه وبين من يعرفه ويجحد به ١٦٦
مفرق الطريق بين منهج الله ومناهج الجاهلية ١٧١
مفرق الطريق بين موالاة المؤمنين وموالاة الكافرين ١٨٥
مفرق الطريق بين قلوب أهل الإيمان وقلوب أهل الشيطان.......................... ٢١٧
مفرق الطريق بين سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ٢٢٣
مفرق الطريق بين الطريق بين أولي الألباب وبين العميان ٢٢٨
مفرق الطريق بين حفظ الله تعالى للقرآن الكريم وحفظ الناس للكتب السماوية ٢٣١
مفرق الطريق بين وراثة الأرض للصالحين وبين استيلاء المفسدين ٢٣٤
مفرق الطريق بين نظرة الكفار والمؤمنين للحياة ٢٤٢
مفرق الطريق بين من يأمن مكر الله وبين من يخافه................................ ٢٥٢
مفرق الطريق بين من يعتبر الجهاد لإعلاء كلمة الله وبين من يعتبره للدفاع عن النفس.. ٢٥٨
مفرق الطريق بين من ينفق ماله في سبيل الله وبين من ينفقه في سبيل الشيطان.......... ٢٦٧
مفرق الطريق بين من يبيع نفسه لله وبين من يبيعها لغيره ٢٧١
مفرق الطريق بين من يصدق بالوحي وبين من لا يصدِّقه............................. ٢٧٩
مفرق الطريق بين التصور الإسلامي وبين تصورات الجاهلية........................... ٢٨٣
مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده وبين الدينونة لغيره ٢٩٤
مفرق الطريق بين دعوة الأنبياء ودعاوى غيرهم.................................... ٣٠٣
مفرق الطريق بين ثمرات الإيمان في الدارين وثمرات الكفر.......................... ٣١٨
مفرق الطريق في الصراع بين الحق والباطل ٣٢١
مفرق الطريق بين الاعتبار في السنن الكونية وبين إهمالها ٣٢٦
مفرق الطريق بين الإمهال والإهمال ٣٤٢
مفرق الطريق بين من يسلم ابتغاء مرضاة الله وبين من يسلم لعرض من الدنيا ٣٤٥
مفرق الطريق بين دين الله ودين الملك.. ٣٥٢
مفرق الطريق بين الاتجاه المحيي وبين الاتجاه المميت................................. ٣٥٥
مفرق الطريق بين نظرة الإسلام للإنسان ونظرة غيره................................ ٣٥٨
مفرق الطريق بين الاستقامة والتسيب ٣٦٣

مفرق الطريق بين التصور الإسلامي للفن والتصورات الجاهلية ٣٦٥
مفرق الطريق بين الإيمان والنفاق.. ٣٦٨
مفرق الطريق بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين ٣٧٠
مفرق الطريق بين الهدى والضلال.. ٣٧١
مفرق الطريق بين شكر النعم وكفرانها.. ٣٧٤
مفرق الطريق بين أول العمر وآخره... ٣٧٥
مفرق الطريق بين رسالة محمد ﷺ ورسالة الأنبياء السابقين ٣٧٧
مفرق الطريق بين السلام في الإسلام وبين الشقاء في الجاهلية....................... ٣٨٦
مفرق الطريق بين من يصبرون على مصاعب الطريق وبين من يسقطون على الطريق ... ٣٩٩
مفرق الطريق بين كمال الإسلام ونقصان غيره... ٤٠٢
مفرق الطريق بين الصدع بالحق وبين السكوت على الباطل.............................. ٤٠٩
مفرق الطريق بين الإيمان الحقيقي والإيمان المزيف.................................. ٤١٤
مفرق الطريق بين التحاكم لدين الله والتحاكم للطاغوت ٤١٦
مفرق الطريق بين الثبات على دين الله وبين المداهنة فيه............................. ٤٢٣
مفرق الطريق بين عوامل النصر والهزيمة ٤٣٢
مفرق الطريق بين المؤمنين وبين الشياطين... ٤٣٧
مفرق الطريق بين الانضباط والتفلت ٤٤٢